www.dvd4arab.com
Manas٧١٢

د.تامر ابراهيم

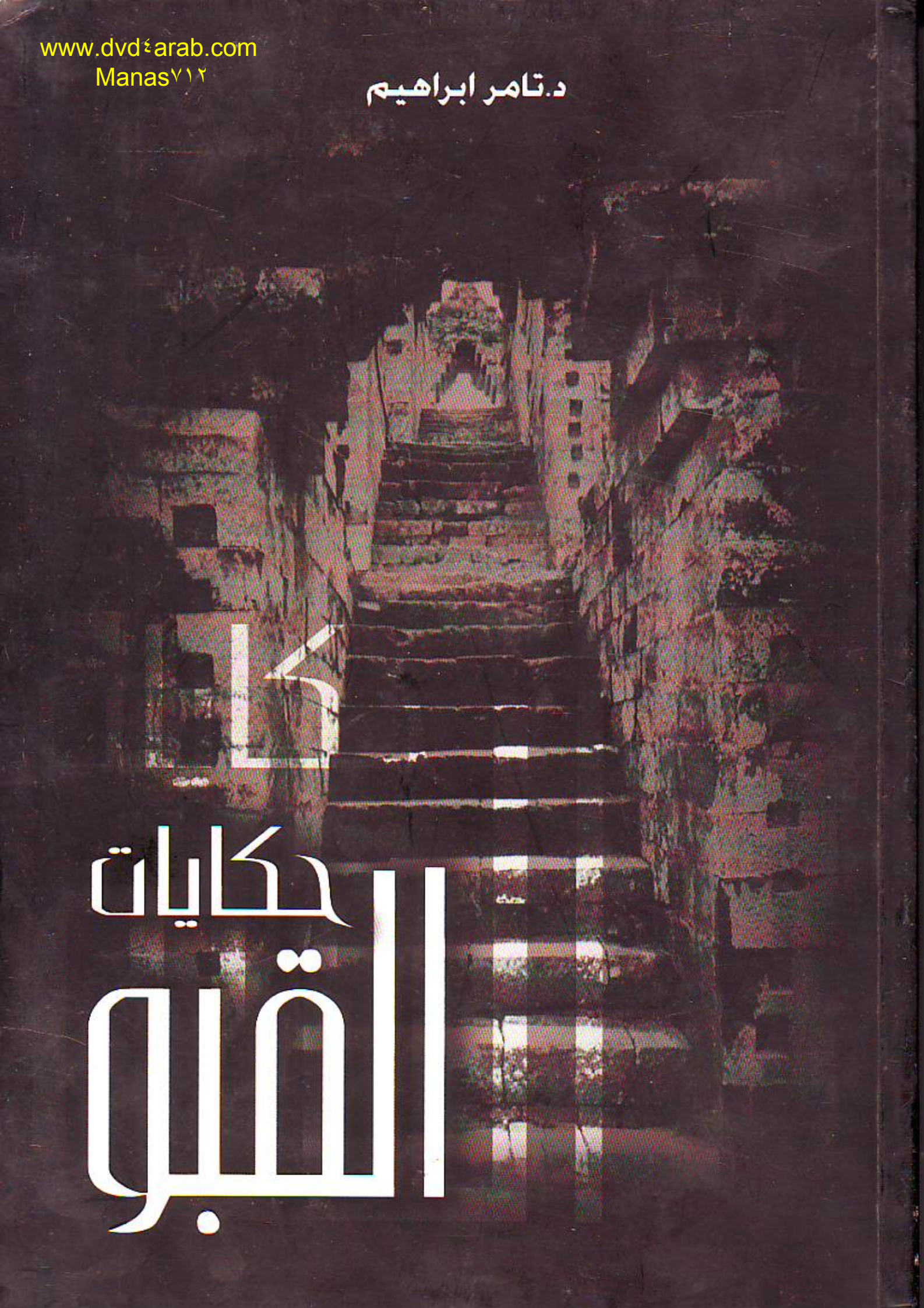

حكايات القبو

www.dvd٤arab.com
Manas٧١٢

القبو

د.تامر ابراهيم

غواصة في قلب المحيط ..
مركبة في غياهب الفضاء ..
جرامافون عتيق ..
قتل الدون باتشيني و قطار في ثلوج روسيا ..
إنه الرعب حين يكون في أي مكان و أي زمان ..
إنه الرعب حين يطلبك فهل تلبي النداء ؟
هل تجرؤ ؟!

DIAMOND BOOKS
إصدارات دايموند

الكويت
2008

إهداء

إلى ستيفن كينج دائمًا و أبدًا ..قبل كل شيء ..

في صغري شاهدت مسلسلا يحمل اسم (حكايات القبو Tales from the crypt) لم يكن لمن هم في مثل عمري أن يروه .. فمن بعده و إلى يومنا هذا لم تتوقف الكوابيس عن زيارتي في الليالي المظلمة و حين أكون وحيدًا ..

و في أحد الأيام حاولت أن أخرج هذه الكوابيس على الورق في صورة قصص .. حكايات أحكيها لمن يريدون الرعب .. لمن يطلبون الكوابيس .. حينها اكتشفت أن أدب الرعب يختار كتابه لا العكس .. لقد وجدت هذه القصص في أعماقي لأحكيها .. أنا لم أطلبها لكني أملك منها مئات .. آلاف .. فوق قدرتك على التخيل ..

و اليوم و بين صفحات الكتاب في يدك ستجد مجموعة من هذه الحكايات .. أول مجموعة لكنها ليست الأخيرة ..

لنقل فقط أنها بداية .. أو مدخل ..

مدخل إلى عالمي حيث يمتزج الخوف بالخيال بالذكريات بالظلام ..

مدخل إلى عالم يحمل قصصًا لها مذاق الرعب ..

و رائحة القبو ..

د . تامر ابراهيم

إنهم هنا ..

بغتة ..
انتفض مستيقظا ليحدق فيمن حوله ذاهلا ...
قمرة القيادة .... السفينة ... المحيط .. زجاجات الخمر الرحلة البحرية ... الطاقم ...
أفكار أخذت تبعث من ذاكرته مفعمة بعبق الخمر ، التي تناثرت زجاجاتها حوله ، فحدق فيها لحظة مستعيدا ذاكرته ثم ...
الطاقم .. أين الطاقم ؟ لماذا لا تتحرك السفينة ؟
اعادت ثورته ، ذاكرته له في لحظة ، فهب واقفاً ليندفع خارج قمرة القيادة ، صارخاً ..
– هؤلاء الأوغاد لن يذوقوا طعم الطعام لأسبوع و...
وبتر عبارته ، ليحدق في سطح السفينة الخالى تماماً قبل أن يقول :
– أين ذهب الجمع ؟
أجابته الرياح التى هبت في وجهه ، محملة برائحة البحر ، لتنفض عنه دهشته ، ولتعيد إليه ثورته فانفجر بها صارخاً...
– أين أنتم أيها الأوغاد الحمقي ...؟
وبخطوات واسعة اتجه الى السلم ، الذي يقود إلى الأسفل ، حيث عنابر النوم ، وقد عبثت شياطين الغضب بملامحه ، وفي نبرة صوته التى خرجت هادرة :
– تنامون حتي الآن يا أبناء الملاعين..
وضرب باب العنبر ، بركلة عنيفة فتحته على مصراعيه و... و ...
واخترقت الرائحة الشنيعة أنفه لتجعله ويبتلعها مع باقي جملته ، فأغمض عينيه متراجعا ثم فتحهما ، و...
– هل أهذي ؟!!
لكن الرائحة المخيفة التى تصاعدت من جثث طاقمه ، الذي تناثروا عبر العنبر أخبرته أنه لا يهذي...
بل جنّ ..
إن ما يراه الآن هو الجنون بعينه ...
ولدقيقة كاملة تصنم فيها جسده ، وتحجرت عيناه على المشهد ، أخذت صور عديدة تخترق مخيلية كضربات سكين ..
محيط .. رحلة ... خمر ... سطح خالى ... رائحة .. جثث .. جثث كثيرة... طاقمه كاملا...
ورغما عنه أخذ يتراجع الى الوراء بخطوات خائفة .. ثم أخذ يضحك .. يضحك ... يضحك ... يضحك...

••••••

عندما استيقظ هذه المرة ، كانت زجاجة الخمر شبه الخاوية لا تزال عالقة بيده...
وللمرة الثانية أخذ يحدق فيما حوله ذاهلا ، قبل أن يجرع ما تبقي في الزجاجة مرة واحدة لتعود إليه ذاكرته كاملة ...
إنه الآن في سفينة في قبل المحيط ، وحيداً بعد أن ذهب طاقمه كله إلى الجحيم...
مرحي .. هلى الأقل لن يقلي بشأن الطعام .. إلا لو كان هؤلاء الأوغاد قد ملئوا ه أجوافهم قبل أن يموتوا تلك الميتة الجماعية...
لا بأس ... لا بأس ... على الأقل إنه يظفر الآن بالهدووووووء ....
« أين القبطان ...؟»
دوي الصوت من خارج قمرة القيادة ، ليحطم زجاجة الخمر ، التى سقطت من يده ، ولتحطم فكرته عن الهدوء وعن ...
«لقد اختفي القبطان .. تخلى عنا ذلك الوغد ثانية ...»
وعن الموت ....
إنه ... طاقمه ... الذي .... مات ...!!!
ومأخوذا قام من مكانه ، ليخرج من قمرته ، متجها إلى عنبر النوم الذي استحال الى مقبرة جماعية ، ليشاهد الهول بعينيه ...
فأمامه كانت الجثث المشوهة في أماكنها ، وقد وقف إلى جوار كل جثة شبحها...
طاقم كامل من الأشباح ...!!!
وانتزع الكلمات من حلقة ليقول :
لقد جننت ... نعم ... جننت ...
لكن الجنون كان أبعد من أن يناله ، فالاشباح – التى بدت وكأنها لم تراه – واصلت :
ما الذي سنفعله إذن ..؟
سنواصل بدونه ... لا حاجة لنا به ..
... عظيم .. س ... سنذهب لـ... لنواصل بمفر .ردنا ..
خرج صوته هذة المرة مبحوحا لفرط انفعاله :
أنا هنا ..
لكن أحدا من الأشباح لم يعره انتباها ... بل خرجوا من العنبر ، ليصعدوا مارين على قيد سنتيمترات منه دون أن يعيروه أدني اهتمام ...
فقط تركوه وحيدا مع جثثهم ، التى لم تقل رائحتها شناعة عما ذي قبل...
مهلا .. لماذا لا يكون هو الشبح ؟؟؟
وماذا عن السفينة التى لا تتحرك ؟؟؟؟

وماذا عن تلك ... تلك الرائحة الشنيعة التى تكاد تنتزع روحه بحق ....؟؟؟!!
حسنا انه قبطان وطاقم من الأشباح ...
« هيه وصلنا يا رجال ...»
«مرحي .. لنهبط اذن ...»
أتاه صوت الأشباح ليجمد الدم في عروقه ....
ولن ...! لنهبط ...!! عن ماذا يتحدث هؤلاء الحمقي ؟!!
واندفع ليصعد إليهم ، ليجدهم يهبطون ثانية – دون أن يعيروه انتباها -كالعادة
– وقد حمل كل منهم معولاً ، لا يعلم إلا الله من أين أتوا به وأحدهم يقول :
– هيا ... سنهبط الآن ...
ورفع معوله بحنكة ، ليهوي به على قاع السفينة لتتفجر مياه المحيط الى الداخل..
وبرعب صرخ هو :
– ما الذي تفعلوه أيها التعساء ..؟؟؟!!
لكن المعول الثاني هوى لتتدفع المياه أكثر وأكثر...
ثم هوى المعول الثالث والرابع ، وتصاعدت مياة المحيط لتغمر القاع ، ولتصل الى في سعرة ساقية...
صرخ مجددا حتي نفرت عروقه :
– توقفوا ايها الملاعين ... ستغرقون السفينة ..
التفت أقرب الأشباح اليه بغتة ، ليقول بصوت لا يمت لعالم البشر بصلة :
نعم سنغرقها وستغرق معنا ...
تسمر في مكانة لحظة ، شعر فيها ببرودة مخيفة تثلج روحه ، وبرغبة قاهرة للتقيؤ .. ثم اتخذ قراره فجأة..
اندفع يعدو الى السطح مرددا ، من بين لهثاته :
– يجب أن أخرج من هنا ... يجب أن أخرج من هنا ...
لكنه توقف أمام مشهد النيران ، التى غطت سطح السفينة ، عاجزا عن التفكير ...!!
إنها لحظة الحقيقة كما يقول الإنجليز....
لقد أجاد الأشباح اللعبة حقاً..
لكن فكرة الغرق مع السفينة ، ومع طاقم من الأشباح ، دفعته لالقاء نفسه وسط النيران ، ليعدو صارخاً...
هذا جنون ... جنون ... جنووووون...
وألقي بنفسه من السفينة ، ليغوص في قلب المحيط ..

••••••

« مرت عشر سنوت على ما حدث ...»

قالها بصوت مزقت نبراته الشيخوخة ، للطفل الجالس أمامه ، في ذلك الكوخ الخشبي ، ابضا بيده على شراب ساخن ، رشف من رشفة ، ثم قال :
لست أدرى كيف نجوت بعد هذا .. كل ما أذكره أنني كنت أحارب ، للبقاء على سطح الماء ، أشاهد بعيني سفينتي تحترق ، وتغرق ، م انتشلتني سفينة أخرى بعد ذلك ، حيث بدأت أستوعب ما حدث...
سأله الطفل بلهفة ، وعيناه تلمعان ...
أبي .. قلت لى أنهم قالوا أنك تخليت عنهم ثانية .... كيف ؟!
تدفقت المرارة في صوته وهو يجيب ...
كنت مدمنا للخمر حينها ، لذا لم أذكر ما حدث قبل موتهم .. إنه الطاعون ... لقد أصيبوا بالطاعون قبل موتهم ، فتخليت عنهم وأغلقت على نفسي قمرة القيادة ومعي الأمصال الواقية ... كنت أخشي العدوي ، والخمر كانت قد ذهبت بعقلي ..
وإذ عادت أشباحهم ، كنت تبغي الانتقام ، بتلك المسرحية التى مثلوها ...
ثم أردف
صحيح أنني نجوت من انتقامهم يومها .. إلا أنهم تركوا لى عقابا قاسياً...
ورفع عينيه لينظر الى طاقم الأشباح ، الذي وقف خلف الطفل إياه بقسوة ، ليقول :
إنني أراهم طيلة الوقت وحدي ..
إنهم هنا ...

في الغرفة المغلقة

جذب عدة أنفاس من غليونه ، قبل أن ينثر الدخان في سماء الغرفة ..
ثم التفت إلى الطبيب الشاب الذي يرمقه طيلة الوقت بانبهار ، ليقول بلهجة عملية بحتة :
هل أنت مستعد ؟
نعم يا سيدي ..
إذن هيا بنا ..
و انطلق يتبعه ذلك لطبيب الشاب المنبهر ، إلى أكثر الأماكن رهبة في هذه المستشفى .. المشرحة .. حيث قضى أكثر من نصف عمره ..
ربما عمره كله ، لم يعد يدري .. حياته كلها دائرة من النوم .. الإستيقاظ .. الطعام .. المشرحة .. المائدة الرخامية الباردة ، تحمل له جسدًا ساكنًا و وجهًا يحمل عظة الموت و قسوته ..
ربما كان هذا الطبيب الشاب ، أول من يصحبه في عالمه البارد الخاوي .. إنه يريد أن يتعلم ، فليمنحه ما يريده إذن ..
و ما إن جمعتهما الغرفة الباردة ، حتى التفت إلى الطبيب الشاب ليقول :
- أهي أول مرة لك ؟!
- نعم .. نعم يا سيدي ..
مرحى !! .. هاهو قد بدأ يتوتر ، دون أن يرى الجثة حتى .. من الأفضل له ألا يفقد وعيه .. سيضيع هذا وقته بلا طائل ..
و أمسك الملف على المنضدة ، ليقرأه بعينيه لحظة ، ثم قال :
- حسنًا .. لدينا قتيلة في غرفة مغلقة من الداخل .. ما هي الإحتمالات التي نملكها إذن ؟!
انطلق الطبيب الشاب يجيب ، كأي طالب نجيب :
تسمم أو اختناق أو انتحار ..
عظيم .. دعنا نستبعد التسمم و الإختناق ، فهي لا تحمل أعراض كليهما .. ما المتبقي إذن ؟!
الإنتحار ..
ابتسم ابتسامة جانبية ، و هو يتجه إلى المنضدة الرخامية ، و دفع الغطاء الملوث ببقع حمراء طازجة ، قائلاً :
إذن فهذه هي أول حالة انتحار بفصل الرأس عن الجسد ..
و على عكس ما توقع تمامًا ، اقترب الطبيب الشاب من المنضدة متفحصًا الجثة مقطوعة الرأس ، باهتمام فضولي ، ثم بدأ يقول بصوت خلا تمامًا من التوتر :
- أنثى بيضاء في العقد الثاني من عمرها .. الرأس مفصول عن الجسد بأداة حادة .. شديدة الحدة في الواقع ، فلم أر في حياتي قطع له هذه الحواف ..
ربما كانت الأداة المتخدمة سيف ، أو فأس ..
- عظيم .. ليست ضحية انتحار إذن ؟!

– لا أستطيع الجزم بهذا الآن ..
أصابته إجابة الطبيب الشاب بالضيق ، فقرر أن ينهي هذا الجدل ، قائلاً :
دعني أمنحك الصورة كاملة إذن .. لقد كانت هذه الفتاة في غرفة مغلقة ، حين لاحظت أختها الدماء المنهمرة من أسفل باب الغرفة .. طرقت البابكثيرًا قبل أن تبدأ في الصراخ .. و حين اقتحم الجيران الغرفة ، و استدعوا الشرطة بعد ذلك ، كانت المجزرة التي رأوها ، تحمل لهم ألف سؤال ..
وصمت لحظة ليعيد إشعال غليونه ، و لينثر المزيد من الدخان ، قبل أن يتابع :
لقد كان كل شيء محطمًا في الغرفة .. بل منسوفًا و كأنما انفجرت قنبلة في المكان .. أما هي ، فكانت تسبح في بركة هائلة من الدماء ، و قد ألقى أحدهم رأسها في ركن الغرفة .. النافذة الوحيدة في الغرفة كانت مغلقة من الداخل ، و كذلك باب الغرفة .. و لم يكن لسيفك الحاد هذا أي وجود ..
ظل الطبيب الشاب جامدًا برهة يفكر ، قبل أن يقول أخيرًا :
كيف خرج القاتل إذن؟!
منحه هو مزيدًا من دخان غليونه ، دون أن يجيب ، فكرر الطبيب الشاب :
هل تعرف كيف ؟!
هاهو يقوده إلى الفخ ، بعد أن فتح هو بابه بنفسه .. فليدخل إذن أو ..
لنبدأ بفحص الجثة أولاً .. هذا هو عملنا ..
أعرف أنه عملنا .. لكن لماذا لا نضفي عليه القليل من المتعة ؟!
لا مناص من الفخ إذن ... ليلقي له بالكرة إذن ..
ما الذي تعتقده بالضبط ؟!
أن القاتل عبقري ..
أحسنت .. لنبدأ عملنا إذن !
لكن الطبيب الشاب بدا مصرًا ، و هو يتابع :
المشكلة الآن تكمن في ثلاث نقاط ، و هي كيف دخل إلى الغرفة ؟!.. كيف قتل الفتاة و حطم الغرفة ، دون أن تسمع أختها أي شيء ؟!..
و كيف خرج في النهاية ؟!
أجابه هو بنفاذ صبر :
إجابة السؤال الثاني أن أختها كانت في الخارج حينذاك ..
أما الأول فلا يهم .. كل القتلة يستطيعون الدخول دائمًا ..
ماذا عن الثالث ؟! .. كيف خرج ؟!!
لا مفر إذن ...
هذا الوغد سيجعله ينطق بالكلمة التي ظل أكثر من عشرين عامًا يحاول تجنبها ..
لا أدري ..
قالها باقتضاب ... بغضب .. بفشل .. بخجل ...

لنحاول أن نعرف إذن ..
هتف بعصبية :
كيف ؟!
أجاب الطبيب الشاب بحماس :
دعنا نستعيد ما حدث عمليًا .. هل بقايا الحطام موجودة هنا ؟!
نعم ..
عظيم ..
قالها و اتجه إلى باب المشرحة ليغلقه من الداخل بإحكام ، ثم تابع و عينيه تلمعان حماسة :
و الآن نحن في (غرفة مغلقة) تمامًا كما كانت هي .. أين بقايا الحطام ؟!
أشار إلى مجموعة من الأكياس ، موضوعة على المنضدة ، دون أن ينطق ، مراقبًا إياه بعينيه ..
أما هو فأخذ يتفحصها بعناية ، و لعشر دقائق كاملة ، قبل أن يقول :
و الآن دعنا نتخيل المكان .. لقد كان السرير هناك في الركن الأيسر من الغرفة على سبيل المثال .. و الغرفة مضاءة بمصابيح النيون ، و ثمة مرآة ذات بروز خشبي على الحائط ، و خزانة ملابس قرب السرير .. لقد كانت هي تجلس على السرير أو نائمة عليه حين دخل القاتل .. لا يهم كيف ظهر كما اتفقنا من قبل .. السؤال هو ، هل قتلها على الفور ؟!
لا أعتقد .. هناك جروح قطعية في باطن الكفين و في الذراعين .. إنها جروح مقاومة على الأرجح ..
هذا يعني أنها كانت مستيقظة حين ظهر ..
تسلل الحماس إليه نوعًا ما ، ففحص الجثة بعينيه ، قبل أن يجيب :
ثمة خدوش و شظايا زجاجية ، تركت جروح (ماقبل الوفاة) .. أي أنه حطم الغرفة ، قبل أن يقتلها ..
عظيم .. لماذا ؟!
ليخفي الأدلة على الأرجح ..
لا أعتقد .. كان ليفعلها بعد قتلها ، لو أن هذا هدفه ..
لماذا إذن ؟!
لا .. أدري ..
الآن تتعادل الكفتان !!
لقد منحه عجز الطبيب الشاب ، شعورًا عارمًا بالراحة ..
دعني ألقي نظرة على البقايا أولاً ..
و أخذ يفحص البقايا ، بعينين تحملان عشرون عامًا من الخبرة ، و إذ اعتدل أخيرًا ، قال :
- هل تساءلت عن سر وجود هذه ؟!

قالها و رفع بين أصابعه بقايا شمعة سوداء ، حدق فيها الطبيب الشاب باستغراب قبل أن يقول :
لم أقف كثيرًا عندها .. ربما استخدمتها لأن التيار الكهربي انقطع أو .. لو كان التيار الكهربي قد انقطع لفتحت النافذة، هذا هو رد الفعل الطبيعي لأي امرأة ..
ثم لماذا تحضر شنعة وتشعلها ثم تغلق الباب و النافذة عليها من الداخل ؟
ألا تجد هذا غريبًا ؟!
بالطبع ..
ثم هناك هذه البقايا الورقية .. هل لاحظتها ؟ .. لقد مزقها أحدهم بعناية فائقة ، و بعضها يحمل دماء جافة ، بالتأكيد دماء الضحية ، لكن هل جاءت هذه الدماء قبل أم بعد قتلها ؟!
عاد الإنبهار إلى عيني الطبيب الشاب ، و هو يقول :
و ما المكتوب في هذه الورقة ؟!
دعنا نجمعها لنرى ..
و على الرغم من أن عملية جمع البقايا الورقية ، كانت مرهقة و مملة ، إلا أنه كان يشعر بحماس غير عادي أورثه إياه الحماس في عيني الطبيب الشاب ، و الرغبة في معرفة ما يحدث ... أو ما حدث بالفعل ..
في الغرفة المغلقة ...
«هل تفهم شيئًا من المكتوب ؟!!»
قالها الطبيب الشاب بعد نصف ساعة ، قضياها في جمع الورقة ، ليحدقا بعد ذلك في الرمز الغريب الذي تراصت أسفله كلمات بلغة أغرب ، و قد أخفت آثار الدماء الجافة ، معظم الحروف لتزيد الأمر تعقيدًا ..
و لم يملك هو نفسه من الإنفجار صائحًا :
- لا أعرف ما هذا .. لقد مللت هذا كله .. نحن نضيع وقتنا بلاطائل .. ربما لم تكن لهذه الورقة علاقة بالجريمة أساسًا .. لنترك للشرطة مهمة العثور على القاتل ، و لننته نحن من ..
«مهلاً ... لقد نسينا الشمعة»
قاطعه الطبيب الشاب بهذه العبارة ، ثم تناول الشمعة بلهفة ، و أخرج علبة ثقاب من جيبه ، أشعل بها بقايا الشمعة السوداء ، قبل أن يثبتها على المنضدة أمام الورقة ، ليقول:
أعتقد أنه يجب أن نغلق المصباح ..
و دون أن ينتظر رده كان قد ضغط على الزر بالفعل ، ليهوي الظلام على المكان إلا من ضوء الشمعة المتراقص ..
- ألن ينتهي هذا السخف ؟!
- لحظة أرجوك ..

صمت منتبهًا إلى حقيقة بالغة الأهمية ...
لو لم يستطيعوا تفسير ما حدث ، ستكون هذه هي أول جريمة كاملة تمر عليه في تاريخه كله ..
الجريمة الكاملة التي ظنّ أنها خرافة لا وجود لها .. عنقاء الطب الشرعي كما اعتاد أن يسميها .. و ها هي العنقاء تنفض رمادها و تعلن عن مولدها ..
لا ..
هناك حل حتمًا .. بالتأكيد هناك حل ..
لقد اعتاد أن يلعب لعبة الإختلافات العشرة حين كان صبيًا ، و كثيرًا ما كان يتوقف بعد الإختلاف الرابع أو الخامس ، ليشعر - على نحو يقيني - أنه لا يوجد سواها ..
لكنها كانت هناك ... دائمًا كانت هناك !!
الآن ليلعب اللعبة بصورة جديدة .. صورة فريدة من نوعها ..
على اليمين صورة فتاة تجلس في غرفتها ، تقفرأ على فراشها ..
و على اليسار صورة الغرفة المحطمة ، و الفتاة جثة تسبح في الدماء ، رأسها في ركن الغرفة ..!!
أين الإختلافات العشرة إذن ؟!!
السرير لم يعد موجودًا .. واحد ، المرآة تحطمت ... اثنان ، المصباح تحطم .. ثلاثة ، خزانة الملابس تحولت إلى شظايا .. أربعة ، الرأس في ركن الغرفة .. لم يكن مكانه هناك .. خمسة ، عظيم لقد اقترب .. الدماء في كل مكان ... ستة ، ماذا أيضًا ؟!! ... آه .. الورقة الممزقة .. سبعة ، و الشمعة السوداء .. ثمانية ، و المفتاح .. تســـ ....
المفتاح !!!
المفتاح !!... المفتاح ..!! المفتاح ..!!
لقد أغلقت الغرفة من الداخل ، كما قالت الأخت ، فأين المفتاح إذن ؟!
و قذف بجسده تجاه المنضدة ، التي تحمل على سطحها بقايا الحطام ، في تلك الأكياس البلاستيكية ، ليبدأ في فحصها بلهفة أفقدته صوابه ..
«وجدتها ..!!»
هتف بها الطبيب الشاب بغتة ، و قد التمعت عيناه بنظرة عجيبة ، أرغمته على التحديق فيه بدهشة ، و الطبيب الشاب يواصل ، موجهًا حديثه إلى الفراغ :
الجروح القطعية في باطن كفيها لم تكن جروح دفاعية .. هي أحدثتها بنفسها .. هي أسالت دماءها على الورقة ..
ثم وجه كلامه إليه فجأة ، متسائلاً بلهفة مجنونة :
أين مشرطك ؟!... ناولني إياه حالاً .. لا .. لا داعي .. ثمة واحد معي .. ها هو ..
و أخرج المشرط من جيبه .. حدق فيه لحظة على ضوء الشمعة ..

ثم – و بلا تردد – شق باطن كفه ، لتسيل منه الدماء على الورقة ..
« هراء .. هراء .. كل هذا هراء .. لا توجد جريمة كاملة »
صرخ هو بهذه العبارة بمزيج من الإنتصار و العصبية و الشعور بالخلاص ، ثم تابع :
دعك من هراءك هذا .. إنها ليست جريمة غرفة مغلقة ، فالضحية لم تغلق الباب على نفسها من الداخل .. المفتاح لم يكن معها .. ليس موجودًا ضمن البقايا .. كل هذا كان بلا طائل ..
فاجأه ذلك الصمت الذي أجاب به الطبيب الشاب ، و تلك النظرة العجيبة في عينيه ..
أجب يا هذا .. لقد انتهى الأمر ..
كررها و أخذ يحدق في الطبيب الشاب الذي همس فجأة :
لقد .. فهمت .. مافي الورقة .. لقد أخطأت هي .. و نحن كررنا الخطأ .. يالنا من حمقى .. لقد استحضرنا...
صرخ هو بعصبية :
انس هذه الورقة .. لقد انتهى كل شيء .. لقد ..
لكنه تر عبارته ، ليطلق شهقة فزع هائلة ، حينطار رأس الطبيب الشاب بغتة ليسقط في ركن الغرفة .!!!
و للحظة ظل الجسد واقفًا بلا رأس ، ثم هوى دفعة واحدة لتدوي الطرقات ... طرقات بدت و كأنها لآلاف المطارق ، تهوي على كل شيء في المشرحة محيلة إياه إلى حطام متناثر ..
و أمام عيناه الجاحظتان بهلع ، أخذ كل شيء في الغرفة يتطاير و يتحطم و ..
و سقط المفتاح و سط الحطام المتناثر تحت قدميه ..
و فهم كل شيء ..
فهم في تلك الثانية قبل أن يطير رأسه من على جسده ..!
في الغرفة المغلقة !!

••••••

الذي حدث هناك ..

- «هل لى أن أفهم ما الذى يحدث بالضبط .؟!»
قالها، ثم دارت عيناه فى الوجوه المحيطة، علّه يستشف إجابة منها دون جدوى ..
و اقترب منه هذا القصير، قائلاً بلهجة محايدة:
- عذراً لإستدعائك العاجل يا سيدى .. و لكن ثمة ما أوّد عرضه عليك..
زاده قوله هذا توتراً فعاد يتسائل:
- ماذا بالضبط ..؟!
- لست أظن الموقف قابلاً للشرح .. من الأفضل أن تراه بنفسك ..
و اجتاز بضعة ممرات، منحتها إضاءة النيون الشاحبة، جواً ثقيلاً، شعر به يجثم على نفسه و يخنق أفكاره المخدرة بآثار النوم الذى انتزعوه منه بذلك الاستدعاء العجيب ..
« نرجو حضور سيادتك على الفور .. الأمر عاجل و غير قابل للتأجيل ..»
ترى ما هو هذا الأمر العاجل الذى استدعوه من أجله ..؟!!
و ألقى نظرة أخرى، على ملامح القصير الذى سار إلى جواره صامتاً، فى محاولة أخرى لإستشفاف طبيعة الموقف، وأدها جمود ملامح القصير المستفز..
و أخيراً بلغا قاعة عرض الفديو، و ما أن دلفا إليها حتى أغلق القصير الباب خلفه بإحكام، ثم التفت إليه ليحدق فى عينيه بضراوة قائلاً:
- لقد منحت الأمر سرية مطلقة حتى تطلع عله بنفسك .. إنه يتعلق بالمركبة الفضائية (إس-32) التى أطلقناها الأسبوع الماضى فى مهمتها الاستكشافية ..
اصطبغ صوت المسئول بالتوجس و هو يقول:
- ما الذى حدث لها؟
منحه مساعده القصير نظرة صامته أذابت أعصابه، ثم واصل و كأنه لم يسمع سؤاله:
- التسجيلات التي ستشهدها الآن من داخل المركبة (إس-32) و لقد أخذنا فى تلقيها بعد ثلاثة أيام من إطلاق الملاكبة ..
و بدون أن ينتظر رده قام بتشغيل جهاز العرض
و على الشاشة المسطحة ، و أمام عينى المسئول ، أطل وجه شاب واضح القسمات، قصير الشعر، خرج صوته قوى النبرات على نحو يوحى بالثقة و هو يقول:
- هنا المركبة (إس-32) .. البث الأول .. الوضع مستقر و جميع الأجهزة تعمل بكفاءة .. السرعة تبلغ ثلثى سرعة الضوء و فى المسار الصحيح .. أجهزة الضغط و توليد الأكسجين تعمل بكفاءة .. سأقوم بإرسال البث الدورى الثانى بعد أربع و عشرين ساعة بالتوقيت الأرضى

قالها، و بدا كمن يمنح الكاميرا ابتسامه بلا معنى، ثم أظلمت الشاشة، و همّ المسئول بقول شيء ما عندما سطع ضوء الشاشة مرة أخرى فى عينيه حاملاً الوجه الشاب بملامحه الثابتة، و الذى انبعث صوته مرة أخرى يقول:
- هنا المركبة (إس-32) .. البث الثانى .. مازال الوضع ثابتاً .. الفحص الدورى للأجهزة يؤكد أن كل شيء على ما يرام .. فقط يبدو أن هناك خللاً ما فى أجهزة ضخ الأكسجين، فهى تضخ الأكسجين أقل من المعتاد .. لست متأكداً .. سأقوم بمراجعة جهاز الضغط و التأكد من هذا .. ما زلت أنطلق بسرعة ثابتة وفقاً للقصور الذاتى ..
البث القادم سيكون بعد أربع و عشرين ساعة بالتوقيت الأرضي ..
و مرة أخرى الإبتسامة غير ذات المعنى، ثم أظلمت الشاشة ، و إذ سطعت الشاشة مرة أخرى، كانت تحمل تفاصيل أكثر وضوحاً لأجهزة المركبة الداخلية، و للشاب الذى وقف وسطها ليقول و قد نحت القلق تفاصيلاً جديدة فى قسماته الواضحة:
- المركبة (إس-32) .. البث الثالث .. يبدو أن هناك خطأ ما .. لقد تأكدت من جميع أجهزة ضخ الأكسجين و جهاز إعادة تحويل ثانى أكسيد الكربون إلى و كلها تعمل بكفاءة و لكننى ما زلت أشعر أن الأكسجين أقل .. بالطبع سنستبعد احتمال التسرب، و هذا يترك لى احتمالاً .. حسناً إنه ليس احتمالاً ..
و صمت الشاب لحظه بدا فيها حائراً فيما يقول ثم اقترب بوجهه ليملأ به الشاشة أمام عيني المسئول مردفاً:
- الأمر يبدو كأنه هناك من يتنفس معى داخل المركبة ..!! .. لست أدرى .. على كل حال البث القادم سيأتى فى موعده المعتاد...
و هذه المرة اجتهد لينتزع ابتسامته المعتادة ثم أظلمت الشاشة مجددًا ..!
و على الفور قال المسئول و الخدر يغلف أعصابه أكثر و أكثر:
- ما الذى يعنيه بوجود من يتنفس معه داخل المركبة ..؟!!
أليس وحيداً داخل المركبة ..؟!!
- تابع يا سيدى .. تابع ..
و سطعت الشاشة مرة أخرى ، و انفجر معها صوت الشاب مخترقاً أعصاب المسئول، و هو يهتف و الإنفعال يصنع تموجات عنيفة فى ملامحه:
- هنا المركبة (إس-32) .. أعرف أن ما سأقوله سيبدو مجنوناً ، لكننى لست وحيداً فى هذه المركبة ..!!
نعم، لست وحيداً ، هناك من يتنفس داخل المركبة ..!!
يتنفس و أنا أسمعه بوضوح ..أسمع صوت تنفسه الثقيل طيلة الوقت .. إنه يستهلك الأكسجين بضراوة دون أن يخرج منه ثانى أكسيد الكربون ؛ ليتم إعادة ضخه فى صورة أكسجين..أشعر أننى أتنفس بصعوبة.. ربما أنا الذى يهذي.. ربما هى الرحلة التى أثرت عليّ .. حقًا أتمنى لو أننى أهذى..

و هذه المرة لم يلق بابتسامته قبل أن تظلم الشاشة..
وهذه المرة تملكت رجفة عجيبة جسد المسئول ، واتسعت عيناه فى مزيج من اللهفة و القلق منتظرًا سطوع الشاشة مرة أخرى..
وفى أعماقه بدأ شعور دفين بالخوف يشق طريقه إلى سطح أفكاره.. أفكاره التى استحال الخدر حولها الى طبقة كثيفة من الضباب و...
وسطعت الشاشة مجددًا..
وزحف الخوف بسرعة جنونية من قبره ، إلى سطح أفكار المسئول ، الذى حدّق بعينين زائغتين فى الشاب الذى جلس على أرض المركبة ضامًا ركبتيه إلى صدره وكأنما يذوذ بهما من خطر مجهول..
وتحدث الشاب.. بشحوب وجهه تحدث ..
بالإرتعادة فى صوته تحدث :
- إنه .. هنا .. هنا معي فى المركبة .. صدقوا هذا أو لا تصدقوه ، فلم أعد أبالي.. لقد فقدت تحكمى فى المركبة.. تغير مسارها وهى تتجه الآن إلى المجهول ذاته.. لست أدرى كم تبقى لي من أكسجين .. ولم يعد هذا يصنع فارقًا على أية حال.. فقط أتمنى أن ينتهى كل هذا سريعًا..
وأظلمت الشاشة..
هيستريا !!
هذا الوغد الذى يلعب بأعصابه الآن ، من على بعد آلاف الأميال ، مصاب بالهستريا..
لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك..
أم .. أم أن هناك شخص آخر حقًا ؟!!
واقتحم صوت مساعده القصير، الحيادي النبرة ، أفكاره قائلاً :
انقطع الإتصال بعد ذلك لمدة ثلاثة أيام .. ثم .. ثم جاءنا هذا البث..
ومع سطوع الشاشة مرة أخرى ، ظهر الهول..!
وانتفض جسد المسئول و الخدر يتلاشى فجأة تاركًا كل أفكاره تحت رحمة الخوف..
فأمامه ظهر الشاب و هو يحاول أن يمسك بأي شيء أمامه ليحافظ على اتزانه و على وجهه تبدت أقسى علامات الهلع ..
ترى هل كان يصرخ ؟!
أما المركبة نفسها فكانت تهتز لأغرب سبب ممكن.. وربما أكثر الأسباب إفزاعًا على الإطلاق .. لقد كانت هناك طرقات عنيفة على جدران المركبة الخارجية.. تمامًا وكأنما اجتمع مجموعة صبية مشاكسين على سيارة صغيرة ليوسعوها طرقًا وركلاً ، مع فارق بسيط مخيف ..
أنها ليست سيارة.. بل مركبة فضاء ..!!
وأنهم ليسوا صبية.. فهم على الأقل فى الفضاء الخارجى الآن..!!

وأظلمت الشاشة بغتة فشعر المسئول و كأنما فقد القدرة على التنفس ..
وانتزع كلمة واحدة من حلقه و كأنما ينتزع حربة من صدره :
- ريااااه..
وبدا صوت مساعده الحيادى كأنما يأتي من بعيد ، إذ قال:
- الآن سنشاهد آخر بث وصلنا من المركبة .. تماسك ..
و سطعت الشاشة مجدداً، ليبدو رذاذ دم على سطح الكاميرا، حدق فيه المسئول بفزع تضاعف مع ظهور وجه الشاب هذه المرة ..
ظهر وجهه ببطء .. من أسفل لأعلى ليملاء الشاشة .. عينان جاحظتان يرقص الرعب فى حدقتيهما.. جاحظتان بصورة غير طبيعية .. و خيوط الدم تسيل من فتحتى الأنف و الأذنين ..
و خرخ صوته هذه المرةمختنقًا مخيفًا .. فى حياته لن ينسى المسئول هذا الصوت الذي قال :
- الـ..ضغ..ط.. إ..نه..يتلاشـ.. هو.. فعل ها!!!
و انفجر الدم بغتة ليغطى الشاشة كلها و ليرتد معها جسد المسئول إلى الخلف ، كأنه الدم انفجر في وجهه هو ..
و عندما نطق أخيراً كان ما فعله أشبه بالصراخ:
- لقد مات .. هذا الشاب .. كيف؟! كيف حدث هذا ؟! .. و من الذي قام بإختبار أجهزة المركبة قبل أن تنطلق ..؟!! و ما الذى حدث هناك ..؟!!
أدار له مساعده القصير وجهاً صبغه الضوء القادم من الشاشة باللون الأحمر ليقول:
- سيدى .. أخشى أن هذه المشكلة ليست الأساسية ..
صرخ المسئول بغضب ارتجفت له حروفه:
- ما هى المشكلة إذن..؟؟!
اختفت النبرة الحيادية من صوت مساعده و هو يقول أخيرًا :
- المشكلة أن المركبة (إس-32) أرسلت لمهمة استكشافية بحتة .. و قيادتها تتم بواسطة الكمبيوتر، بصورة أوضح نحن لم نرسل أحد داخل هذه المركبة، نحن لا نعرف من هذا الشاب و كيف بلغ المركبة .. لقد أرسلناها خاوية ..
خاوية تماماً ..!!!
و على الشاشة ..
بدا و كأن وجه الشاب الذى غطاه الدماء يبتسم ابتسامه بلا معنى ..

••••••

الغرفة في نهاية العصر

يقول السيد (كريم) :
« تريد قصة مخيفة ؟ ... حسن ، سأحكي لك واحدة »

••••••

« هذه الأوراق عثروا عليها بعد أن انتشلوا أحد الغواصات البريطانية التي غرقت إبان الحرب العالمية الثانية ، كتبها أحد من كانوا داخل الغواصة ، و لم يقرأها أحد إلا بعد الحادث بسنوات طويلة ، لكنهم لم ينشروا هذه الأوراق قط ، و السبب ستعرفه حالاً .. »
بهذه الكلمات بدأ السيد (كريم) حكاياته ، فبادلته الإبتسامة الهادئة ، لأقول :
لقد جذبت اهتمامي ، لكني أشك أنك ستثير خوفي ..
لندع القصة تجيب عليك إذن ..
ثم إنه أخرج ملفًا قديمًا مهترئًا من حقيبته التي يحمل فيها حياته كلها ، و فتحه على المائدة بيننا و بدأ يقرأ ..

••••••

سألخص كل شيء في هذا التقرير ، فلا داع للإطالة ، إذ أنني لا أعتقد أن أحدًا سيقرأ هذه الأوراق على أية حال ، لكنها العادة التي تدفعني للكتابة ، و حين تقترب نهايتك ستعرف قيمة عاداتك القديمة.. صدقني ..
أنا الرقيب (جوناثان رايتز) .. لا أعرف تاريخ اليوم و لا يهمني أن أعرفه ، فلا فائدة لهذا هاهنا .. تلك الرفاهيات لم يعد لها وجود على متن الغواصة (U-78) .. معي هنا في قمرة القيادة كل من (كارل هانسن) و (ويليام سلانج) ، وكلاهما يحمل ذات الرتبة ، و ذات الوعد بالموت خلال يومان أو ثلاثة على الأكثر .. فنحن الثلاثة أيها السادة ، آخر من تبقى على قيد الحياة على متن الغواصة (U-78) !
القصة سهلة و لا تحتاج إلا لقليل من الإستنتاج ، غواصة ألمانية اعترضت طريقنا ، و أطلقت طوربيدها تجاهنا ، قبل أن نتمكن من الإبتعاد ما فيه الكفاية ، و الباقي لا يحتاج للإستنتاج بل للخيال .. أنت تسمع صرخة أحدهم يهتف أن طوربيدًا ظهر على الرادار و يتجه نحونا بسرعة ، لتجد أن خلية النحل التي تدير الغواصة قد أصابها الخبال .. الكل يصرخ .. الكل يجري .. الكل يضغط على أي زر يجده .. ضوضاء تعلو بانتظام مخيف .. تمتزج أصوات

الآلات بصراخ الرجال بصلوات الجميع في سيمفونية هائلة الإيقاع ، ثم يرتطم الطوربيد بجسم الغواصة ، لترتج روحك ذاتها في جسدك .. و فجأة تخمد كل الأصوات ..

ما يحدث بعد ذلك لن يجدي معه أي خيال .. أنت لم تر مشهد المياه و هي تتدفق داخل غواصة موشكة على الغرق ، و لو رأيته لمت هلعًا قبل أن تموت غرقًا ، و أنا لم أره لكني سمعت صرخات من رأوه في القسم السفلي من الغواصة ، إذ تدفق الموت عليهم بلا حساب ..

كنت حينها في قمرة القيادة ، لكن الصرخات كانت تدوي من حولي كأن جدران القمرة هي التي تصرخ ، و لم تتوقف الصرخات إلا حين هلك آخر من في الأسفل ، بينما كنّا نحن نعمل على عزل الأقسام الغارقة بمن فيها لننقذ ما يمكن إنقاذه .. لكن بعد فوات الأوان ..

المياه كانت تتسرب ببطء من الأسفل إلى الأعلى ، و الأسوأ أن الغواصة بدأت أبطأ رحلة غرق عرفها تاريخ البحرية .. إنها اللحظة التي يكتشف فيها الناجون ، أن من غرقوا في الأسفل كانوا أسعد حظًا منّا بكثير ، والناجون كانوا قلة بالمناسبة ..

صحيح أن الغواصة ارتطمت بالصخور لتتوقف عن رحلتها المخيفة إلى القاع ، لكننا و إذ بدأنا نحصي الخسائر ، انتبهنا إلى حقيقة موقفنا الجديد .. نحن لن نتمكن من الصعود ، و لا نملك وسيلة اتصال صالحة بالعالم الخارجي ، و المصير الوحيد الذي ينتظرنا هو الموت جوعًا في قلب المحيط البارد المظلم .. لابد أن الذين غرقوا في الأسفل يخرجون ألسنتهم لنا الآن !

و هكذا بدأ الناجون في التناقص .. و مع تسرب المياه المستمر ، لم يتبق في الغواصة مكان شبه جاف إلا قمرة القيادة و الغرفة في نهاية الممر حيث نقلنا جثث الذين هلكوا بردًا و جوعًا و يأسًا ..

يتناقص الناجون .. أكثر .. فأكثر .. على سطح الأرض يتركون زوجاتهم و أطفالهم و أصدقاءهم و ذكرياتهم ، ليموتوا هم في قلب المحيط ، في غرفة في نهاية الممر في الغواصة (U- 78) ..

و الآن أنا أجلس ما رفيقي ، لا نجد ما نفعله سوى أن نرمق الغرفة في نهاية الممر ، متسائلين أينا سيدخلها أولاً ، و الإجابة لم تعد تشكل فارقًا .. الأخير الذي سيتبقى فينا لن يجد من ينقله ..

على كل حال ، أنا لا أكتب لأحكي لكم هذا كله .. أي تقرير سيكتبه السادة المسؤولين الذين تركونا نهلك هنا سيفي بالغرض ، إنني أكتب ما أكتبه لأحكي لكم عن الصوت الذي جاء من الغرفة في نهاية الممر !

لقد بدأ الأمر في اليوم السابق ، حين كنت أشترك مع (كارل) و (ويليام) في آخر لفافة تبغ عثرنا عليها ، و أنا لست من هواة التدخين ، لكن من الحماقة أن أخشى على صحتي في موقفي هذا .. أذكر أن (كارل) حاول تزجية الوقت بأن

يسألنا :
هل سيتذكرنا أحد في الأعلى ؟ .. أعني على سطح الأرض ..
أعتقد أن أبي سيعلق صورتي في صدر المنزل ، ليريها لكل أصدقاءه ..
و سيفخر على الدوام بأنه أبو البطل الذي غرق في خدمة الملكة ..
كانت هذه من (ويليام) مشبعة بسخرية خفية ، فقلت أنا :
لا أعتقد أن أحدًا سيتذكرني .. لقد كنت مثيرًا للمشاكل على الدوام ..
أما أنا فواثق أن (جين) ستبكي عليّ طويلاً ، وربما ستقضي ما تبقى من عمرها دون زواج ، احترامًا لذكراي ..
قالها (كارل) حالمًا ، فمازحه (ويليام) :
هذا إن لم تكن قد تزوجت فعلاً .. حينها يمكنها أن تسمي ابنها باسمك احترامًا لذكراك ..
مستحيل .. (جين) تحبني أكثر مما تتخيل .. في الليلة التي وصلني فيها الإستدعاء ، أخذت تبكي بحرقة حتى كادت تفقد وعيها فرقًا ..
و شرد بعينيه ليواصل :
– (جين) هي الشيء الوحيد الذي سأفتقده على سطح الأرض ..
قلت أنا متناولاً منه لفافة التبغ :
أما أنا فأفتقد اليابسة ذاتها .. مازلت عاجزًا عن تصديق أن نهايتي ستأتي بهذه الصورة ، جزء في عقلي لا يزال يتشبث بأمل أنني سأنجو ..
إذن فأنت أحمق ، و لو أردت التأكد اذهب الغرفة في نهاية الممر لتعرف أنها النهاية حقًا ..
أخرسنا رد (ويليام) لنعود إلى حالة الصمت التي لازمتنا في الأيام الماضية ، و لم يتبق سوى دخان لفافة التبغ يتراقص من حولنا ، قبل أن يتبدد في بطء ..
إنه على حق .. لا أمل في النجاة .. لا أمل إلا إذا لجأت إلى ..
في هذه اللحظة قطع الصوت حبل أفكاري .. في هذه اللحظة سمعنا الصوت أول مرة ..
الصوت الذي انبعث من الغرفة في نهاية الممر ، ليجمد الدماء في عروقنا ، و ليحيل ساعاتنا الأخيرة إلى كابوس مخيف ، قائلاً :
كاااااااااارل .. تعال إلى هنا ...
لقد حان موعدك .. !!!!!!!!!!!!!!!!!

••••••

« كاااااااارل ... إنني أنتظر .. تعال نمرح سويًا .. »
قالها الصوت القادم من الغرفة في نهاية الممر .. صوت مؤلم .. صوت ماجن ..

صوت مخيف ..
حتى دخان التبغ تجمد في الهواء هلعًا ، فلك أن تتخيل حالنا نحن ، و أن تتخيل تعبير وجه (كارل) بالذات .. لابدّ أن وجوه من رأوا المياه و هي تتدفق عليهم في الأسفل قبل أن يغرقوا لم تحمل كل هذا الشحوب ..
« كاااااارل .. تعال إلى هنا .. لقد حان موعد موتك ..! »
ثم دوت ضحكة ماجنة لا يمكن أن تصدر من بشر !! .. أحرقت لفافة التبغ أنامل (ويليام) فألقاها بألم ، و هو يصيح مختنقًا بالدخان :
من .. من هذا ؟!
أجبته و عيناي معلقتان على وجه (كارل) الشاحب :
هل سمعت الصوت أنت أيضًا ؟! .. أعني .. إنه موجود حقًا ..
بالطبع سمعته .. لكن .. كيف ؟!!
خرجت الإجابة من بين شفتي (كارل) شاردة ، موجهة للفراغ :
إنه من غرقوا ..لقد عادوا لينتقموا منا ..
كف عن هذا العبث .. إننا نهلوس ، هذا كل ما في الأمر ..
قالها (ويليام) بلا اقتناع ، ثم تعلقت عيوننا جميعًا بالغرفة في نهاية الممر ، حيث نقلنا جثث الموتى .. و حيث عاد الصوت يقول :
– كاااااارل .. ألم أخبرك ؟ ..
لقد أجهضت (جين) طفلك .. أجهضته بعد سفرك على الفور ، كان يجب أن ترى هذا المشهد ، كان يجب ... كانت هناك دماء كثيرة ..
هنا لم يحتمل (كارل) أكثر ، فهبّ واقفًا و هو يصرخ بفزع :
من هذا الشخص ؟! ... من أنت ؟؟
فأجابته الضحكة الماجنة الرهيبة .. أيًا كان هذا الشخص ، كل ما أرجوه هو ألا يأتي إلى هنا !
الأجمل يا (كارل) أنها لم تحتمل عملية الإجهاض .. (جين) نزفت بعدها حتى الموت ، و بعدها رفض والدها حضور جنازتها .. لم يعد هناك ما تفتقده على سطح الأرض يا (كارل) .. و الآن هيا تعال ..
صرخ (كارل) و قد استحال لون وجهه الشاحب إلى لون الدم :
سأقتلك .. سآتي و أقتلك ..
و قبل أن نتمكن من منعه ، كان يعدو كالمجنون إلى الغرفة في نهاية الممر ، حيث جثث الرجال و ظلام المحيط .. و حين قمت لألحق به ، أمسك (ويليام) بمعصمي ليمنعني ، و حين نظرت إليه مستنكرًا ، أجابتني عينيه على ألف سؤال .. نعم .. لنر ما الذي سيجده (كارل) أولاً ..
و هكذا وقفنا نرمق (كارل) الذي غاب في ظلام الممر ، قبل أن يدخل الغرفة في نهاية الممر ، و الواقع أنه لم يدخلها فعليًا ..
ما رأيته بصعوبة بسبب الظلام هو أن (كارل) بلغ باب الغرفة ، ثم تكاثف

الظلام حوله بصورة عجيبة ، قبل أن ينجذب جسده لداخل الغرفة بسرعة لا تصدق .. شيء ما داخل الغرفة جذبه !

لم يجد (كارل) الوقت ليصرخ .. و لم أسمع صوت (كارل) و لم أره بعد هذه اللحظة قط ..

ناديت (كارل) بتخاذل ، لكنه لم يجب .. أنا أعرف أنه لم يعد على قيد الحياة ليجيب ..

و مرت دقائق من الصمت الثقيل ، ثم قال (ويليام) :

ما الذي حدث ؟!

لا أعرف ..

هل نذهب لنرى ؟!

اذهب أنت .. أنا لن أبارح مكاني مهما كان السبب ..

كان الهلع يشل قدرتنا على التفكير ، و قبل أن نجد الوقت لنستجمع أنفسنا ،

كان الصوت الماجن القاسي المخيف يقول :

– ويلياااااام .. إنه دورك ..

شهق (ويليام) بذهول و انتفضت أنا بخوف .. إنه دور (ويليام) ، و بعده يأتي دوري ..

لكن (ويليام) صرخ بعصبية :

تعال و خذني أيها الحقير ..

أجابه الصوت في الغرفة في نهاية الممر :

كف عن العبث يا (ويليام) أنا و أنت نعرف الحقيقة ..

تسلل الإرتباك إلى صوت (ويليام) :

ما .. ما الذي تقصده ؟!

لقد خدعوك .. الألمان عرفوا منك كل شيءعن الغواصة و مسارها ، ثم هاجموها و أنت داخلها .. كان يجب أن تتوقع هذا ..

أنت تكذب !!

حقًا ؟! .. (فرانز دايشتن) .. أليس هذا اسم ضابط الإتصال الذي بعته الأسرار ؟ .. لماذا لا تأت هنا يا (ويليام) ؟!.. سنتحدث قليلاً ..

و سنمرح كثيرًا ..

و جلجلت الضحكة لترتج الغواصة كلها ..

أما أنا فكنت في حالة صدمة كاملة ..

(ويليام) جاسوس للألمان !! .. كل ما نحن فيه الآن و كل الذي هلكوا ، و ذلك المصير المخيف الذي يواجهنا .. كل هذا لأن (ويليام) خائن حقير ؟!! .. لحسن حظه أنني لا أملك سلاحًا أو قدرة على القتال .. لكنه لو مات الآن سأتمكن من استغلال وسيلة الهرب الأخيرة ..

و أمام نظرة الإتهام التي سددتها له ، قال (ويليام) :

- إنه يكذب .. لا تصدقه ..
- أنت .. خائن ؟!!
- إنه يريد خداعك .. حتى لو كنت خائنًا ، فمن هو ؟! و ما الذي يريده منا ؟!!
كنت أعرف أنه محق في هذه النقطة على الأقل ، لذا قلت :
ما الذي سنفعله إذن ؟!
أجابني (ويليام) هامسًا :
يجب أن نعرف من هو هذا الشخص أو الشيء .. و نقتله ..
كيف ؟! .. هل سنذهب إليه ؟!
إنني لا أجرؤ على فعل هذا .. لكني سأحاول أن أخدعه ..
و هكذا رفع (ويليام) عقيرته صائحًا :
- لماذا لا تعيد إلينا (كارل) أولاً ؟.. بعدها يمكننا التحدث ..
أقسم أنني لم أعرف المعنى الحقيقي لكلمة (جذل) إلا حين سمعت الصوت في الغرفة في نهاية الممر، يقول :
تريدان (كارل) .. لا بأس .. سأرسل لكما (كارل) ..

و أرسل إلينا (كارل) ..
و لم نتمالك أنفسنا من الصراخ هلعًا مما رأيناه ...

●●●●●●

كان الظلام يغلف ما أمام الغرفة في نهاية الممر ، لكننا رأينا (كارل) ..
و لم نتمالك أنفسنا فصرخنا مما رأيناه !
لا أعرف كيف أصف المشهد ، لكني سأحاول تقريب الصورة لذهنك .. تخيل جثة رجل تسير تجاهك بحركة ميكانيكية بطيئة مخيفة .. تخيل أن هناك شيء ما يتحرك أسفل جلد هذه الجثة كأنه سائل يغلي .. تخيل أن الرأس يسقط على الصدر بزاوية ذات دلالة .. تخيل أن هذه الجثة كانت صديقك منذ دقائق معدودة الذي يتناوب معك على لفافة التبغ الأخيرة ..
تخيل أن الصوت الرهيب الماجن ، كان يصدر من أعماق جثة (كارل) ليقول :
- ها أنذا قادم إليكما .. انتظراني .. هي هي هي ..
ثم الضحكة الماجنة التي لم يكد (ويليام) يسمعها حتى انتفض ، ليصرخ :
إنه هو ...
لم أجرؤ على إصدار أي صوت أرد به عليه ، و لم ينتظر هو ردًا ..
بل اندفع إلى باب قمرة القيادة ، ليغلقه في وجه الهول المتجه نحونا ، و كانت تلك هي اللحظة التي اتخذت فيها قراري ..

إما الآن أو لا للأبد .. و هكذا اندفعت خلف (ويليام) لأضربه على مؤخرة رأسه بكل ما أوتيت من قوة ، ليسقط خارج قمرة القيادة و هو يصرخ بألم مستنكر ..
لكني لم أضع الفرصة بل دفعته بقدمي بغلظة ، و أغلقت باب القمرة عليّ من الداخل ..
قبل أن يتهمني أحد بالخسة ، أذكركم أن (ويليام) جاسوس خائن ، بسببه هلك جميع من كانوا في الغواصة (U-78) .. جميعهم عدا (كارل) بالطبع !
بالطبع كنت ألهث لفرط الإنفعال ، بينما بدأ (ويليام) يطرق على باب القمرة بهستريا من الخارج ، و هو يصرخ :
(جوناثاااان) ..
ما الذي تفعله أيها الأحمق ؟!!
لكني لم أجبه .. و الآن يأتي دور وسيلة الهرب الأخيرة من هذا الجحيم ..
(جوناثان) افتح ..
أرجووووك !
أنا أعرف أن هناك منفذ عبر قمرة القيادة ، إلا غرفة سرية تحتوي على كبسولة لشخص واحد ، يمكنها أن تنقلني إلى السطح ..
هذا السر هو أخطر أسرار الغواصة (U-78) على الإطلاق ، و أنا أعرفه لأنني كنت أهوى العبث في أوراق الجنرال قائد الغواصة بانتظام ..
(جوناثان) ...
إنه قادم نحوي ..
أسرع و افتح الباب ..
طيلة الوقت و أنا أعرف هذا السر ، لكني لم أجرؤ على استخدامه في وجود آخرين ، على استعداد تام لقتلي ليخرجوا هم من الغواصة ، لذا كان عليّ أن أنتظر حتى اللحظة التي أصبح فيها بمفردي ..
(جوناثان) ..
إنه ..
ثم دوت صرخة (ويليام) هائلة مريعة ، حتى أنني ظننت أنها ستقتلع باب القمرة ، و سمعت بعدها صوت عظام تتهشم بوحشية ، ثم توقف (ويليام) عن الصراخ .. و عن الوجود !!
أنا أعرف أن هناك منفذ ..
لكن أين هو بالضبط ؟!
جوناثاااااااااااااان ..
لم يعد هناك سوانا ..
يقولها الصوت المخيف ، فأشعر ببرودة عجيبة تغمرني .. لقد حان دوري ..
لكن لا .. سأعثر على المنفذ الآن ، و سأخرج من هنا ..

و هكذا بدأت رحلة بحثي في قمرة القيادة ، و الصوت يواصل :
- جوناثاااااااااااان .. افتح الباب .. سأريك شيئًا سيروق لك حقًا ..
ثم دوت أول ضربة على باب القمرة المعدني ، فقزت متراجعًا بفزع ..
لقد انبعج الباب المعدني السميك لشدة الضربة .. لا يوجد بشري قادر على تسديد مثل هذه الضربة للباب !
ضربة أخرى وينهار الباب ..
لذا أخذت أبحث كالمجنون بلا أمل حقيقي في النجاة ..
- جوناثاااااااااااان .. لا تحاول الهرب .. أنت آخر من أحتاجه بعدها يمكنني العودة ..
ضربة أخرى على الباب المسكين ، كاد ينخلع لها قلبي ، بينما انبعج الباب أكثر ..
إنها الضربة القادمة إذن ، لذا قررت أن أجاريه لأكسب بعض الوقت ، فصحت :
تحتاجني في ماذا ؟!
لأتغذى يا جوناثاااان ..
إنني أحتاج للغذاء كما تعلم لأتمكن من الإستمرار ..
لا تهرب لأنك لو هربت سأتبعك إلى السطح ، و ربما ذهبت بعدها إلى اليابسة ، و صدقني ..أنت لا تريد لمن هم مثلي أن يصلوا إلى اليابسة .. يمكنني حينها أن أذهب لوالدتك المريضة في مستشفى (كامبريدج) ، لأخبرها أنك لم تكن ولدًا مهذبًا يا جوناثاااان ..
هنا توقفت عن البحث و قد استبدت بي حالة عجيبة لا أعرف كيف أصفها بالضبط ..
هذا الشيء القادم من أعماق المحيط ، حيث تختفي درجات اللون و يسود السواد ، ليتغذى على جثثنا ، و لن يتوقف أمام أي عائق .. هذا الشيء كان ينتظر طويلاً ، و ها هي فرصته ..
ضحكة ماجنة مريعة ، ثم ضربة أخرى على الباب الذي لا أصدق أنه احتمل هذا كله ..
إنه على حق ..
لا يجب أن يصل مثل هذا الكيان إلى اليابسة .. لا أعرف ما هو و لا أريد ان أعرف ، لكني واثق من أنه يجب منعه من الوصول لليابسة ..
لذا اتجهت إلى تلك الخزانة المعدنية الضخمة ، و بدأت أدفعها تجاه الباب لأدعمه .. هذا لن يحل المشكلة لكنه سيمنحني الوقت اللازم .. و الآن عليّ أن أستعيد تركيزي لأبدأ في العمل على لوحة القيادة ..
تحمل الغواصة (U-78) ست طوربيدات لم تتمكن من إطلاقها .. ست طوربيدات قادة على إغراقنا و إنهاء حياتي و حياة ذلك الشيء الذي جاء إلينا من الغرفة في نهاية الممر ..!
نعم .. هذا هو الحل الوحيد .. المهم أن أنفذها كما يجب .. لن أرهقك

بالتفاصيل ، لكن المطلوب ببساطة هو أن أطلق الطوربيدات بينما الكوة التي تخرج منها مغلقة، حينئذ ستنفجر في الداخل .. التنفيذ ليس بهذه البساطة ، لكنني سأحاول ..
لكنني و إن كنت سأغرق الغواصة (U-78) فيجب عليّ أن أكتب السبب علّهم يعثرون على البقايا ذات يوم من الأيام ، حينها سيعرفون ما الذي حدث بالضبط .. و هذا ما أفعله الآن ..
أحكي لكم حقيقة ما حدث ، بينما الضربات تنهال على باب القمرة ، تخالطها الضحكة الماجنة الشيطانية التي يبدو أنها ستكون آخر ما أسمعه في هذه الدنيا ..
أنا (جوناثان رايتز) و هذه هي لحظة النهاية .. الباب ينهار أخيرًا بينما يدي معلقة على مفتاح إطلاق الطوربيدات و الآن أرى هذا الشيء على حقيقته أخيرًا و .. و ..
.....

●●●●●●

« هذه هي نهاية الأوراق ..»
يقولها السيد (كريم) لأخرج – بصعوبة – من حالة الذهول ، لأقول :
قصة عجيبة حقًا .. لكنها صعبة التصديق ..
يبتسم السيد (كريم) و يقول :
أنت على حق .. إنها صعبة التصديق ، لكن (جوناثان) كتب هذه الأوراق ، و وضعها في صندوق خاص في الغواصة ليضمن أنها لن تتلف ، و أن أحدهم سيعثر عليها في يوم من الأيام ..
ربما كانت هلاوس رجل يموت وحيدًا في غواصة غارقة ..
ربما و لكن ..
و تتسع ابتسامة السيد (كريم) أكثر :
– لكنهم حين انتشلوا بقايا الغواصة (U-78) لاحظوا شيئًا غريبًا .. الغواصة لم تحتو على أي جثة من جثث الرجال الذي غرقوا داخلها .. ربما كانت الأسماك .. لكن .. أي اسماك هذه التي لا تترك حتى العظام خلفها ؟!
وصمت ، فصمت أنا أيضًا أقلب الأمر كله في رأسي .. و لسبب ما شعرت بالقشعريرة تغمرني ..
و في النهاية قلت :
– على كل حال تبدو قصة لا بأس بها .. لكنني أتوقع المزيد ..
تراخي السيد (كريم) في مقعده الوثير ، و شبك أصابعه على صدره ليقول

بهدوء :
ستحصل على المزيد و لكن .. في المرة القادمة ..

••••••

الشيء في الأعماق

يقول السيد «كريم»:
اليوم سأحكي لك قصة « الشيء في الأعماق».. تلك القصة التي عثرت عليها في مذكرات القبطان «ديريك ويليامز»..

●●●●●●

لن يعرف أحد حقيقة ما حدث على السفينة «برايت نايت»، بل لن يعرف أحد ما حدث أصلاً إلا عبر هذه الأوراق، لذا أرجوكم التركيز والانتباه..
اسمي هو «ديريك ويليامز»، ولست هنا لأكتب مذكراتي، بل لأقص عليك ما حدث ويحدث وجزءا مما سيحدث.. لست هنا لأتحدث عن نفسي لذا لا تتوقع سخفًا على غرار «مر اليوم بلا أحداث» أو «كنت أشعر بالوحدة لذا ألقيت بنفسي لأسماك القرش».. أنا أكره كتابة المذكرات ولا أجد لها ضرورة إلا لو قتل صاحبها..
حينها سيأتي محقق متحذلق ليقرأ عشرات الصفحات من المادة الخام للسخف، قبل أن يعلن أنها لا تدل على القاتل..
ثمة هوس عجيب للمحققين عندنا أن يقرءوا مذكرات من يقتلون.. كأنه يتوقع أن يكتب أحدهم «بعد يومين سيقتلني ويليام.. أرجو أن تقبضوا عليه!»..
المهم.. نحن الآن على بعد عشرة أميال من شواطئ إفريقيا..
لقد نفذنا مهمتنا بنجاح، لكننا دفعنا ثمن هذا النجاح باهظًا إذ سقط منّا خمسة رجال، والأسوأ أن جثثهم لم تعد تصلح لنقلها أو دفنها حتى..لمن لا يعرف أي شيء عن الموضوع، سأشرح أكثر..
منذ أسبوعين استأجرني اللورد «جون مكارثي» أنا وطاقمي لمهمة عجيبة حقًا.. منحني خريطة قديمة بالية عليها علامة جمجمة، وأخبرني أنه عند هذه العلامة يعيش ساحر إفريقي، وعلينا أن نحضره له..
في الأحوال الطبيعية كنت سأرد الرد الذي يليق بمن يريدني أن أبحث عن ساحر إفريقي له، لكن اللورد «مكارثي» منحني من العملات الذهبية، ما يكفيني لأجوب بقاع الأرض بحثًا عن قردة حزينة تتحدث الأوردية، لذا جمعت طاقمي وشرحت لهم المهمة بسرعة، ثم أخرست سخريتهم بأن عرضت عليهم كيس العملات الذهبية، وأخبرتهم أننا سنحصل على المثل لو نفذنا المهمة بنجاح، هكذا أصبحوا على يقين أن قدرهم أن يعثروا على هذا الساحر الإفريقي..
هكذا تبدأ استعدادات الرحلات الطويلة.. تجهيز السفينة المتهالكة.. تخزين الطعام والشراب الخالي من الكحول.. توديع الأهل والأصدقاء..
وأخيرًا حفلة الليلة الأخيرة على اليابسة والتي نريق فيها كمًا من النبيذ يكفي لإشعال روما..

في النهاية تتحرك سفينتي الضخمة «برايت نايت» كمارد خشبي قادر -بمعجزة حقيقية- أن يظل على سطح الماء، وتمر أيام برائحة الملح وطعم الأسماك واللحم المقدد..تريدون اختصارًا أكثر.. حسنا..

بلغنا الشواطئ الإفريقية بعد رحلة شاقة تعرضنا فيها لعاصفة كادت تغرقنا وتضع حدًا لخطايانا، لكننا نجونا لنبدأ رحلة بحث في الغابات الإفريقية اللعينة عن هذا الساحر المخبول..

وهنا يجب أن أمنحكم بعض التفاصيل، فهي مهمة لفهم «ما حدث» وبالتالي «ما يحدث»..

حين بدأنا رحلة البحث كان الليل قد بدأ يخيّم بظلاله الكئيبة على تلك الغابة التي التحمت أشجارها وأوراقها لتتحول إلى جحيم أسود يعج بالطين والوحوش والحشرات، وكانت المشاعل في أيدينا لا تنير إلا حاملها، لكننا كنا مسلحين بالبنادق والخناجر، وكانت ذكرى كيس العملات الذهبية تملأ قلوبنا بالعزيمة والشجاعة..

علامة الجمجمة على الخريطة البالية كانت دقيقة لدرجة لم أرَها في حياتي على الإطلاق وأنا الذي رأيت مئات الخرائط، لكنني اعتبرت هذا علامة حظ، خاصة وأننا بعد مسيرة ساعات رأينا ذلك القادم مما وراء الأشجار، وبدا الأمر لنا وأن المهمة أوشكت على الانتهاء فأطفأنا مشاعلنا واقتربنا..

لكننا حين اقتربنا من مصدر الضوء لدرجة رؤية ما يحدث وسط الغابة المخيفة، كادت قلوبنا تتوقف هلعًا من هول ما رأيناه..

سأصف لكم المشهد، ثم سأحاول رسمه أسفل الصفحة لأقرب لكم الصورة..

ساحة دائرية حجرية، مضاءة بنيران حمراء ساطعة تخرج من الأرض مباشرة دون حطب يشتعل أو أي شيء قابل للاحتراق، وقرب النيران وقف ذلك الساحر الإفريقي وقد غلفته الظلال ممسكًا بأداة تشبه ريشة التلوين، أخذ يصبغ بها وجه ذلك الرجل الأبيض الواقف أمامه..

لا.. لا.. لم يكن واقفًا.. قدماه لم تمسا الأرض..

لقد كان معلقًا بخازوق خشبي اخترق جسده من أسفل البطن، ونفذ من مؤخرة العنق، ليبقيه معلقًا كالذبيحة.. لكن هذا لم يكن كل شيء..

لقد كان حيًا!!

الرجل الأبيض كان في هذا الوضع وعلى قيد الحياة، بينما الساحر الإفريقي يصبغ وجهه بذلك الطلاء الأحمر العجيب، وهو يحدثه بهدوء هامس، بينما الرجل الأبيض يرد عليها بذات الهمس، كأنهما صديقان قديمان يتناقشان في مسألة ما!

آه.. ولم يكن للرجل الأبيض سوى ساق واحدة، أما الأخرى فقد كانت على بعد أمتار منه وقد انتزعت بطريقة توحي أنها لم تكن جراحية على الإطلاق.. نعم.. هذا هو ما رأيته بالضبط..في غابة إفريقية وفي الظلام وأسفل وابل من الأمتار

لابد أنه قد أغرق سفينتنا ونحن هنا، نشاهد هذا المشهد الرهيب ونتبادل النظرات التي حملت ذات التساؤل..
كيف سيمكننا القبض على هذا الرجل والعودة به للديار؟؟
وهنا يجب أن أؤكد على نقطة مهمة.. لقد تصرفت بما يمليه عليّ المنطق السليم وقررت التضحية بالذهب.. أشرت للرجال بأننا سنعود لسفينتنا من دونه، ولأول مرة منذ عملت مع هذا الطاقم، لم أحظَ بأي اعتراض..
كنّا فقط نوّد الرحيل -وبسرعة- من هذا المكان.. لكن هذا لم يندرج تحت قائمة «ما حدث»..
ما حدث هو أن «ستيفن» -واحد منّا- خطا بقدمه على صخرة زلقة فسقط على وجهه وقد تعلقت يديه بالبندقية ليخرج منها طلق ناري وحيد، تردد دويه كانفجار هائل في هذه الغابة، ليحدث كل شيء بسرعة بعد هذا..في لحظة تلاشت النيران العجيبة من وسط الساحة الحجرية، وساد الظلام الكئيب على المكان، ثم دوت صرخة «ستيفن» فجأة..
واسمح لي.. أنت لا تعرف «ستيفن» لذا فلا يمكنك أن تعرف ما الذي يعنيه أن يصرخ «ستيفن»..
لقد احترق ظهره من قبل وكاد قرش ثائر أن ينتزع ذراعه، ولم يصرخ في الحالتين وكأنه يدرك أن الصراخ لا يليق بجسده الضخم، لكنه هذه المرة صرخ كما لم تصرخ امرأة فرنسية فوجئت بالألمان يقتحمون مخدعها مدججين بالسلاح..
صراخ صرخنا نحن حين سمعناه..
قبل أن أتمالك نفسي لأصيح:
تراجعوا إلى السفينة.. احموا أنفسكم بالبنادق.. حاذروا أن تطلقوا في وجوه بعضكم البعض..
وحين انتهيت شعرت بشيء ما يمرّ من جواري بسرعة هائلة -وأزعم أنني رأيت عينين تضويان في الظلمة لكنني لست واثقًا- ثم دوت صرخة «بيتر»..
ومع صرخة «بيتر» شعرنا بشيء آخر يتناثر في وجوهنا غير مياه الأمطار..
شيء دافئ لزج له مذاق ملحي مرير.. شيء يسري في عروقنا ونسميه الدماء..

حينها بدأ المهرجان..
الطلقات النارية امتزجت بالعاصفة بالصراخ بزمجرة وحوش الغابة وأخذت الدماء تتناثر كأن السماء تمطر به، وفي النهاية دوى طلق ناري أصاب الهدف المطلوب..
وهذه المرة لم نسمع الصراخ..
فقط هوى جسد الساحر الضخم على الأرض، فتجمعنا حوله لنفرغ بنادقنا في جسده، عاجزين عن الرؤية من فرط الظلمة، قبل أن نتوقف أخيرًا ليسود صوت

لهاثنا على الموقف كله..
وكان «جون» أول من تحدث:
- فقدنا خمسة رجال..
- لكنه سقط أخيرًا..
- لكننا فقدنا خمس رجال عليك اللعنة.. لم يكن هذا ضمن الاتفاق..
هنا أعترف أنني رددت :
- هكذا سيقسم الذهب على عدد أقل..
وهنا أعترف أن هذا هداهم قليلاً.. وقال أحدهم :
- هيا بنا إذن..
لكني قلت:
- ما هي إلا ساعات قليلة وينبلج الفجر.. لننتظره فلن أتحرك في هذا الظلام..
مرة أخرة لم أحظَ باعتراض، بل جلسنا على الأرض قرب جثة الساحر الإفريقي
لأشعر بجسدي يرتعش بشدة، فشكرت السماء على الظلام الذي أخفى هذا عن
الرجال..
وفجأة سأل أحد الرجال السؤال المتوقع:
- ما الذي حدث بالضبط؟!!
فكرت طويل، ثم أجبته:
- على ضوء الفجر سنعرف.. وسنفهم..

••••••

ثم جاء الفجر بعد طول انتظار، ومرت ليلة لم يستطع أحدنا أن ينام فيها ولو
للحظة..
وعلى الضوء الوليد بدأنا في رؤية ما حولنا، ورأيت أنا جثة الساحر الإفريقي
بوضوح لأول مرة..
ورأيت -رغم أنني أقسم إننا أفرغنا فيه بنادقنا- أنه كان سليمًا لا يحمل جسده
خدشًا واحدًا!!
لم يكن الساحر الإفريقي جثة هامدة كما كان ينبغي له أن يكون..
بل كان ممددًا على الأرض باسترخاء شديد وهو ينظر لي..
ويبتسم!!

••••••

مكبلاً بالأغلال نقلناه إلى السفينة ..

كان هذا قراري و لم يكن مبالغًا فيه ... حين يفرغ خمس رجال بنادقهم في صدر ساحر افريقي ، ليجدوه في الصباح سليم كالأفاعي يبتسم لهم ساخرًا ، فالقرار الحكيم هو أن تكبله جيدًا بالأغلال قبل أن تنقله إلى أي مكان ..
بالطبع طالب الرجال في البداية أن نتركه و ننجو بجلودنا ، لكني ذكرتهم بالذهب و بدم رفاقهم الذي سيضيع هباء ، فعدلوا عن قرارهم و رائحة عدم الرضا تفوح منهم ..
لا أنكر أنني كنت أرتجف هلعًا من فكرة أننا سننقل معنا هذا (الشيء) في سفينتنا ، و سنقضي معه أيامنا في قلب المحيط ، لكنني أخذت أذكر نفسي بالقفص الحديدي الذي أضفته لسفينتي مؤخرًا ، لأحبس فيه كل من يخالف أوامري ، و هي طريقة – و لو وجدتها قاسية – مجدية للغاية مع قطيع الرعاع الذي أقوده ... نعم .. هذا القفص سيستضيف ساحرنا اللعين حتى نلقيه في وجه من يطلبه ..
و لو بدر منه أي شيء خلال الرحلة ، فسأدفن باقي ذخيرتي في جسده و ألقيه إلى أسماك القرش ..
لكنني – أعترف – لازلت في أعماقي أرتجف ..
هلعًا ..

••••••

كانت حالة من الحزن و التوتر تسدو السفينة حين بدأنا رحلة العودة ..
و الواقع أنني كنت أفتقد من هلكوا في الغابة .. طاقم السفينة قطيع رعاع حقًا ، لكني لم أعرف رعاعًا سواهم في الثلاثين سنة الأخيرة من عمري ، و هكذا تجد أن ما يحتفظ به عقلي من ذكريات يتعلق بصورة أو بأخرى بلياليناً على هذه السفينة ..
و الآن هاهم يرقدون في قبو السفينة جثثًا هامدة في رحلتهم الأخيرة عبر المحيط تاركين لنا حصصهم من الطعام و الشراب !
نعم .. كقبطان لسفينة يقودها الرعاع يجب أن أفكر بهذه الطريقة ، فالليلة سيحصل من بقى حيًا على ضعف حصته التقليدية من الطعام و الشراب ، و هذا كفيل بتهدئتهم إلى اليوم التالي و حينئذ سأجد شيئًا آخرًا للرفع من حالتهم المعنوية ..
على أية حال هذه المذكرات ليست لحكي خواطري الشخصية ، بل هي لروي ما حدث أيها السادة و مازال أمامنا الكثير لنحكيه ..
الواقع أن كل ما حدث حتى هذه اللحظة كان شيئًا أشبه بالنسيم الذي يسبق العاصفة ..

العاصفتين لو أردنا الدقة ..

●●●●●●

القبطان الذي لا يشعر بالعاصفة قبل حدوثها لا يستحق سوى أن يرتدي ملابس النساء و الجلوس في داره جوار إناء الحساء !
لثلاثين سنة أخذت أسمع قصص من هلكوا في البحر لمجرد أنهم لم يعرفوا أن هناك عاصفة قادمة ليتجنبوها ، أو ليستعدوا لها بما يمكن الإستعداد به ..
لكني و على الرغم من هذا أصبت بالهلع حين شعرت بهذه العاصفة القادمة بالذات .. إنها ليست مجرد عاصفة .. إنها الأم الروحية لكل عواصف البحار التي هبت من فجر التاريخ ..
العاصفة التي تبدأ و تكتسب قوتها بسرعة قراءتك لهذه السطور .. العاصفة التي يمتزج فيها البرق بالرعد .. التي ترتفع فيها الأمواج حدًا لم تبلغه الجبال .. التي يصبح طنين الرياح فيهاأعلى من صوت صرخاتك ... عاصفة كهذه تستحق الإحترام حقًا ..
عاصفة كهذه عليك أن تتجنبها أو تهلك ..
هنا يأتي عامل الخبرة و انا لا أملك في هذا المحيط سوى خبرتي .. جمعت من تبقى من رجالي و ألقيت لهم بعشرات الأوامر عالمً أنهم لو نفذوا نصفها فسيكون هناك أمل بألا يبتلعنا المحيط .. ثم اتجهت أنا لأطمئن أنا ضيفنا الإفريقي – الذي أشعر أنه المسئول عن العاصفة بصورة أو بأخرى – سيظل في مكانه حتى نبلغ ديارنا و نحصل على الذهب ..
كنت قد وضعته في قفصي المعدني الضيق في أقذر مكان ممكن في قاع السفينة ، على أمل أن تصيبه كل أمراض البحر كعقاب مخفف له ، لكني حين بلغته في ذلك الركن المظلم الرطب ، رأيته يتمدد داخل القفص بإسترخاء عجيب ، محافظا على ابتسامته المخيفة ..
و كان يأكل !!
بيده الحرة كان يمسك بجثة قرد رمادي ضخم ، اختفى أكثر من ثلثي رأسه مخلفًا بعض الدماء حول شفتي الساحرالإفريقي !!!!
قبل أن يتساءل أحدكم ، هذا الوغد لا يرتدي سوى مئزر صنع من لحاء الأشجار يستر به عورته ، و فيما عداه يلتمع جسده الأبنوسي على ضوء مصباح الكيروسين الذي أحمله ، معلنًا أنه لم يكن هناك مكان يخفي فيه هذا القرد حين حملناه على السفينة ، و أنا أقسم بقبر أمي أنه لم يحمل شيئًا في يده منذ أن كبلناه ، و حتى جئنا به إلى هنا ، و بالطبع أنا أعرف أن سفيني لم يدخلها قرد إلا إذا ..
إلا إذا كان أحد الرعاع من رجالي كان يخفي قردًا على سطح سفينتي دون علمي ..
و هكذا استدرت عائدًا للسطح حين ارتفع الصوت الماجن الرهيب لأول مرة ، و

بلغة انجليزية سليمة يقول :
- ديريييييييييييييييك ... هل تذكر أين أخفيت جثة (ماكنيل) ؟
- !!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

••••••

في حياتي كلها لم أقامر سوى مرة واحدة ، و في هذه المرة كدت أخسر أهم شيء امتلكته في حياتي على الإطلاق .. كرامتي !
كنت قد احتسيت كمًا يفوق جرعتي المعتادة من الشراب ، مما دفع بالشجاعة في عروقي و الحماقة في رأسي ، فقررت أن أقامر متحديًا (جيمس ماكنيل) شخصيًا .. و لمن لا يعرف منكم (ماكنيل) سألخص لكم قصة حياته في سطر أو سطرين ..
صانع أسلحة عقد صفقة حمقاء مع أحد العصابات ، فقتلوا زوجته و طفلته الوحيدة و تركوه مختل العقل لا يمارس سوى القمار طيلة الليل و النهار ، حتى غدا لا يقهر فيه و لو تحداه أمهر الرجال و أذكاهم ..
لهذا لم أستغرق أنا أمامه سوى نصف ساعة كنت قد خسرت فيها كل ما أملك ، و مازال علي بضعة آلاف من الجنيهات لأسددها له ، و كان الرجال في الحانة يحيطون بطاولتنا يتابعون ما يحدث في شغف ، حين قدم لي (ماكنيل) عرضًا لم أنساه قط ..
نزع حذاءه القديم القذر لأول مرة منذ أن هلكت أسرته ، و وضعه على الطاولة أمامي ، عارضًا علي إما أن أقبله أو أن أتنازل له عن سفينتي ..
تحمس الرجال من حولنا ، و هللوا جذلين ، ثم نصحني بعض المتهاونين منهم أن أقبل حذاءه و أرحل بسفينتي ، لكني لم أحتمل الفكرة حتى .. فأعلنت أمام الجمع أن سفينتي باتت حقٌ له و رحلت في سرعة أعض على لساني بحرقة ... في حياتي لم يجرؤ أحد على توجيه مثل هذه الإهانة لي .. ثم أتي هذا الـ .. الـ ..
لهذا لن يلومني أحدكم لو قلت أنني انتظرته طوال الليل قرب الحانة ، ثم باغته في أحد الطرق المهجورة لأفقده الوعي ، فلم يستعد إلا و فوهة بندقيتي قد اخترقت فمه مهشمة أسنانه ، ليجد نفسه في آخر مكان قد يفكر أحد في البحث فيه عنه على الإطلاق ..
قبر ابنته !!
إنه يقف الآن على الهيكل العظمي الضئيل الذي يحيط به فستان أبيض بال ، و هذا هو كل ما قد تبقى من ابنته ..
لماذا أقدمت على هذه البشاعة ؟ .. السن الصغيرة .. الشراب .. الحماقة .. لايهم الآن ما السبب فمهما ندمت بعد ذلك لن يجدي الندم ..

في لحظة أدرك (ماكنيل) أين هو ، و على عكس كل توقعاتي بدت عليه الطمأنينة ، فلم أضع وقتي معه .. طلقة من بندقيتي .. رأسه الذي انفصل عن جسده يوي على هيكل ابنته .. ثم جسده يهوي داخل المقبرة لأردمه ، و لآخذ سفينتي و أرحل عن هذه المدينة إلى الأبد ..
لن يعرف أحد ما حدث أبدًا .. لن يجدوا جثته أبدًا .. لن يخرج هذا السر إلى العلن و سيرافقني إلى قبري يوم أموت ...
فقط لم أكن أعرف أنه سيأتي اليوم الذي أحضر فيه ساحرًا افريقيًا من غابة في قارة تبعد عن موطني آلاف الأميال ، ليتضح في النهاية أنه يعرف سري الوحيد !!

●●●●●●

و الآن تبدأ حرارة المصباح الكيروسيني في حرق آناملي دون أن أقوى على الحركة ، بينما الساحر الإفريقي أمامي في قفصه يواصل بصوته الماجن المخيف :
– ديرييييييييييك ... هل نسيت (ماكنيل) ؟ ..
إن ماسورة بندقيتك لا تزال تحمل آثار دماءه ، فهل نسيته ؟
هنا أنتزع آنا كلمة :
كـ ... كيف ؟
كيف عرفت ؟ .. لا تشغل بالك بهذه السخافات .. فقط فكر فيم سيشعر رجالك لو عرفوا .. هل تريد رأيي ؟ .. أعتقد أنهم سيغضبون يا ديرييييييك ... سيغضبون للغاية ..
يغضبون ! ..
سأكون محظوظًا لو أنهم اكتفوا بسلخي و إلقائي لأسماك القرش ..
لكن لماذا ؟ .. من الممكن وضع حد لتسرب هذه المعلومة الآن و ..
لا تفكر حتى .. أكثر من عدد أيام عمرك هم من حاولوا قتلي ، و انتهى بهم الأمر في جوفي .. ربما من الأفضل لك أن تساعدني ..
أساعدك ؟!
لم لا ؟ ... إنني لا أملك حرية الحركة كما ترى و هذا القرد لن يغني جوعي طويلاً ..
يبدأ عقلي المحموم في التركيز ..
تريد الطعام ؟ .. يمكنني أن ..
طعامكم لن أمسه .. إن لي طعامًا أفضل ..
عقلي المحموم يستوعب الحقيقة لكنه لا يصدقها ، بينما الصوت الماجن يواصل :

أعتقد أن اثنان من الرعاع الذين يقودون سفينتك سيكفونني حتى نصل ..
يمكنك أن تبرر اختفائهما بالعاصفة ..
أنت من سبب العاصفة إذن ..
أحاول مساعدتك فحسب يا ديرييييييييك .. أسرع فسفينتك لن تحتمل العاصفة طويلاً .. أسرع و إلا سيضغي رجالك الليلة إلى قصة لطيفة حدثت لقبطانهم بسبب بضع أكواب شراب زائدة ..
يقرر عقلي المحموم المخاطرة بمحاولة التخلص منه .. على الأقل المخاطرة ، لكن هذا الشيء يلقي بشيء ما تحت قدمي ، فأقفز مفزوعًا إلى الوراء ، لأرى على أرضية القبو الخشبية كل الرصاصات التي أطلقناها عليه من قبل و اخترقت صدره ..
سأبدأ برجلك القصير ذو الشعر الأشقر الطويل .. ذلك الذي يعرج قليلاً ..
فأقول أنا بلا وعي :
(مايك سنكلير) ..
إنه ليس اسمه الحقيقي ، لكنني سأبدأ به .. و لا تخش شيئًا ، فلن أترك عظامه حتى كيلا تضطر إلى دفنها في قبر أحد أقاربه ..
يقولها ثم يطلق ضحكة ماجنة مريعة ..
أما أنا ..
أما أنا فأخذت أفكر في الطريقة التي سآتي بها بـ (مايك) إلى هنا دون أن يشعر الباقون ..
و في الهول الذي سيحدث بعدها ...

••••••

سريعاً سأعرفك بمن بقى حيًا على سفينتي من طاقم الرعاع ...
(جون سكوفيلد) .. العصبي الذي لا يتوقف عن السباب .. (شين ماكلويد) ملك الخناجر كما يحب أن نسميه .. (دوريان القذر) .. الوحيد منا الذي لا يستحم مادمنا على سطح الماء ، لأنه يعتقد أن هذا يجلب الحظ السيء ، بينما أصر أنا أن هذا لا يجلب لنا سوى رائحته التي لا تطاق .. (ستيفن هوجز) العجوز .. يعرف عن البحار أكثر مما تعرفه أسماك القرش .. و أخيرًا (مايك سنكلير) .. أول الضحايا على قائمة الساحر الإفريقي !
أذكركم سريعًا بالموقف .. نحن الآن على بعد دقائق معدودة من أعتى عاصفة بحرية رأيتها في حياتي ، و في قبو سفينتي ساحر افريقي رهيب ، يطلب أن يكون رجلي (سنكلير) وجبته التالية و إلا سيكشف سري الخاص بـ (جيمس ماكنيل) الذي قتلته و دفنته في قبر ابنته ..

من يعرف منكم التفاصيل كاملة يدرك أنني لا أملك خيارًا سوى طاعة هذا (الشيء) الذي ينتظر طعم اللحم البشري ، و إلا فمصيري إلقائي في قلب العاصفة لأسماك القرش أو ما هو أسوأ ..
من يعرف منكم التفاصيل يدرك الآن أنني سألقي بواحد من رجالي في جوف ساحر افريقي لعين جلبناه من الغابة إلى حيث سندفع كلنا ثمن هذه المهمة البغيضة .. أنا سأضحي بواحد من رجالي في وقت أحتاج فيه لمن ماتوا سابقًا ، فما بالك بمن بقوا أحياءً ..
نعم .. يمكنني بسهولة أن أستدرج (سنكلير) إلى القبو ، لكن كيف سأبرر إختفاءه فيما بعد ؟؟
لهذا منحتك العاصفة .. الرجال يغرقون في العواصف لو كنت تذكر ..
يقولها الساحر الإفريقي بصوته الماجن المخيف ، فأتذكر أنني لازلت أقف أمامه أفكر ..
هيا أسرع .. لقد اشتقت إلى طعم الرجال البيض حقًا ..
قالها ثم أعقب قوله بإبتسامة كشفت عن أسنان ، لم أرها حتى في فم أسماك القرش .. و في عينيه التمع جذل عجيب ..
أما أنا .. فعلى الرغم من الرعب الذي ينمو في عروقي و ينتشر في كل عضلة في جسمي و تفوح رائحته من أنفاسي ، أهزّ رأسي بإستسلام ..
ثم أذهب لأحضر له (سنكلير) ...

●●●●●●

بلهجة لا تخلو من وقاحة أخبرني (سنكلير) :
لا لن أذهب إلى القبو طالما هذا الـ .. الـ .. الشيء هناك .. ارسل (شين) أو (دوريان) ..
لكنني أجبته بلهجة لا تقبل النقاش :
أنا القبطان على سطح هذه السفينة و أنا الذي يقرر من يفعل ماذا .. لذا اهبط إلى القبو و تأكد من أن قفص هذا الساحر محكم الإغلاق ، فلا أريد أن أجده على سطح معنا لو اشتدت العاصفة ..
لكن ..
صرخت فيه و قد فقدت أعصابي :
اذهب يا (سنكلير) و إلا سأحبسك معه في ذات القفص ..
أقسم أنني سأفعلها ..
هنا لم يجد (سنكلير) أمامه سوى أن يلعنني في سره و يتجه إلى القبو ، بينما وقفت أنا على السطح متابعًا إياه بنظراتي ..

و لا أعرف إن كان هذا متعمدًا ، لكن في اللحظة التي غاب فيها (سنكلير) التمع لسان برق هائل منَ السماء إلى المحيط ..
ثم و مع دوي الرعد هطلت الأمطار فجأة لتضربنا بلا هوادة ..
الآن أدرك أنني أحتاج لمعجزة كي أتجاوز هذه العاصفة بأربع رجال فحسب ..
الآن أدرك حجم الهوة التي سقطت فيها ..
و الآن أشعر بذات الشعور الذي شعرت به حين هوى رأس (سنكلير) في قبر ابنته و أنا أقف على عتبته و الدخان يتصاعد من بندقيتي ..
الآن تهمس شفتي لا إراديًا :
وداعًا سنكلير ..

●●●●●●

– « سوف تلقي بنا هذه العاصفة اللعينة في قلب الحجيم يا قبطان .. لن ننجو من كل تلك القذارة حتى لو اجتمعت أرواح البحار الحقيرة لتمد لنا يدها العفنة بالعون .. »
كان هذا (دوريان القذر) الذي لا تزيد نظافة لسانه عن نظافة جسده ..
لذا أجبته :
سنفعل ما في وسعنا لتجنب العاصفة ... لو استسلمنا سنغرق لا محالة ..
أعرف .. لكن عددنا قليل .. أين ذهب هذا الوغد (سنكلير) ؟؟
آثار تساؤله الإنتباه على سطح السفينة ، فكرر (شين) :
نعم .. أين اختفى (سنكلير) ؟
جاهدت لأبدو متماسكًا امام الرجال ، و قلت :
إنه في القبو ، يتأكد أن ضيفنا سيبقى في مكانه حتى نصل ..
سأهبط إليه لأحضره ..
لكنني صحت بارتياع :
لا .. أنا سأهبط .. نفذوا أنتم ما أمرتكم به ..
و دون أن أمنحهم فرصة للجدال ، استدرت متجهًا الى القبو ..
هذه الليلة لن تنتهي على خير ..
أنا واثق من هذا ..

●●●●●●

كل ما أحتاجه هو أن نتجاوز هذه العاصفة و بعدها يمكنني قيادة السفينة وحدي إلى الشاطيء لو اضطرني الأمر ..
إنني الآن في المرحلة التي يفقد فيها المرء عقله ببطء لكن بثقة .. الرجال في

الأعلى ينتظرون أن أعود لهم بـ (سنكلير) و أنا و أنتم نعرف أن هذا بات مستحيلاً .. و العاصفة تشتد و تجذبنا نحوها بقبضة لا ترحم ، و الأسوأ من هذا كله شعور الذنب الحارق الذي يستعر في أعماقي ..
أنا من قدت رجالي إلى رحلة لن يعود منها أحد .. بل إنني من يقودهم للمقصلو دون أن يعرفوا حتى ..
هيييييه ... انظر ماذا صنعت لك ؟
يدوي الصوت الماجن الرهيب في القبو ، فأنتفض و ألقي بنظرة سريعة على المشهد أمامي لأفرغ معدتي على الفور كأقل رد فعل لما رأيته ..
الدماء تغطي ك شيء .. دماء على الجدران .. على الأرضية .. على السقف لاتزال لزجة دافئة تتساقط قطراتًا مصدرة صوت (البليك) المقزز .. دماء في الهواء .. على شفتي الساحر الإفريقي و جسده .. على أسنانه و على شعره .. على قضبان القفص .. دماء سنكلير على صفحة ذنوبي ..
أعتذر عن الفوضى لكنه قاوم كثيرًا .. أنت تعرف كم تكون المقاومة ممتعة .. لقد مرحنا طويلاً ، لكنني صنعت لك هذه الهدية ..
و بذراعه الممدودة خارج القفص ألقى لي بعقد صنع بشعر و أسنان و بشرية .. كل ما تبقى من (سنكلير) ..
هذه هديتي لك ... مع تحيات (آرثر) ..
باغتني الاسم ، فتساءلت :
(آرثر) من ؟
من كنت أن تظنه (سنكلير) .. ألم أقل لك أنه ليس اسمه الحقيقي ؟ .. هو أيضًا كان يتخفى من ماضيه .. سر قبيح ظل يهرب منه طيلة عمره .. لكن هربه انتهى ..
هنا لم أتمالك نفسي من أسأل :
كيف .. كيف تعرف هذا كله ؟؟!
ضحك (الشيء) في قفصه ، ضحكة ماجنة مريعة ، و أجاب :
أنا أعرف كل شيء .. أعرف و أنتظر .. أعرف و أنتم تأتون إليّ بأنفسكم .. نعم ..
نحن من أتينا إليه .. و هو كان ينتظرنا ..
من كنّا نحسبه فريستنا ، أصبح هو صائدنا الذي ينوي التهامنا واحدًا تلو الآخر ..
و الآن أنا أريد (دوريان) .. (دوريان القذر) كما تسمونه ..
مستحيل .. الرجال يتساءلون عن (سنكلير) .. و العاصفة .. كيف سأنجو منها بثلاث رجال فحسب ؟؟ .مستحيل ..
أنا من بدأت هذه العاصفة و أنا قادر على إنهائها .. أما أنت فلا تملك سوى تنفيذ ما آمرك به ..

حاولت المقاومة :
لكن الرجال يبحثون عن (سنكلير) و لو طال غيابه سوف ..
لكنه قاطعني بصوت ماجن عابث :
تريدون (سنكلير) .. حسن ..
سأرسل لكم (سنكلير) ... !!!

●●●●●●

أسفل سيل الأمطار و على ضوء ألسنة البرق روى ليّ الرجال على السطح ما رأوه و هم يرتجفون هلعًا ..
اللعنة ..
لقد قفز القذر في المحيط ..
(سنكلير) اللعين خرج إلينا بوجه صامت و بدون أي تردد قفز في المحيط ..
و مؤمنًا على كلام (دوريان) قال (شين) :
- الأمواج ابتلعته في ثانية ..
لم نملك حتى فرصة إنقاذه ..
لكنني كنت أعرف الحقيقة ..
أنا أعرف أين انتهى الحال بـ (سنكلير) .. لكنني قلت :
لاوقت لدينا إذن ..
به أو بدونه يجب أن ننجو من العاصفة و إلا التهمتنا الأمواج نحن أيضًا ..
لكن الرجال تبادلوا النظرات بسرعة ، ليقول (ستيفن) العجوز بصوته الواهن :
قبطان ...
لقد اتخذنا قرارنا ..
نحن لا نريد هذا الإفريقي في سفينتنا ..
ما الذي تقصده ؟؟
سنلقيه في المحيط ..
هذا قرارنا و لن نعدل عنه ..
صحت في عصبية :
و أنا سأمنعكم ..
هذا الإفريقي سيظل معنا حتى نصل للشاطيء و نأخذ ذهبنا ..
مرة أخرى يتبادل الرجال النظرات ، ثم يقول (دوريان القذر) :
توقعنا هذا منك ..
إذن ..
إذن سنضعك في قفص الساحر بعد أن نتخلص منه ..
سامحنا يا قبطان ، لكنه قرارنا ..

قالها و دوى هزيم الرعد ليخرس أي رد من الممكن أن أتفوه به ..
أي رد ..

••••••

لكنه لم يكن هناك !!!!!!
حين حملني الرجال مكبلاً بالحبال إلى القبو ، وجدوا القفص المعدني مفتوحًا ، ووجدوا الدماء لا تزال تغطي كل شيء و تتساقط قطراتًا من السقف ، لكن ساحرنا الإفريقي لم يكن هناك ..
لم يكن هناك !
لم يكن هناك !
لم يكن هناك !
و رغمًا عني وجدتني أنفجر في ضحك هستيري بينما الرجال يتبادلون النظرات الحيرى ، بينما (شين) يردد :
- أين ذهب هذا (الشيء) ؟؟
يتساءل و أنا أضحك .. أضحك .. أضحك ..
إنه يعرف .. يعرف كل شيء و ينتظر ..
و إزاء ضحكاتي الهستيرية ، لم يجد الرجال سوى أن يلقوني في القفص و يغلقونه عليّ ، ليعلن (دوريان) :
- سنتفتش السفينة بحثًا عنه ..
و بينما قطرات الدم تهوي على رأسي من السقف ، لتمتزج بضحكاتي ، تركني الرجال ليذهبوا بحثًا عن (الشيء) ..
و بدأت عملية الصيد ..
صيدهم !!

••••••

كم مضى عليّ و أنا في القبو ؟؟ ..
لا أذكر ..
فقط أذكر كيف انتهى الأمر ..
كيف دخل عليّ (شين) في النهاية و الدماء تغطيه ، و قد فقد ذراعه اليسرى و شحب وجهه ليقول و الدماء تخرج من فمه مع حروفه :
لقد هلك الجميع ..
كلهم هلكوا ..
كنت قد أفقت من هوسي لأبدأ رعبي ، فصحت ذاهلاً :

ما الذي حدث ؟؟!!
لاوقت ..
يجب أن تنهي الأمر ..
يجب أن تنهيه قبل أن ينتهي كل شيء ..
ثم إنه فتح القفص ليتهاوى على عتبته ، فأسرعت إليه ، لينثر الدماء في وجهي من فمه مرة أخيرة :
يجب ألا يصل هذا (الشيء) للشاطيء ..
يجب أن .. أن ..
و لم تكفي حياته ليكمل جملته أبدًا ..
فقط استكان جسده إلى الأبد لينجو بنفسه من الهول ..
يجب ألا يصل هذا الشيء للشاطيء ..
الآن أفهم ما عليّ فعله للمرة الأولى ..
و الآن أسعى لتنفيذه ..

●●●●●●

لكنني قررت أن أكتب ما حدث أولاً ..
أخبرتكم أنني أكره كتابة المذكرات ، لكن هذه القصة هي الشيء الوحيد الذي يجب أن ينجو ، لذا ها أنا أروي لكم ما حدث و يحدث على صفحات من جلد و بحبر يقاوم الماء ..
ها أنا الآن أقف في القبو المظلم أنتظر عودة (الشيء) ، فلم يتبق له سواي ، بينما السفينة ترتج رجًا في قلب العاصفة ..
العاصفة التي بدأها هو و سأنهيها أنا ..
الآن سأتنبأ لكم بما سيحدث و سأضع هذه الأوراق في صندوق معدني منيع سيحتمل ما سيحدث .. فلا أعتقد أنني سأملك المزيد من الوقت ..
سيأتي (الشيء) إلى القبو بقامته المديدة و لون سواد الليل و بضحكاته الماجنة و صوته الرهيب ، و سيخبرني :
إنه دورك ..
حينها سأجيب :
أنا مستعد ..
الآن سيكون عليك إيصالي للشاطيء .. هناك سأمرح كثيرًا .. على اليابسة ..
لكنني سأتركه يقترب مني بخطواته الواثقة ، بينما بندقيتي خلف ظهري ..
أعرف ما تفكر فيه و ما خططت له ..
سيقولها ، فهو يعرف كل شيء ! ..
لكني سأتركه يواصل تقدمه إلى الحد الكافي ، ثم سأقول :
اعرف إذًا أنك لن تبلغ الشاطيء أبدًا ..

و بسرعة سأطلق النار من بندقيتي على براميل البارود المخزنة في القبو ..
و في العاصفة العاتية سيمتزج دوي الإنفجار بهزيم الرعد بصرخة الشيء ، و
ستتذكر السماء لون انفجار سفينتي إلى الأبد ..
نعم .. هذا ما سيحدث تقريبًا أو تمامًا ..
لكن هذه هي نهاية مذكراتي ..

••••••

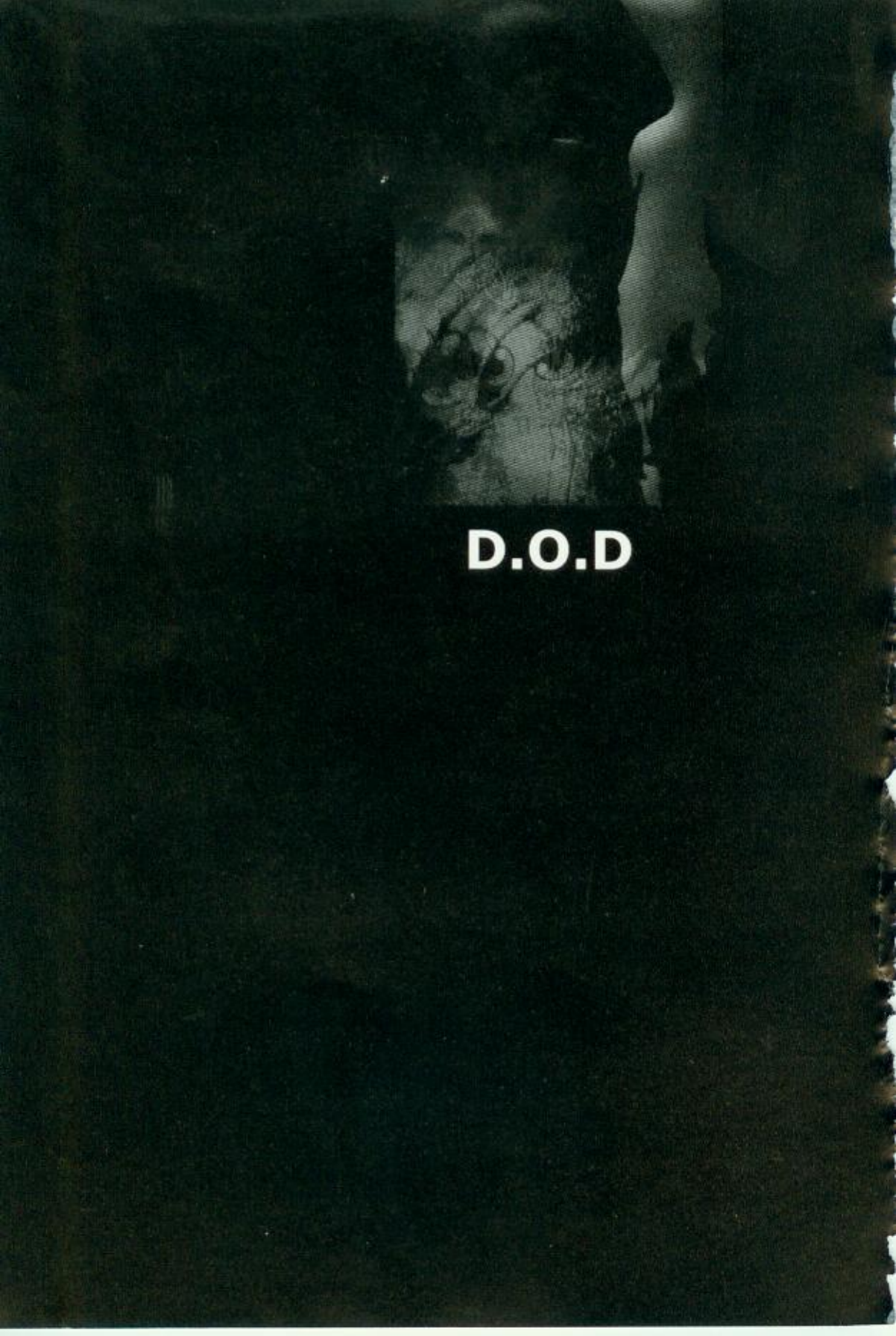
D.O.D

اليوم نكون قد أتممنا خمس أشهر في الفضاء ، لكني لم أفتقد الأرض أبدًا ..
لم أشعر بأي حنين للبابسة و لا للوطن و لا للبحر و لا للجاذبية ..
لم أشعر بما يشعر به رفاقي هنا .. لم أشعر بالوحدة !
يقول رفاقي هنا أنني بائس .. من لا يوجد لديه يشتاق إليه هو شخص بائس و وحيد ، لكنني أرد عليهم برد واحد منطقي ..
أرض تحولت إلى حطام مشع و سماء تغطيها السحب السوداء و بحار ملوثة بمزيج نادر من مخلفات الأسلحة و دماء الجنود ، هي أشياء لا تستحق أن أشتاق إليها أو أن أفتقدها .. على العكس تمامًا .. إنني محظوظ لأنني على بعد ملايين الأميال من هذا كله ..
صحيح أنني لم أكن قد ولدت بعد أيام الحرب الأخيرة ، إلا أنني رأيت كل ما حدث على مجموعة اسطوانات مدمجة يحتفظ بها أبي كتذكار ..
مزية التكنولوجيا الحديثة أنك تستطيع الإحتفاظ بسنوات من الحرب و الموت و الدماء و الأهوال ، على خمس اسطوانات فحسب ، و بسعر خاص بمناسبة ذكري الحرب الأخيرة ..
كان أبي ممن عايشوا الحرب ، و لم يستطيعوا أبدًا تجاوز ما رأوه ..
حالة أسماها العلماء باسم (متلازمة ما بعد الحرب) ، و هي تتلخص في التالي .. هلاوس سمعية و بصرية .. اكتئاب حاد .. انفصال عن الواقع ..
كوابيس أدت إلى أرق مزمن ، و أخيرًا الرغبة في الإنتحار ..
لكن أبي لم ينتحر ..
حتى بعد وفاة أمي بسرطان الكبد – نتيجة طبيعية للمياه المشعة – لم ينتحر أبي ، بل تحول إلى تمثال خزفي لا يفعل شيئًا سوى مشاهدة الحرب الأخيرة على الإسطوانات المدمجة ، ذات السعر الخاص و لفترة محدودة !
هكذا قضيت طفولتي .. يتيمًا معزولاً يقضي أيامه في رؤية أهوال حرب لاذنب له فيها ، و بصورة في غاية النقاء مع نظام صوت ثلاثي الأبعاد و كل هذا بسعر – اللعنة على هذه الإسطوانات ! – خاص ..
بعد هذا تطالبونني بالحنين إلى الأرض .. إنني أعرف أنني سأصبح رائد فضاء منذ أن كنت في العاشرة .. فهذه هي المهنة الوحيدة التي ستمنحني ما أبغيه حقًا ..
الإبتعاد إلى أقصى حد ممكن ..
رفاقي الحمقى هنا قضوا حياتهم مثلي في مستعمرات صحية معزولة عن الإشعاع ، يديرها مجلس حكم واحد – لم يعد هناك عدة دول و بالتالي عدة رؤساء – و هذا المجلس أدرك أن من نجوا من الحرب الأخيرة ، يتضاعف عددهم بإطراد لن تستوعبه تلك المستعمرات الصحية ، و أن الأمل الأخير أصبح هناك .. في الفضاء ..
هكذا بدأت رحلات البحث عن أرض بديلة ، و هكذا وجدتني على تلك المركبة

الفضائية لخمسة أشهر كاملة ، نجوب الفضاء البارد ، تحيط بنا ملايين النجوم ، كأنها أعين تحدق فينا بسخرية ..
نعم .. المفترض في النهاية أن نعثر على كوكب بديل ، لنتكاثر فيه كالجراثيم قبل أن ندمره في حرب خرقاء لنبدأ رحلة البحث من جديد ..
دعك من أن هؤلاء العباقرة لم يروا الصورة الكاملة بعد .. بفرض أننا وجدنا كوكب بديل ، فكيف سننقل كل من تبقى حيًا على سطح الأرض إلى هذا الكوكب ؟؟ .. أم أنها ستكون أجمل مسابقة في تاريخ الأرض ؟!
اتصل برقم (...) لتكسب فرصة الحياة على كوكب بديل ! .. العدد محدود !!
الآن حين أتذكر المذابح التي قامت بين الناجين من الحرب ، من أجل الحصول على مكان في المستعمرات الصحية ، أتخيل ما سيحدث لو كان الصراع هذه المرة على مقعدك في المركبة الفضائية التي ستخلصك من هذا الكوكب نهائيًا ، و تذكر .. العدد محدود ..
تدخل (إيفيتا) معملي و تتجه إلى النافذة ، لتحدق شاردة في بريق النجوم من حولنا .. (إيفيتا) هي عالمة الفلك على هذه المركبة ، و هي فرنسية و إن كانت هذه المعلومة لا تهم ..
فلم تعد هناك فرنسا !
أتظاهر أنا أنني أقرأ في كتاب ما ، لكنها تبدأ الحديث قائلة بملل :
أتعرف ما هو اليوم ؟
يباغتني سؤالها ، لأكتشف حقيقة أنني فقدت إحساسي بالزمن على هذه المركبة ..
و لأنها لا تنتظر إجابة ، واصلت :
- أمامنا شهر تقريبًا قبل أن نبدأ رحلة العودة ..
- سأفتقدكم قريبًا إذن ..
- الرفاق عثروا على تابوت في الفضاء ..
- ماذا ؟!
صحيح أننا فقدنا اهتمامنا بكل شيء هنا ، لكن .. تابوت في الفضاء !
لقد رآه (يوري) مصادفة .. لقد قرر أن نتوقف لإنتشاله ..
عجزت عن الرد من فرط دهشتي ، ثم قررت أنه من الأفضل أن أذهب لـ (يوري) لأفهم منه ، فـ (إيفيتا) لا تهوى الشرح مهما كانت طبيعة الموقف .. لو اتجهنا للشمس ستنقل هي الخبر ببرود (يبدو أننا سنهلك) !
في كابينة القيادة وجدت (يوري) – و هو قائد المركبة .. روسي سابق – مع (آرثر) – مساعد القائد .. بريطاني سابق – يتناقشان في حماس عن اكتشافهما العجيب ..
لابد أن الجثة في داخله كما هي .. برودة الفضاء ستحفظها من التلف ..
هذا إن لم يكن التابوت خاويًا ..

لو كان خاويًا سأضعك أنت فيه و أعيده للفضاء ..
لن أتجشم كل هذا العناء من أجل لا شيء ..
لن أقاومك .. على الأقل سأخرج من هنا !
قاطعتهما أنا قائلاً :
هل لي بمن يحكي لي ما حدث ؟
أشاح (يوري) بوجهه ليتتبع كنزه السابح في الفضاء على شاشة كمبيوتر المركبة ، بينمت تطوع (آرثر) بالشرح :
لقد عثرنا على تابوت يسبح في الفضاء بالقرب منا .. تابوت معدني حديث من تلك النوعية التي كانوا يصنعونها قبل الحرب الأخيرة ، قبل أن تبدأ عادة حرق الجثث ..
عظيم .. و لماذا نضيع وقتنا في انتشاله ؟
تابوت ملقى به في الفضاء .. ألا يستحق هذا أن نعرف من فيه ؟
أعترف أن الأمر يثير الفضول ، لكن لسنا واثقين من خطورته ..
هنا ضحك (آرثر) عابثًا ، و أجاب :
و ما الذي سنخشاه ؟ .. التابوت يحوي جثة ، و لا أعتقد أن شبح صاحب الجثة سيغضب و يطاردنا ..
لكنني قلت :
مازلت لا أرى ضرورة لهذا ..
تدخل (يوري) ليقول بغلظة :
إنه قراري أيها المصري ..
قالها فلم أجبه ..
بالمناسبة أنا و (يوري) نتبادل كرهًا عميقًا لا حد له ، منذ أن تناقشنا قبل يومين عن دور روسيا في الحرب الأخيرة ..
أنا اتهمت حكومته بالغباء و هو اتهمنا بالتخاذل ، لكن هذا لم يغير من حقيقة أن حكومتينا أصبحا رمادًا مشعًا في مكان ما على الأرض المهجورة .. صحيح أن جدلنا كان بلا طائل منذ البداية إلا المواضيع التي قد تجدها في هذا السجن الفضائي ، محدودة نوعًا ما ..
هكذا هززت كتفي بمعنى (إلى الجحيم لو أردتم) ثم غادرت القاعة لأعود إلى غرفتي ..
(يوري) .. (آرثر) .. (ايفيتا) ... و أنا ..
ها أنت قد تعرفت على طاقم السفينة البائس .. الآن تبقى لك أن تعرف ما سيحدث لنا ..

••••••

الساعة الآن (3612) ، و هي طريقتنا في تحديد الوقت على المركبة الفضائية .. هذا الرقم يعني أنه مرّ علينا 3612 ساعة منذ أن تركنا الأرض ، و هذا الرقم هو الساعة التي أدخلنا فيها التابوت إلى مركبتنا ليصبح عددنا خمسة ..

(يوري) هو من خرج لإنتشاله ، بينما بقى (آرثر) في الداخل ليحل محله ، و ليساعده قدر الإمكان ، و استغرقت هذه العملية منهما ما يقارب الثلاث ساعات ، لكن في النهاية كان (يوري) قد عاد و معه غنيمته ..

(إيفيتا) لم تهتم كما توقعت ، أمّا (آرثر) و (يوري) فبديا كطفلين صغيرين عثرا على دمية جديدة ، بينما جثم التابوت المعدني أمامها بطوله الذي تجاوز المترين ، و برتاجه الإليكتروني ذو الشفرة ، التي هرش لها (يوري) رأسه قائلاً لـ (آرثر) :

شفرة لفتح التابوت ؟ .. عجبًا ..

لم أر هذا الطراز من التوابيت من قبل ..

أتعرف كيف تحل هذه الشفرة ؟

لا .. لكن العربي يعرف ..

قالها مشيرًا إليّ ليفاجأ (يوري) بهذا الموقف ، بينما ابتسمت أنا بتشف لأقول :

كنت أوّد مساعدتكما .. لكنني لن أفعل ..

حل الشفرات – أيًا ما كان نوعها – هواية لي منذ أن كنت صغيرًا أحاول ابتكار أي شيء ينسيني حكايات الحرب الأخيرة التي كان يحكيها لي أبي .. و الآن هذه الهواية سترد لي كرامتي ..

لا .. العربي لن يمس التابوت ..

قالها (يوري) بحسم غاضب ، ثم أضاف :

أنا سأفتحه بأي طريقة .. سأنسفه أو أعيده للفضاء ، لكنني لن أطلب من العربي شيئًا ..

أجبته ببرود :

و أنا لا أنوي أن أساعدك حتى لوهددت بالإنتحار ..

ثم جلست في ركن القاعة لأتابع ما سيحدث و (آرثر) ينظر لي في لوم ..

أشرت له بما معناه (سأفكر في الموضوع لو اعتذر) ، فهزّ هو رأسه بما معناه (لا أمل في هذا) ...

هكذا أخذت أتابع محاولات (يوري) لفتح التابوت بابتسامة وقحة ، قبل أن أنتبه إلى (إيفيتا) التي وقفت عند باب القاعة الرئيسية ، و هي ترمق التابوت المعدني بمزيج عجيب من الكراهية و الخوف ..

حين شعرت بي ، أدارت رأسها تجاهي لتقول بفتور :

يجب أن تتخلصوا من هذا التابوت ..
و دون شرح ابتعدت في الممرات لتغيب فيها .. لكني كنت قد بدأت أشعر بما تشعر هي به ..
يجب أن نتخلص من هذا التابوت ..
لا أعرف لماذا ، لكنني واثق أنه القرار الصائب و إن عجزت عن تنفيذه .. شيء ما داخل هذا التابوت غير طبيعي .. شيء شرير ..
شيء ينتظر أن يخرج !
أنا واثق من هذا ..

••••••

في الساعة 3613 كنت قد بدأت أغيب في النوم في غرفتي ، حين طرق (آرثر) الباب فجأة ، ليوقظني قائلاً بتوتر :
يجب أن تساعدنا على فتح التابوت ..
احتجت للحظات لأستوعب الموقف ، قبل أن أجيب بحزم :
هذا لن يكون إلا بشرطي و ..
لاوقت لهذا العبث .. لقد تغير الموقف تمامًا ..
كيف ؟
كمبيوتر المركبة التقط نبضات قلب ..
نبضات قلب قادمة من داخل التابوت ..
!!!

••••••

حين بلغت القاعة هذه المرة كان (يوري) يجلس جوار التابوت المشئوم كطفل حائر ، و لم يكد يراني حتى بادر بالشرح دون أن أسأل حتى :
يوجد شخص ما حي داخل هذا التابوت .. كمبيوتر السفينة التقط صوت ضربات قلبه .. معدلها بطيء مما يوحي أنه في حالة سبات .. لكني حي .. حي ..
هل حاولت فتحه بطرق عنيفة ؟
بكل الطرق ، لكنه لم يستجب لي إطلاقًا ..
ثم منحني نظرة (أرجوك افعلها) فاكتفيت بها .. أمّا (آرثر) فتساءل في قلق :
أواثق من قدرتك على فتحه ؟
إنها هوايتي .. المرء لا ينجح إلا في هواياته ..

ثم أشرت لهما بالصمت و بدأت في فحص التابوت ..
أمامي رقد التابوت في استرخاء بطوله الذي يبلغ المترين ، و وزنه الذي يتجاوز الخمسمائة كيلوجرام ، و قد حمل على سطحه نقشًا واضحًا لثلاثة أحرف .. (D.O.D) ..
أشرت للنقش مستغربًا ، فهزّ (آرثر) كتفيه مجيبًا :
لا أعرف ..
فقط أرجو ألا يكون اختصار (خطر الموت Danger Of Death) ..
لكن (يوري) صاح بعصبية:
خطر الموت من جسد شخص نائم في التابوت ؟
و هل يبدو لك الأمر طبيعيًا ؟! .. أتظن أن أحدهم وضع شخصًا حيًا في هذا التابوت و أطلقه في الفضاء دون سبب ؟ ..
ألا يمكن أن يكون مصابًا بمرض ما قابل للعدوى ؟
لكن (يوري) أجاب:
لو كان الأمر كذلك لكان من الأسهل قتله و حرق جثته و هو لا يزال على الأرض .. ربما هو هارب .. نعم .. هارب من الحرب الأخيرة ..
قلت أنا مفكرًا :
أتعني أنه ألقى بنفسه في تابوت في الفضاء ، على أمل أن تمر مركبة فضائية لإنتشاله ؟ .. يبدو لي احتمالاً أبعد من أن يكون منطقيًا ..
ألديك تفسير أفضل أيها العبقري ؟
لا .. لكن السؤال الآن ، هل يستحق إرواء فضولنا المخاطرة بفتح هذا التابوت على الرغم من إحتمالية أنه يحوي خطرًا ما ..
قلتها فتبادلنا النظرات و إن كنا نعرف الإجابة مسبقًا ... بعد أن تقضي 3613 ساعة في هذا السجن ستجد أن أي مخاطرة هي ثمن بخس للقضاء على الوقت ها هنا ..
لو كان صندوق بندورا ذاته فلن نتردد في فتحه ..
أشار لي (آرثر) أن أواصل ، فبدأت في حل الشفرة بتركيز شديد .. شفرة رقمية هي من تسعة أرقام .. أي أن الإحتمالات لا نهائية ..
لكنني تعلمت حل هذا النوع من الشفرات و أنا لازلت في العاشرة .. طبيب أبي النفسي هو الذي نصحني بهذه الهواية .. أخبرني أنها تستغرق و قتًا و تركيزًا ، و أنها الحل الوحيد أمامي كيلا أفقد عقلي أمام اسطونات الحرب الأخيرة التي يجبرني أبي على رؤيتها مرارًا و تكرارًا ..
أخبرني أنه طالما أحل الشفرات ، سيحافظ عقلي على شفرته التي تمنعه من السقوط في هوة الجنون .. لذا فهذه الشفرة ذات الإحتمالات اللانهائية لا تشكل لي تحديًا على الإطلاق ..
لكني أشعر الآن أنني أرتكب أكبر حماقة في حياتي على الإطلاق .. شعور لا

تفسير له و لا منطق ، لكنه يلتهم أعماقي بلا رحمة ..
شعور يخبرني أنه لو فتحت هذا التابوت سوف ..
تررررريك !
دوى الصوت المعدني الوقح ليقطع حبل أفكاري و ليعلن للجميع أن التابوت أصبح قادرًا على نشر الأهوال الكامنة في أعماقه ..
نظرت إلى (يوري) فهزّ رأسه أن (افتحه .. لكن بحذر !) ، فبدأت أرفع الغطاء المعدني ببطء متوقعًا الأسوأ ، حتى أنني أغمضت عيني و لم أفتحهما حتى شهق (آرثر) ذاهلاً ..
فالواقع أن ما كان ينتظرنا داخل التابوت، قد فاق كل توقعاتنا على الإطلاق ..

••••••

كان شعرها أشقرًا .. كان رداءها أبيضًا .. و كان الضوء الأزرق الشاحب المنبعث من داخل التابوت ، ينثني عند ابتسامة شفتيها التي ظلت معها حتى النهاية ..
كانت يديها الصغيرتان معقودتين على صدرها كأنها تحلم ، لكن تلك الإبرة التي انغرست في جانب عنقها أخبرتني أنه لا أحلام هناك .. إنها في حالة سبات صناعي ، حيث لا نوم و لا أحلام و لا أمل في الإستيقاظ إلا لو قام أحدهم بإنعاشك ..
كانت ترتدي حذاءً أبيضًا نظيفًا يشبه إلى حد ما أحذية راقصات الباليه ، و كان طولها لا يتجاوز المتر إلا بسنتيمترات قليلة ، وكانت بقع خضراء عجيبة تغطي ساقيها و منبت عنقها و ذراعها اليسرى .. بقع خضراء داكنة ذات حواف بيضاء قذرة و في مركز كل بقعة كان هناك ثقب تنز منه سوائل صفراء لا أتمنى حتى أن أعرف ما هي .. و كان هناك جدار زجاجي عازل يغطيها و يحافظ على نقاء الهواء في المركبة ..
و ببطء قال (آرثر) :
- يبدو أن توقعي كان صحيحًا .. هذه الفتاة مصابة بمرض ما .. مرض يترك آثارًا مقززة لو جاز لي القول ..
لم أعترض على ما قاله ، بل أردفت :
لكن يبدو أننا سنحظى بتفسير علىأية حال ..
قلتها و أنا أشير إلى شاشة صغيرة في غطاء التابوت تراصت أسفلها مجموعة من الأزرار ، فقال (يوري) بعصبية :
- أرنا ما عندك ..
أخذت أعبث في الأزرار للحظات .. قبل أن تضيء الشاشة أخيرًا ، لتظهر عليها سيدة في الثلاثينيات ، غطت البقع الخضراء أكثر من ثلثي وجهها ، لتبدو أشبه

بالكائنات الفضائية ، خاصة مع نحوفها المخيف ، و عينها اليمنى التي تورمت لتبلغ خمس أضعاف حجم عينها اليسرى ..
وجه جدير بكوابيسك لو أردت أن تحصل عليه !
و بمزيج من الفزع و التقزز ، همس (يوري) :
- رباه .. ما هذا المرض ؟!
فأجابته السيدة في الشاشة :
(فرانك) .. كما ترى لم يعد أمامي الكثير من الوقت .. و أغلب الظن أنني سأكون قد هلكت حين تصلك هذه الرسالة .. للأسف ابنتنا (جولي) التقطت مني العدوى .. كلنا في محطة (B-89) الفضائية أصبنا بالعدوى و أغلبنا لقى مصيره المحتوم بالفعل .. لا أعرف شيئًا عن طبيعة هذا الفيروس سوى أنه يقتل بسرعة ، لذا وضعت ابنتنا هنا في وضع التجميد على أمل أن يؤخر هذا من نشاط الفيروس حتى تصل إليك .. لم تكن هناك طريقة أخرى و لو حاولت إرسال ابنتنا بالطرق المعتادة ، لما سمحوا لها بأن تبلغ الأرض أساسًا ...
(فرانك) .. ساعدها .. حاول .. و لو لم تتمكن .. (عند هذه النقطة اقتربت من الكاميرا لتملأ عينها المتضخمة الشاشة أمامنا) .. لو تتمكن من علاجها .. اقتلها .. لا تدعها تصل إلى هذه المرحلة .. لا أريدها أن تشعر بما أشعر به الآن .. (فرانك) .. سامحني ..
ثم تراجعت برأسها و هي تمسح دموعًا سالت من عينيها - دموع صفراء بالمناسبة ! - و أظلمت الشاشة أخيرًا لنتمكن من التنفس مجددًا ، و كأننا كنا نخشى طيلة الوقت أن نلتقط العدوى منها ..
- رباه .. ما هذا المرض ؟!
بفزع مطلق هذه المرة كررها (يوري) .. و برعب لا يقل عنه أجاب (آرثر) :
فضاء لا حد له و لا نهاية ، لكن حظنا التعس يلقينا لهذا التابوت ..
و قلت أنا :
إذن فأمها أرسلت بها من محطة الفضاء إلى أبيها في الأرض لينقذها ، و هذا يفسر محركات الدفع المتصلة بالتابوت .. لكن يبدو أنه اصطدم بنيزك أوقفه و أبقاه معلقًا في الفضاء حتى مررنا جواره ..
عند هذه اللحظة دخلت (إيفيتا) القاعة بوجها الجامد و الشرود الدائم الذي يطل من عينيها ، لترى التابوت المفتوح و نظرة الخوف في عيوننا .. أعادت نظرها إلى التابوت ، ثم قالت آخر شيء كنا على استعداد لسماعه :
هذه الفتاة .. إنها تتحرك ..
انتفض (يوري) و شهق (آرثر) و اعتدلت أنا بحركة حادة لأواجه التابوت الذي رقدت فيه الفتاة و قد أخذت أناملها تتحرك ببطء ملحوظ ..
« لذا وضعت ابنتنا هنا في وضع التجميد على أمل أن يؤخر هذا من نشاط الفيروس حتى تصل إليك .. »

هذا ما قالته الأم .. لكن الفتاة لم تكن في وضع التجميد حين فتحنا التابوت .. إنها الآن تحرك أناملها ، قبل أن تبدأ في تحريك رأسها حركة عصبية مفهومة ، فسرتها (إيفيتا) و القلق يشع من صوتها :

إنها تختنق ..

فصاح (يوري) :

تختنق .. كيف ؟

أجبته :

لا بد أن محاولاتك العنيفة لفتح التابوت أفسدت صمام الأكسجين ..

حركة رأس الفتاة تزداد قوة و سرعة ، وصدرها يتحرك بقوة كأنه يجاهد بحثًا عن هواء يمتلأ به ..

و بانفعال حقيقي قالت (إيفيتا) :

- إننا لن نتركها تختنق ..

الغطاء الزجاجي العازل الذي يمنع وصول الفيرس إلينا ، هو الذي يمنع الهواء الآن عن فتاتنا (جولي) و السؤال واضح .. لو حطمنا هذا الغطاء الزجاجي سننقذ الفتاة ، لكننا سنصاب بالعدوى و ستمتلأ أجسادنا بالبقع الخضراء التي تنز بسائل أصفر كريه ، لنموت في النهاية ، فهل نكسر الغطاء ، أم لا ؟؟؟

لو عرفت الإجابة اتصل على (××××00في0) !

إننا لن نتركها تختنق .. الفتاة تموت ..

تكررها (إيفيتا) بهلع هستيري ، فنتبادل نحن النظرات ، بينما الفتاة تستيقظ ببطء ..

صدرها يتحرك بجنون .. رأسها يتقافز يمينًا و يسارًا .. و أنفاسها تتلاحق بصوت مسموع ..

و بثورة مفاجئة قفزت (إيفيتا) إلى التابوت ، لتهوي بقبضتيها على الغطاء الزجاجي صارخة :

- إننا لن نتركها تموووووووت ..

لم يتأثر العازل الزجاجي ، لكن (يوري) انقض على (إيفيتا) ليكبلها بذراعيه ..

- إننا لن نتركها تموووووووت ..

كقطة شرسة قاومت (إيفيتا) لكن (يوري) كان قويًا بحق .. لقد حملها و تراجع بها بعيدًا عن التابوت ، بينما أخذت هي تطوح ساقيها و هي تصرخ بهستريا ..

إننا لن نتركها تموووووووت ..

(D.O.D) .. يوم اتخاذ القرار (Day Of Decision) ..

لكن (يوري) كان قد اتخذ القرار بدلاً منا .. ستموت !

و فجأة فتحت الفتاة (جولي) عينيها و بدأت في الصراخ بوحشية و قد

تحولت حركتها داخل التابوت إلى انتفاضات عنيفة كمرضى الصرع ، لدرجة أن الإبرة المغروسة في عنقة تحطمت وإن ظل متصلًا بعنقها ، لينثر الدماء على وجهها و على العازل الزجاجي ..
الفتاة الرقيقة (جولي) تحولت إلى كابوس مخيف يحمل لنا الموت – لو خرجت – و قد امتزجت صرخاتها الوحشية بصراخ (إيفيتا) الهستيري ، لأفقد أنا أعصابي أخيرًا ، و لأهجم على (يوري) محاولاً تخليص (إيفيتا) من بين ذراعيه ، بينما تجمد (آرثر) في مكانه كتمثال ..
و كما قلت آنفًا ، كان (يوري) قويًا .. لقد اكتفى بتكبيل (إيفيتا) بذراعه اليسرى ، بينما طوّح اليمنى إلى وجهي ، لأشعر و كأنما أحد صدمات القدر تهوي على رأسي ..
– إننا لن نتركها تمووووووووت ..
تصرخ بها الحمقاء ثم تطوح ساقيها ليضرباني في صدري ، قبل أن ينهي (يوري) ما بدأه بضربة أخرى في جبهتي مباشرة .. و .. و ..
هذه المرة هويت على الأرض .. و كان آخر ما سمعته قبل أن تظلم الدنيا من حولي ، هو المزيج الرهيب لصراخ (إيفيتا) و (جولي) ..

●●●●●●

حين استيقظت كان أول ما أدركته هو أنني لم أغب عن الوعي سوى لدقائق معدودة ..
ثاني ما أدركته هو أن (آرثر) كان يجلس على الأرض جواري و على وجهه تعبير ذهول جامد و هو يدفن ركبتيه في صدره ..
ثالث ما أدركته هو أنه لم يعد هناك صراخ !
ببطء اعتدلت لينفجر الألم في رأسي و صدري ، لأجد أن التابوت لا يزال في مكانه و قد وقف أمامه (يوري) يلهث و المشاعر تتقلب على وجهه بسرعة الضوء .. و حين شعر بي قال :
انتهى الأمر أيها العربي ..
لم أصدق فتحاملت على نفسي و وقفت لأتجه بخطوات حذرة إلى التابوت ..
و هذه المرة لن أتمكن من وصف ما رأيته ..
سأدع هذا المشهد لخيالك .. أو لكوابيسك !
أين .. (إيفيتا) ؟
قلتها بحلق جاف ، فأجاب (يوري) :
عادت إلى غرفتها ..
هل هي بخير ؟

الحمقاء كانت ستتسبب في قتلنا جميعًا ..
لكني كررت :
هل هي بخير ؟؟
فهز هو رأسه بأن (نعم) ، قبل أن يقول :
سأعيد هذا التابوت إلى الفضاء .. لا أريد هذا الشيء على مركبتي ..
تمامًا كطفل سأم من دميته .. الفارق هنا أن الدمية كانت (جولي) ..
و أنها الآن جثة ملطخة بالدماء و البقع الخضراء الداكنة ..
نظرت إلى (آرثر) فوجدت الدموع في عينيه .. لكنه لم ينطق بحرف ..
الساعة الآن 3614 و عددنا في هذه المركبة أصبح أربعة مرة أخرى ..

••••••

حين دخلت غرفة (إيفيتا) لم يكن لدي شيء لأقوله .. لم يكن لدي مجرد دافع لرؤيتها سوى أنني شعرت أنه ينبغي عليّ أن أراها ..
كانت تجلس على فراشها تبكي بحرقة ، فانتظرت جوارها صامتًا حتى جفت دموعها ، ثم قلت :
أنا آسف ..
قلتها ثم شعرت بمدى سخافتها .. أي أسف هذا الذي سيعيد (جولي) للحياة ؟
بالطبع لم تجبني بل عادت إلى جمودها الشهير ، و إن أطلت المرارة من عينيها كأوضح ما يكون ، فأخذت أبحث عن أي شيء لأقوله :
لقد .. حاولت .. لكن .. ثم .. الفيروس كان ..

هنا أدركت أنني أهذي و أنه من الأفضل لي أن أتركها ، و هممت بذلك بالفعل ، لكنها قالت فجأة :
كانت لي ابنة في الماضي ..
باغتني قولها فتجمدت في مكاني ، لتواصل هي شاردة :
كانت في الرابعة عشر حين تمكنت من مغادرة المستعمرة الصحية التي كنا نعيش فيها .. كانت تريد رؤية الأرض الحقيقية ..
شيء ما كان يجذبها بعيدًا عن الهواء المعقم و الممرات المعدنية التي كنا نعيش فيها .. بعيدًا عن القبة الزجاجية و عن ذكريات الناجين من الحرب و عن السجن الإختياري الذي ولدت فيه ..
في أحد الليالي انتظرت حتى غبت أنا في النوم .. و رحلت ..
صمتت لحظة ، ثم واصلت :

كانت تريد البحث عن الأزهار .. عن قطرات الندى .. عن رياح الصيف الدافئة .. لهذا تركتني و هربت من المستعمرة رغم أنني أخبرتها أن قانون المستعمرات ينص على أن من يغادرها ، لا يسمح له بدوخلها مجددًا .. لكنها و بعد ستة أشهر حاولت العودة .. و هذه المرة استقبلها حرس المستعمرات ببنادقهم و بقانون منع العودة مهما كان السبب ..
حاولت التسلل إلى الداخل ، لكن الأمر انتهى بها ببضعة ثقوب في صدرها و برسالة قصيرة أرسلت لي يخبرونني فيها أنني يمكنني أن ألقي عليها نظرة أخيرة لو أردت .. بالطبع ذهبت لأجد يدها تقبض على شيء ما .. هل تعرف ما هو هذا الشيء ..
و عادت الدموع لتسيل على وجنتي (إيفيتا) و هي تردف :
- زهرة ..
قالتها فشعرت بروحي تنتفض في جسدي ..
الآن فهمت لماذا كانت تحاول (إيفيتا) إنقاذ الفتاة ..
الآن فهمت كل شيء
لكني المرة لم أنطق بحرف ..

••••••

في الساعة 3616 اقتحم (آرثر) غرفتي للمرة الثانية ، لكنني لم أكن على استعداد لأي شيء مهما كان ، إلا أن نظرة الفزع في عينيه و الرعب الذي أطل من صوته أجبراني على الإصغاء له و هو يقول :
(يوري) .. لن تصدق ما أصابه .. كارثة !!

••••••

دعني أشرح لكم حقيقة علمية بسيطة ..
حين تكون على الأرض فالهواء الذي يحيط به له وزن و هذا الوزن يضغط على جسدك ، و الذي يمنع جسدك من الإنسحاق هو أن خلايا جسدك و السوائل فيه لها ضغط آخر يعمل في الإتجاه المضاد .. أي أن الضغط الجوي للداخل و ضغط جسدك للخارج .. إذن .. ما الذي سيحدث لو تلاشى الضغط من حولك فجأة ؟ .. نعم ..
أحسنت .. سيحدث لك ما حدث لـ (يوري) تمامًا !
ستنفجر !!
الآن يمكنك أن تقف معي أنا و (آرثر) لتتابع عبر نافذة المركبة الفضائية ،

تلك الخرقة الممزقة التي تسبح حولها الدماء و التي كانت في يوم من الأيام كان بشري كان روسيًا و كان اسمه (يوري) ..
الآن يمكنك أن تصغي إلى (آرثر) إذ يقول :
لقد كان في غرفة معادلة الضغط ، في طريقه للتخلص من التابوت .. حين تأخر حاولت الاتصال به عبر الشبكة الداخلية لم يرد .. و فجأة وجدته أمامي يسبح في الفضاء جوار المركبة ..
عدت أنظر إلى الجثة الممزقة دون أن أشعر بذرة تعاطف واحدة ..
ربما كان حادثًا .. الغرفة فتحت قبل الآوان أو أنه لم ..
قلتها ليقاطعني (آرثر) صارخًا :
ألا ترى أمامك ؟ ..
أين رأس (يوري) ؟؟
أحدهم فصل رأسه عن جسده قبل أن يلقيه للفضاء ..
!!

●●●●●●

مهلاً .. مهلاً ..
حين جئت إلى هنا كان أقصى ما تخيلت حدوثه ، هو أن الفيروس وجد طريقه إلينا بصورة ما ، لأرىأنا تلك البقع الخضراء على جسد (يوري) كنوع من العدالة الشعرية ، أما أن يقتله أحدهم و يفصل رأسه عن جسده قبل أن يلقي به في الفضاء فهذا يعني أن هناك قاتل معنا في المركبة ..
و هذا القاتل واحد منّا ..
أو ..
أو شخص كان في التابوت !
- أين ذهب التابوت ؟
سألت فأجاب (آرثر) :
لا يزال في غرفة معادلة الضغط ..
من قتل (يوري) لم يمنحه الفرصة ليخرجه ..
هل أبلغت (إيفيتا) ؟
نعم ..
لكنها لم تهتم ..
لم ترد حتى ..
و ماذا عن تسجيلات كاميرات المراقبة ؟ ..
المفترض أن كل جزء هنا يصور و يسجل طيلة الوقت ..

لابد أن ما أصاب (يوري) في غرفة معادلة الضغط قد تم تسجيله ..
لكن (آرثر) أجابني بمرارة :
راجعت الذاكرة الرئيسية لكمبيوتر المركبة ..
إنها مغلقة بكلمة سر لا يعرفها سوى (يوري) ..
و الأسوأ أنني لا يمكنني رؤية ما يحدث في غرفة معادلة الضغط الآن ، فمن قتل (يوري) هشم الكاميرا في الداخل و لا يمكنني فتح الغرفة و إلا خاطرت بإنتشار الفيروس لو كان التابوت مفتوحًا ..
آه .. أي أن الطريقة الوحيدة لمعرفة القاتل ، هي تلك اللحظة التي ستمر قبل أن يقتلك !
إنه ليس أنا ..
و ليس (آرثر) ..
إذن ؟
مهلاً .. و من قال إنه ليس (آرثر) ؟ ..
و الأسوأ من هذا كله ..
من قال أنها ليست (جولي) ؟!
نعم ..
بعد أن ماتت أعادها الفيروس للحياة بصورة ما ، فخرجت من تابوتها و قتلت قاتلها ..
احتمال يستحق التفكير و التخيل ..
إنها الآن تجوب ممرات المستشفى و السائل الأصفر الكريه يسيل منها ، باحثة عن ضحيتها القادمة ..
و في هذه الحالة ..
و في هذه الحالة سيكون الحل أن أدخل إلى غرفة معادلة الضغط لأتأكد بنفسي ..
هل تفكر فيما أفكر فيه ؟
الفتاة ؟
بل (إيفيتا) يا رجل ..
ألم تر كيف حاولت إنقاذ الفتاة ،
و كيف منعها (يوري) ؟
ماذا عنك ؟
أتتهمني أنني القاتل ؟؟
لم لا ..
لاحظ أنك جئت إليّ دون أن تشك فيّ و هذا يعني إما أنك أحمق ،
و إما أنك القاتل لذا فأنت تعرف يقينًا أنني لست هو ..
صدمه منطقي و أخرسه للحظات ، قال بعدها :

كان (يوري) محقًا حين اتهمك بالتخلف ..
على أية حال و بما أنني قائد المركبة من بعده ، فلقد قررت أن تنتهي الرحلة عند هذا الحد ..
سنعود للأرض ..
هل أبلغتهم بما حدث ؟
لا يمكنني الإتصال بهم من على هذا البعد ..
لكنني سأفعل فور عودة الإتصال ..
لم أجادله في هذه النقطة ، بل تركته و قررت العودة لـ (إيفيتا) لأحسم شكي تجاهها على الأقل ، لكني ما إن بلغت غرفتها حتى وجدت باب غرفتها مفتوحًا عن آخره ..
لكنها لم تكن هناك ..
لقد اختفت !

●●●●●●

سأوفر عليكم بعض الوقت و سأختصر لكم جزءً مما حدث ..
أبلغت (آرثر) بإختفاء (إيفيتا) فقرر على الفور أن هذا يثبت كونها القاتلة ، و انطلق معي عبر ممرات المركبة لنبحث عنها ..
كما ترون هذا الجزء لا يهم في شيء ..
بل إنني واثق أنكم استنتجتم أننا لم نجدها ..
لكن الجزء الذي يهمنا هو أننا حين عدنا إلى القاعة الرئيسية وجدنا أن شاشة كمبيوتر المركبة تحمل لنا رسالة خاصة :
أنا لا أنتمي إلى هذا العالم ..
لم أعد أريد البقاء فيه ..
وداعًا ..
على الفور همست (إيفيتا) ، لكن (آرثر) صاح في هلع :
لقد فتحت غرفة معادلة الضغط ..
إنها الآن في الداخل ..
لكننا لم نجرؤ على الذهاب إلى هناك ..
لو كان الفيروس هناك فلن نسرع تجاهه ..
هكذا أخذنا ننتظر جوار نافذة المركبة ، حتى ظهرت لنا (إيفيتا) أخيرًا و هي ترتدي رداء الفضاء الخاص لتخفي الخوذة العملاقة أكثر من ثلثي وجهها .. كانت تسبح في استسلام تام و على ظهرها لم تكن هناك سوى اسطوانة اكسجين واحدة ..

بعد ثلاث ساعات إذن سنفقد (إيفيتا) بعد أن ينفذ منها الأكسجين ..
بعدها ..
بعدها ستتحول إلى جرم سماوي يجوب الفضاء إلى الأبد ..
شعرت (إيفيتا) بي و بـ (آرثر) ، فاقتربت من النافذة لأتمكن من رؤية عينيها ،
فلم أجد فيهما سوى تلك النظرة الشاردة التي رأيتها آخر مرة ..
حقًا ..لم تعد (إيفيتا) تنتمي إلينا ..
نظرت تجاهي ثم رفعت قبضتها المضمومة ، و بسطتها ليطير ما كان في يدها سابحًا في الفضاء ..
زهرة صغيرة ذابلة !
هذا هو ما تركته لنا (إيفيتا) قبل أن تسبح مبتعدة عنّا ..
سرت قشعريرة باردة في جسدي حين رأيت الزهرة ، في حين نظر إليها (آرثر) ببلاهة :
ما هذا ؟
فلم أجبه ..
إنها تهرب ..
الحقيرة تهرب بعد أن قتلت (يوري) ..
سألته :
ماذا عن الفيروس ؟
كمبيوتر المركبة لم يلتقط شيئًا ما حتى الآن .. لكن التابوت لم في الداخل ..
لابد أنها أخرجته معها ..
نجونا إذن ؟
صمت (آرثر) لبرهة قلب فيها الأمر في رأسه ، ثم أجاب في النهاية :
نعم ..
نجونا ..

●●●●●●

عدت إلى غرفتي و نمت واستيقظت بعد أربع ساعات ، لأتجه إلى القاعة الرئيسية حيث كانت جثة (آرثر) تنتظرني ..
هناك على مقعد القيادة و جدته ، و وجدت تلك النظرة الزجاجية في عينيه ، و ذلك الثقب الغائر في صدره ، و ذلك التعبير الذاهل على وجهه ...
القاتل لا يزال هنا !
على شاشة الكمبيوتر وجدت محاولات (آرثر) لإجتياز كلمة السر التي وضعها (يوري) و التي يبدو أنه لو يوفق فيها ..

فأزحت جثته من على المقعد و بدأت محاولاتي أنا ..
ساعة كاملة أخذت أحاول فيها متوقعًا أن يهجم عليّ القاتل في أية لحظة ، قبل أن تفتح لي ذاكرة الكمبيوتر كصدر (آرثر) ..
على الفور بحثت في التسجيلات حتى وصلت إلى تسجيل ما حدث في غرفة معادلة الضغط حين كان (يوري) فيها ، فضغطت على زر التشغيل و تراجعت بظهري لأرى ما حدث ..
هاهو (يوري) يدخل الغرفة و هو يدفع أمامه ذلك التابوت المشئوم ..
هاهو يتركه و يتجه إلى خزانة أردية الفضاء الخاصة و هو يعطي ظهره للتابوت
.. ها أنا الآن أرى شيء ما ينعكس على سطح التابوت المعدني ، قبل أن أظهر أنا على الشاشة لأهجم على (يوري) بسرعة و تلك الأداء الحادة في يدي ، لأطير عنقه بضربة واحدة !!
ها أنا أقف أمام جثته و الأداة الحادة في يدي تقطر بدمه ، بينما تكور رأسه في ركن الغرفة .. أنظر الآن إلى كاميرا المراقبة ..
أهوي عليها بالأداة في يدي لينتهي التسجيل فجأة ..
ثم ها أنا الآن في القاعة الرئيسية أجلس أمام الشاشة الضخمة أرتجف ..
إنه أنا !!
إنه أنا !!
.. (D.O.D)
انفصام الشخصية
.. (Disorder Of Double personality)
نتاج طبيعي لمن عاشوا طفولتي ..هذا ما أخبرني به طبيب أبي النفسي و الذي أصبح طبيبي بعد ذلك .. أخبرني أن كتمان انفعالاتي المتواصل و محاولتي المستمرة للتماسك ، قد يؤديان إلى حالتي هذه بسهولة ..
أخبرني أن هناك آلاف مثلي من أبناء الناجين من الحرب الأخيرة و أخبرني أن الحل هو أن أسجن شخصيتي الأخرى – التي تحمل كل عنفي و ثورتي – و أن أعزلها بشفرة لأمنعها من السيطرة على جسدي ..
لكنه أخبرني أيضًا أنها قد تتمكن من الخروج أحيانًا مع تعرضي لضغوط نفسية عنيفة ..

لماذا ..؟!

و في هذه الحالة و بعد أن أستعيد سيطرتي على نفسي يجب أن أفكر في شفرة جديدة لأعزل بها شخصيتي الأخرى و أن أتعامل مع الموقف ببساطة ..
لم يحدث شيء .. مجرد أنني قتلت (يوري) و (آرثر) و دفعت (إيفيتا) إلى الهرب إلى الفضاء !
لابد أنها عرفت و من اللحظة الأولى .. بصورة ما عرفت ..
لكنها لم تحاول إيقافي بل تركتني لأنهي ما بدأته .. و لابد أنها الآن تسبح في الفضاء و تبتسم !
الساعة الآن 3620 و أنا آخر من تبق حيًا على سطح المركبة الفضائية التي فشلت في العثور على كوكب بديل ، لكنها ستعود إلى الأرض بهدية رائعة ..
فهاهي تلك البقعة الخضراء الداكنة على ذراعي تمتد من أسفل سترتي لتطل على كفي ، و هذا يعني أنه لم يعد أمامي الكثير ، لكنني لم أعد أهتم ..
الفيروس الذي وجد طريقه خارجًا من التابوت دون أن يشعر به كمبيوتر المركبة هو الذي سيظل حيًا حين تصل هذه المركبة إلى الأرض ، و هو من سيظل حيًا بعد أن يخرج من المركبة ليفني كل الناجين في مستعمراتهم الصحية ..
(D.O.D) .. يوم المرض (Day Of Disease) ..هكذا سيسمونه قبل أن تحين النهاية..
لكني لن أكون هناك ..
و من بعدي لن يبقى أحد ..
فقط سيظل الفضاء يحمل الدليل الوحيد على أنه كانت حياة ما على كوكب الأرض في يوم من الأيام .. دليل وحيدة يتكون من زهرة ..
زهرة صغيرة ذابلة !
بدون أمل أخذت مساحات زجاج تلك السيارة تصارع سيل الأمطار المنهمرة ..
و فى الداخل قاومت عينا الزوج ملايين الإنعكاسات الضوئية من الضوء المنبعث من أعمدة الإنارة و التى شتتها قطرات المطر على زجاج السيارة ..
و فى داخله هو قاوم ملايين الأفكار التى تقوده كلها نحو هدف واحد .. القتل ! قتل مديره ..
قالت زوجته و قد بدت شديدة الشحوب :
- هدىء السرعة قليلاً .. ستقتلنا ..
لم تصل إلى أذنيه سوى كلمة « ستقتلنا » .. و أحدثت رنيناً مدوياً فى رأسه ..
لا .. لن يقتلها .. بل سيقتل مديره .. ذلك الحقير ..
سرق مشروعه و نسبه لنفسه ثم اتهمه بالجنون و طرده أمام الجميع .. منتهى الصفاقة
عادت زوجته تقول مرتجفة :
- أرجوك هدىء السرعة
تنبه لجملتها هذه المرة و لكنه لم يجب ..

تباً للأمطار .. لا يستطيع رؤية الطريق أمامه و تلك الشوارع .. إنها زلقة، و كأنما تشارك مديره الصفاقة ..!
إنه بالكاد يسيطر على سيارته ..
لانت لهجة زوجته قليلاً و هى تقول :
- لا داعى للإنفعال بإمكانك البدء و النجاح من جديد ..
جزّ على أسنانه بشدة و همس بصوت كالفحيح :
- يجب أن يدفع الثمن .. يجب أن يرتشف من ذات الكأس ..
- و لكنك ستقتل نفسك بهذا الإنفعال الذى لن تجنى منه شيئاً ..
المشكلة أنه يدرك هذا جيداً إنه - حقاً - لا يملك ما يفعله سوى الغضب و تلك الفكرة الحمقاء بأن يقتل مديره .. تلك الفكرة التى يدرك - تماماً - أنه لن يفعلها ..
و أمام عجزه هذا يجد نفسه فى سيارته المتهالكة فى شارع زلق تحت المطر بلا عمل و لا أمل، فى حين يرفل مديره فى النعيم و فى النجاح الذى صنعه هو ..
و رغم أن الجو كان شديد البرودة إلا أن جسده كله يحترق و يرتجف انفعالاً و قدمه تسحق دواسة الوقود .. و .. و ..
و أخذت سرعة السيارة تزداد و تزداد .. و خفقات قلب الزوجة تدوى كطبول الإعدام ..
و فى داخلها تردد هاتف مخيف أكثر من الموت ذاته .. أن تنقلب السيارة فجأة و يلق زوجها مصرعه و ينحشر جسدها و هى تنزف فى طريق مصر الإسكندرية الصحراوى دون أن ينقذها أحد فى مثل هذا الوقت ..
ستموت ببطء دون أن يفكر أحد في التوقف من أجلها ..
ابتلعت لسانها هذه المرة و قد عكس وجهها مزيج الفزع و الرهبة و عيناها تعكسان صور متلاحقة للطريق أمامها ...
أعمدة الإنارة تظهر و تختفى مانحة إياهما و مضات من الضوء الشاحب ..
علامات الطريق و قد حملت بيانات عديدة..
سيارة أخرى على الطريق الآخر فى الإتجاه المضاد، مرت كشبح رهيب يملك مصباحين فى مقدمته..
ملايين .. ملايين من قطرات المطر ترتطم بزجاج السيارة و كأنما تود اقتلاعه
ثم ذلك الرجل العجوز الذى ظهر فجأة تحت المطر و نظرة رعب خاطفة ومضت فى عينيه قبل أن تقتلعه السيارة من على الأرض و من الحياة ..!
و من الذى صرخ بعدها ..؟!
أهى؟!! .. زوجها؟!!! أم هو صرير السيارة إثر الفرملة المفاجئة - بعد فوات الأوان - قبل أن تبدأ فى الدوران حول نفسها فى الشوارع الزلقة؟! أم أنه العجوز أطلقها فى آخر لحظاته؟!!
و توقفت السيارة أخيراً ..

و لم ينبس الزوج ببنت شفة .. فقط فغر فاه .. و اتسعت عيناه ، ترمقان المطر المتساقط على زجاج السيارة
و لكن لماذا تغير لون المطر؟؟
أصبح لونه أحمر قان؟!!
و برعب همست زوجته :
- إنه ..د..م..
قالتها ثم انفجرت صارخة فى عاصفة من البكاء الهيستيرى :
- لقد قتلناه .. ذلك العجوز .. لقد رأيته .. جسده طار ..
حرك شفتيه بإجابة وهمية لم يسمعها أحد .. و تحرك أخيراً ليفتح باب السيارة ، فدخلت العاصفة ..
و خرج هو إليها ..
هوت الأمطار على رأسه و جسده .. وصفرت الرياح فى أذنيه منذرة باقتلاعه .. جمّد البرد عظامه .. وفى وسط كل هذا سؤال رهيب..
هل مات العجوز حقًا..؟
سار الزوج كالمأخوذ وسط العاصفة و بكاء زوجته يتصاعد من داخل السيارة..
صوت خطواته على الشارع الزلق..
الجسد المتكوّم وسط الطريق يكبر ويكبر..
وعندما بلغ الجسد الذى سكن تمامًا ، انتفض جسده هو وكأنما لا يصدق أنه فعلها..
وللحظة تساءل عن شعور صاحب الجثة المكوّمة أمامه قبل أن تصدمه السيارة...
لا بد أنه كان يقف،ليفاجأ بشبح السيارة المخيف قادمًا تجاهه بسرعة خرافية و....
ولكن مهلا ... ما الذى كان يفعله فى هذا المكان وهذا الوقت؟!!
صوت باب السيارة ينفتح من خلفه ..
ثم خطوات أنثوية سريعة ..
ثم زوجته تلهث الى جواره متسائلة :
- هل....هل مات؟!
همس:
- لست أدرى..
ومدفوعًا برغبة أجابة سؤالها، انحنى على الجسم المتكوم أمامه...
هزّه لحظة ..
ثم قلبه على ظهره، لتطلق زوجته صرخة رعب عاتية، أمام الوجه المتغضن الذى حمل سكون الموتى ...
وبرعب هتف الزوج:
- يا إلهى ... يا للكارثة..

عادت زوجته للبكاء الهستيرى وهى تردد:
- لقد حذرتك .. قلت لك هدىء السرعة .. إنك لم تصغ لى ..
هتف الزوج :
- لقد ظهر فجأة دون مقدمات ولم يتحرك و..
وندت تلك السعلة االخفيفة من الجسد الساكن أمامه لتبتر حديثه....
وبمزيج من الفزع والأمل هتف الزوج:
- إنه..
إنه حى..!!
وانحنى مجددًا على الجسد ، ثم وبتردد ألصق أذنه على صدر العجوز و أصغى ..
خفقات قلبه الواهنة لازالت هنالك ..
ثم سعلة خشنة من رئتين أنهكتهما السنون ..
و فتح العجوز عينيه .. دارت عيناه فى محجريهما لحظة تستكشفان ما حولهما..
ثم توقفتا أمام عينى الزوج الملتاعين ..
و بصوت خشن و لكنه واهن قال العجوز:
- ما الذى حدث ؟
اندفع الزوج يقول :
- لقد كان حادثاً .. لقد ظهرت أمامى و لم أستطع تفاديك و ..
إننى على استعداد لدفع أى تعويض ..
ابتسم العجوز ابتسامة واهنة و قال محاولاً النهوض:
- لا عليك .. لا علـ
ثم بتر جملته مطلقاً صرخة ألم انخلع لها قلب الزوج و الزوجة و هو يمسك بساقه اليسرى قائلاً :
- ساقى .. لقد كسرت ..
امتزج صوته بنحيب الزوجة فى أذنى الزوج ليغطى على دوى العاصفة و ليشعل عاصفة أخرى من التوتر و القلق فى أعماقه و هو يهتف:
- ألا توجد مستشفى بالقرب من هنا؟!
- منزلى إنه بالقرب من هنا .. أريد الذهاب إلى منزلى ..
- و لكن .. ساقك ..
هوت صرخة العجوز فى أذنى الزوج باترة، قاطعة:
- أريد .. الذهاب.. إلى منزلى ..
- حسناً.. حسناً ..
و التفت إلى زوجته ليخرس نحيبها بصرخة :
- ساعدينى على نقله ..

بدت زوجته كالآلة، إذ توقف نحيبها على الفور و ساعدت زوجها إلى داخل السيارة و إن أخذت تردد بلا انقطاع :

- سامحنا .. لقد كان حادثاً ..

و ما إن أغلقت أبواب السيارة حتى ساد ذلك الشعور المريح بأن العصفة أصبحت فى الخارج ..!

و متقمصاً شخصية السائق مدفوعاً بخوفه قال الزوج :

- أين منزلك ؟

- سأرشدك ..

و عبر الطرق الجانبية، الأسفلتية فى البداية و الطينية بعد ذلك ، شعر الزوج بغمامة ثقيلة على نفسه تكاد تخنقه و تكاد تظلم الطريق أمامه أكثر و أكثر هذا ما ينقصنا ..!

ليت المدير كان مكان ذلك العجوز ..

يا إلهى ..

كان سيسوى جثته بالأرض و بكل استمتاع !

بلغا منزل العجوز أخيرًا ، فرفع الزوج عينيه ببطء عن الطريق و أخذ يجول بنظره فى ذلك المنزل العتيق أمامه ..

كان الذى أمامه – و ببساطة – فيلا لم تمتد إليها أيدى العناية منذ عشر سنوات على الأقل ..

و تحدث العجوز بصوته الواهن ليقول :

- ذلك هو المنزل ..

هل لكما أن تحملانى للداخل؟!

هتفت الزوجة على الفور:

- بالتأكيد ..

تحرك الزوج بآلية تامة ليخرج من السيارة و فتح الباب الخلفى و انتظر حتى انضمت إليه زوجته، وتعاونا على حمل العجوز للداخل ..

و فى الداخل كان الاستقبال حافلاً .. مئات العناكب .. الظلام دامس .. ورائحة العطن الرطب و ثمة ضوء ما يتسلل من غرفة ذات باب مفتوح ..

تقلص وجه الزوجه اشمئزازاً و هى ترمق هذا كله و ساعدت زوجها فى إنزال العجوز على مقعد مغطى بالغبار قبل أن تقول :

- يا إلهى .. ألا يوجد من يعتنى بك ؟!

سعل العجوز سعلة مريعة أورثته إياها رطوبة المكان و أجاب:

- لا أحد على الإطلاق .. لقد ماتت زوجتى منذ زمن و لم نحظ بالأبناء ..

بدا التأثر على وجه الزوجة بينما تحدث الزوج بذات اللهجة الآلية :

- هل نحضر لك طبيب ؟!

أجابه العجوز:

- ثمة طبيب يقطن فى الجوار هل ترى تلك الغرفة ؟! نعم تلك المضاءة .. ستجد داخلها التليفون و دليل الأرقام .. الدكتور (مجدى على) .. إنه يعرفني ..
دارت عينا الزوج من وجه العجوز إلى سماء الردهة المظلمة و السقف حيث تدلت منه بيوت العناكب .. ثم الباب الخشبى للغرفة المضاءة .. ذلك الضوء الذى أخذ يتذبذب بلا انقطاع ..
«لا توجد كهرباء .. إنها تنقطع دائماً لذا الغرفة مضاءة بالشموع»
حمل الزوج قدمه من على الأرض و خطى أول خطوة و الغمامة تزداد ثقلاً و كثافة و تجعل تنفسه عسيراً و الرؤية شبه معدومة ..
إنه يشعر أن تلك العاصفة فى الخارج تعصف بروحه .. تقتلعها من جذورها و تلقيها فى دوامة من الغضب ..
انتزع الكلمة كأنه ينتزع أحشاءه :
- سنتصل به ..
جاءت الخطوة الثانية أقل صعوبة ثم وجد نفسه - و ببطء - يتجه نحو الغرفة ..
و تبعته زوجته ببطء .. ثم تشجعن و أسرعت لتسبقه إلى الغرفة ، ثم زلزلت صرختها كل شىء .. جدران المنزل .. أعماق الرجل .. عظام العجوز .. بل و العاصفة ذاتها ..
و انتفض الزوج مسرعًا إلى داخل الغرفة ، لتبدأ الصورة في التكون في رأسه ببطء ..
فى الأول كانت الدماء .. الدماء الجافة التى لوثت الفراش .. ثم الطفل الصغير الذى حمل وجهه شحوب الموتى و قد استلقى جسده على الفراش الملوث و قد غطاه أحدهم بملاءة حملت بقعة ضخمة من الدماء الجافة ..
و على الأرض كانت السكين التى تلوث نصلها ..
و انطلقت صرخة الزوجة مرة ثانية .. و ثالثة .. و رابعة .. إلى الأبد !
و لا شعوريًا وجد الزوج نفسه يرمق هذه المذبحة أمامع .. يتجه إلى السكين .. يرتكب الخطأ الفادح الخالد فى عالم الجريمة
التقط السكين بيده ..!!
ثم التفت ليواجه فوهة بندقية العجوز !!!
على باب الغرفة وقف مستنداً إلى عكاز خشبى .. كومة من العظام الواهنة تحمل بندقية و عينين يتطاير منها الشرر ...
و خرج صوته كدفعة من اللهب :
- أيها القاتل ..
أخرست الكلمة صرخات الزوجة، و فجرت الذهول فى ملامح الزوج ، و تابع العجوز:
- قتلت حفيدى أيها الوغد .. أيها السفاح ..

سفاح !! ... وغد!! قتلت حفيدى !!!
ما الذى يريده هذا الأبله؟!!
و فتح الزوج فاه قائلاً:
- أنا .. لـ..
قاطعه العجوز:
- اخررررس س ..
و جذب إبرة البندقية ليطل الموت من فوهتها ، و التمعت عيناه ببريق مجنون و هو يقول:
- الشرطة قادمة حالاً و ستدفع الثمن ..
ردد الزوج ذاهلاً :
- ثمن ماذا ..؟!
- ثمن موت حفيدى .. كلكم يجب أن تدفعوا الثمن ثمن معاناته ..المسكين عانى المرض طويلاً .. لم أملك ثمن دواءه .. ثمن لحم أقدمه له فى الطعام .. و لو قطعة صغيرة من اللحم .. كل ما استطعته أن أريحه .. منحته الراحة، و الآن أطلب الانتقام ..
- أنت ... قتلته؟!!!!
- و أنت أمسكت السكين و كسرت ساقى ..
- لهذا ألقيت بنفسك أمام السيارة ؟!
ابتسم العجوز ابتسامة مقيتة و قال :
- هذا أمتع ما حدث .. الوقوف على جانب الطريق .. إلقاء كيس من الدماء على الزجاج .. ثم ..
ثم ألقى العجوز العكاز الخشبى !
و كومضات أخذت الصور تظهر و تختفى فى ذهن الزوج ..
و جه العجوز .. إذ سقطت عليه أضواء السيارة .. الدماء تصطدم بزجاج السيارة .. ثم الجسد ملقى على الطريق .. باللحماقة .. إنه لم يرى نقطة دم واحدة تسيل منه !!
و الآن يقف ممسكاً بالسكين .. أمام فوهة البندقية يحملها الوغد العجوز .. و الشرطة قادمة
السكين فى يده ...!!!
ربما لو طاشت أول طلقة من البندقية لوجد و قتًا كافيًا ليغمدها فى قلب العجوز
«و الآن .. الق السكين أرضًا .»
قالها العجوز بابتسامة راضية فلم يجد الزوج مفراً من التنفيذ ..
- عظيم الشرطة ستصل بعد قليل ..
دارت عينا الزوج فى الغرفة .. فى ملامح العجوز القاسية .. فى جثة الطفل

المخيفة .. فى زوجته التى أخذت تنتحب جواره غير مصدقة .. ثم فى الباب التى غطته الظلال فى الركن البعيد .. ترى إلى أين يقود ..؟!
حسناً إنه يقود إلى فكرة الهرب على أية حال ...
و لكن هل يستطيع ؟؟؟؟
عاد العجوز يهذي و هو يتقدم إلى داخل الغرفة :
- ربما تتساءلان .. لماذا أنتما بالتحديد؟!! حسناً لقد كانت ضربة قدر و كان من الممكن أن يكون أى أحد آخر و ..
و تعثر العجوز فى عكازه الخشبى ليسقط أرضاً ..
و مرت لحظة الاختيار كالوميض فى ذهن الزوج .. هل يهرع من الباب فى ركن الغرفة أم ينقض على العجوز و ينتزع منه البندقية ؟!
لو تحرك بالسرعة الكا ..
و لكن العجوز ساعده على حسم قراره عندما ضغت يده زناد البندقية لتنطلق رصاصة طائشة ، اخترقت السقف ..
و على الفور قبض الزوج على يد زوجته و جذبها صارخاً:
- اتبعينى ..
و دلف على الفور عبر الباب الذى قاده إلى سلم مظلم لم يتبين سوى أول ثلاث درجات منه
فأخذ يتقافز عليه دون و قد أعماه الظلام تمامًا .. لكن من قال أن هناك خيار آخر ؟ .. هبط الثلاث درجات ثم هوى ..
هوى عبر السلم المحطم جاذباً زوجته معه .. زوجته التى أطلقت صرخة رعب مريعة قبل أن تسقط معه على أرض القبو ، لتفقد وعيها على الفور ..أو ربما ما هو أكثر !
أما هو فعلى الرغم من الإرتفاع المنخفض الذى سقط منه إلا أنه شعر بعظامه كلها تئن ألماً و هو يحاول أن ينهض ..
« تمامًا كما توقعت »
دوى صوت العجوز ثم سطعت الأنوار بغتة ، فأغمض الزوج عينيه متألمًا ..
و تابع العجوز :
- تماماً كما يحدث كل مرة ..
فتح الزوج عينيه فى بطء و الكلمة الأخيرة تتردد فى أذنيه ..
كما يحدث كل مرة ..!!
ثم شهق بعنف عندما سقطت عيناه على القبو من حوله...
على العظام .. على الدماء .. على البقايا الآدمية المتعفنة .. على الغاز الوردى الذى تدفق من أركان القبو ..
و قال العجوز:
- نعم إنه غاز منوم و عندما أعود ستكون جاهزاً ..

و اختفى من مكانه تاركاً الزوج و رأسه تدور بشدة ..
الآن فقط فهم كل شيء بعد فوات الأوان و ..
مهلاً .. الدماء .. الآن فهم حقاً .. لقد كان الأمر خدعة و ..
و شهق أخيراً ثم سقط مغشياً عليه .. و إلى الأبد ..
و فى الأعلى .. و عندما عاد العجوز حاملاً سكيناً ضخماً و سلماً من الحبال ..
رمق الطفل الصغير الذى فتح عينيه بإعياء ، فترك ما معه على الفور و انتزع الملاءة المغطاة بالدماء و ليضع على جسد الطفل واحدة أخرى نظيفة ..
و بالإعياء الذى أطل من عينيه قال الطفل :
- جدى .. أنا جائع ..
ربّت العجوز على وجهه برقة و قال:
- على الفور يا صغيرى .. سأحضر لك العشاء حالاً ..
و تناول السكين الضخم و فرد سلم الحبال من مدخل القبو متابعاً فى رضا:
- سيكون هناك لحم على العشاء ..
و اتسعت ابتسامته الراضية أكثر ..

مرحباً

هل يحب أحدكم «موتسارت» ..؟! .. حسنًا .. أنا لا أحبه ..!!

●●●●●●

و ضع الجرامافون الثقيل أمامه و جلس .. لقد كانت صفقه جيدة مع التاجر على كل حال .. و مع ذلك فهو لا يدر سبباً محدداً لشرائه ..
ربما لغرابة الفكرة .. ربما لأن شكله العتيق جذاب.. أو ربما لأن المطلقين حديثاً يفعلون أشياء غريبة حقاً ..!
أياً كان السبب ، إنه جالس الآن فى منزله - الذى أصبح خاوياً إلا منه - يدخن بشرود و الجرامافون جاثم أمامه منتظرًا أى ردة فعل منه ..
و كان ذهنه شارداً فى فكرة غريبة .. أن يحتل جرامافون عتيق مكان زوجته بالمنزل .. ألا يبدو الموقف أكثر هدوئاً بالرغم من كل شىء..؟!
لقد كان هناك الكثير من الصراخ و الجدل و الغضب فى الفترة الأخيرة من زواجه ، قبل أن يحسم الأمر أخيراً و يتخذ القرار الذى شعر أنه كان يجب أن يتخذه منذ البداية ..
الطلاق ..
و مرت الأمور بسلاسة غير متوقعه هذه المرة ، بضعة إجراءات و أوراق و الكثير من الأثاث الذى أخذته زوجته فى ذهابها الذى بلا رجعة ، و ها هو يجلس الآن وحيدًا فى شقة شبه خاوية يحدق فى جرامافون عتيق ، ابتاعه منذ ساعات من تاجر للعاديات ، لسبب لا يعلمه إلا الله ..
أخذ يحدق فى الجرامافون بانتباه شديد ، ثم فى الاسطوانه التى حملت بحروف إنجليزية كلاسيكية الخط كلمة «موتسارت»، و التى منحه له التاجر بلا اكتراث مردداً :
- لقد كانت مع الجرامافون .. خذها بدون مقابل ..
للحظة فكر ..«موتسارت» .. إننى لا أحب موتسارت بل إننى لا أحب الموسيقى الكلاسيكية أصلاً ..! ثم لم يلبث أن عدل عن هذا مغمغماً:
- و لم لا ..؟؟! إننى لا أملك غيرها على أية حال ..
و هكذا وضع الاسطوانه فى الجرامافون .. و ضع إبرة الجرامافون على الاسطوانة .. لتنبعث موسيقى موتسارت تملأ الفراغ من حوله ..
و عاد هو لشروده مشعلاً سيجارة جديدة .. و على أنغام موتسارت بدأ يتذكر .. تذكر كيف رأى زوجته أول مرة .. أيام كانت وديعة لا يعلو صوتها على الهمس إلا قليلاً .. أيام كان وجهها يتورد خجلاً إذا قال لها ..«أحبك» .. تذكر أيام الخطوبة .. ابتسامتها عند اللقاء .. و اللهفة فى عينيها إذ يفترقا على وعد بلقاء جديد .. تذكر كيـ..

«مرحباً»..
باغته الصوت الأنثوى الذى انتزعه من أفكاره و جعله ينتفض مسقطاً السيجاره من بين أصابعه ، ليحدق في الجرامافون ذاهلاً ..
كانت الموسيقى قد توقفت و الاسطوانه تدور أمامه بلا توقف ..
هل توهم ..؟!!
ربما ..!!
بتثاقل أطفأ السيجارة بضغطة من حذائه و أعاد إبرة الجرامافون إلى بداية الاسطوانه لتنساب الموسيقى مجدداً و لتنساب معها أفكاره ..
على الأقل إنه ليس صوت زوجته ..!
زوجته التى بدأت تكشف وجهها الحقيقى بعد الزواج ببضعة أيام ..
أشعل سيجارة نفث دخانها فى صمت و بدأ يحاول تخيل وجه زوجته فى الدخان المتراقص أمامه .. ظهر له الوجه المتورد لحظه خاطفة ثم تلوى الدخان و تلوت معه ملامح زوجته و فى ذهنه آخر حوار دار بينهما ..
- طلقنى أيها الأحمق .. لو أنك مازلت تحتفظ بكرامتك ..
- (منى) .. لا تجبرينى على إتخاذ رد فعل تندمين عليه ..
- إننى لم أندم إلا على زواجى منك ..
- هكذا إذن .. إنت ..
«مرحباً ..»
جاءت الإنتفاضة أعنف هذه المرة و هو يحدق ذاهلاً فى الجرامافون الذى انبعث منه الكلمة واضحه و صداها يرن في أذنه ..
كانت موسيقى موتسارت قد انتهت و أخذت الاسطوانة تدور بلا نهاية مصدراً صوتاً رتيباً تسللت كلمة «مرحباً» فيه ..!
و بحذر اقترب من الجرامافون ، و مدّ أصابعه تجاه الاسطوانه بحذر آشد .. حاول أن ..
- « أنا اسمي (عزة) »
دوى الصوت الأنثوى الودود من الجرامافون ليجعله يقفز إلى الخلف مبهوتاً ..!
إنه لم يخطىء إذن ..! و لكن ..
و لكن الاسطوانه انتهت فكيف ينبعث الصوت إذن ..؟!
« كيف إذن؟! »
دوى صوت أنثوى آخر .. حملت نبراته بدلاً من الود توتراً و ذهولاً واضحين انتقلت عدواهما اليه، فجلس محدقاً فى الجرامافون ..!
عاد الصوت الودود يقول:
- « أرجوك لا تخافى »
صرخ الصوت الآخر:
- « يا إلهى .. من أين أتيت؟! »

تحدث الصوت الأنثوى الودود مجيباً:
- «أعرف أن هذا يبد عسيراً على التصديق و لكن .. و لكننى .. »
و انقطع الصوت بغته ...!
و لم يخرج هو من ذهوله إلا عندما لسعت السيجارة أنامله ، ليبدأ فى التحديق ذاهلاً فى الاسطوانة التى أخذت تدور مطلقة هذا الصوت الرتيب ..
ثم همس :
- ترى ..هل ..؟!
و لكن الصوت لم يأت هذه المرة ..
ترى هل توهمت ..؟!
هكذا فكّر ليصيبه هذا بالعصبية و ليدفعه إلى أن يضع إبرة الجرامافون على بداية الاسطوانة مجدداً لتخلل أفكاره موسيقى موتسارت ..
و عاد هو يجلس مشعلاً سيجارة ثالثة منتظراً انتهاء الموسيقى التى بدت له و كأنها لن تنتهى إلا بانتهاء حياته هو ..!!
يا إلهى ..! لكم أكره الموسيقى الكلاسيكية ..!
و خاصة هذا الـ (موتسارت) ..!!
ثم انتهت الموسيقى أخيراً لينفس الصعداء .. و ليبدأ فى الإصغاء شاحذاً كل اهتمامه .. الصوت الرتيب لدوران الاسطوانة .. ثم و بعد أن كاد يفقد أعصابه تماماً ..
الصوت الأنثوي المتوتر:
- «إنه هذا يبدو عسيراً على التصديق بحق ..»
الصوت الودود :
- «أعرف .. لكنها الحقيقة »
الصوت المتوتر يقول بحذر:
- « حسناً يا عزة .. كيف بدأ الأمر إذن؟ »
الصوت الودود يجيب :
- « لقد كان خطأ منى منذ البداية .. لقد تزوجت رجلاً مخبولاً ..»
ضايقت الكلمة الأخيرة غريزة الرجولة داخله، لكنه حاول تجاهلها راسمًا فى خياله صورة لما يسمعه الآن .. صاحبت الصوت الودود ترتدى الأبيض و تجلس أمام صاحبة الصوت المتوتر و الجرامافون إلى جوارهما ..
بالتأكيد كان هناك جرامافون ..
صاحبة الصوت الودود تقول:
- « لقد بدأ كل شىء منذ عشرة أعوام عندما قررت فجأه التصدى لرغبة والدى و الزواج من زميلى فى الجامعه ، لم أفكر حينها لماذا فعلت هذا ، هل لأننى أحبه حقاً أم لمجرد تنفيذ رغبتى ؟ و لكن البكاء على اللبن المسكوب ضرب من الجنون .. و هكذا و جدتنى أبدأ حياتى مع (مراد) ..»

تحدثت صاحبة الصوت المتوتر ليجتاح توترها بعض الملل :
- « إلى هنا تبدو القصة التقليدية »
و لابد أن صاحبة الصوت الودود قد ابتسمت قبل أن تجيب :
- «أعرف .. شديدة التقليدية .. حتى بدأ هو يدمن الخمر .. هل رأيت يا سيدتى من يدمن الخمر من قبل ..؟! لا .. إذن دعينى أؤكد لك أنه يكون مجنوناً تماماً و خطراً .. خطراً إلى حد لم أدركه إلا متأخراً .. جداً»
- « كيف..؟! »
- « بدأ الأمر معه بالتأخر .. كان يأتى كل ليلة و الفجر يرسم خطوطه الأولى فى السماء و كنت أنتظر أنا جالسة على مقعد أمارس هوايتى فى التريكو و الجرامافون يبث أنغام موتسارت .. رباه كم أعشقه.. »
- « زوجك ..؟! »
لابد أن الإمتعاض ظهر على ملامح صاحبة الصوت الودود و هى تجيب:
- « بل موتسارت بالطبع .. تصورى .. كان يكره موتسارت إلى حد الجنون.. مجرد وغد آخر لا يحب موتسارت ..»
- « إحم .. لكننى أيضاً لا أحب موتسارت .. »
ساد الصمت للحظات بعد كلمتها.. و فى ذهنه هو تخيل صاحبة الصوت الودود ترمقها بنظرة مبهمة قبل أن تقول:
- « ثم جاءت تلك الليلة التى حاولت فيها الاعتراض و كان هو قد فقد عقله تماماً و لم أتخيل رد فعله .. لقد انفجر .. و دفعت أنا الثمن.. »
- « ما .. الذى .. فعله .. بالضبط ..؟! »
- « أخذ يصرخ أولاً .. صرخ و سب و لعن و هذى فانفجرت أنا الأخرى لأطلب منه الطلاق .. لم أتصور حينها إننى أثرته إلى هذا الحد لكننى فعلت .. و هاك ما فعله بالضبط .. لقد ألقانى أرضًا و حمل الجرامافون الثقيل ليهوى به على ظهرى .. هوى به مرة ثانية و ثالثة حتى كسر عمودى الفقرى ليشلنى تماماً ، ثم أخذ اسطوانة موتسارت التى تحطمت تماماً و هوى بالطرف الحاد المكسور على عنقى .. لقد بدا لى الأمر حينها أنه أخذ يهوى إلى الأبد .. الشرطة قالت بعدها أنه لم يتوقف حتى فصل رأسى عن جسدى .. »
- « يا إلهى .. لكن .. سيدة عزة ما الذى تفعلينه ..؟! »
- « دعينى أكمل لك أولاً .. لقد قتلنى .. لكننى عدت كما قلت لك .. أعرف أن الأمر عسير التصديق لكننى عدت .. و جعلته يدفع الثمن .. »
بدا الصوت المتوتر يختنق و هو يقول :
- « ما .. الذى تفعليـ .نه.. بالضبط. ؟..؟! »
- « أكرر ما فعلته معه تماماً ..
لقد كنت أهوى التريكو كما قلت لك ، لا تتصورى كما لم أتصور أنا ما الذى يمكن فعله بإبرة تريكو .. لقد غرست الإبرة فى عنقه ..

بل إن يدى كلها غاصت فى عنقه .. للشبح إمكانيات كما تعرفين..
ثم أدرت الخيط حول شرايينه العنقية، و أدرت الخيط مرة أخرى لأصنع أنشوطة كالتى يستخدمها رعاة البقر.. ثم بدأت أجذب الخيط لتضييق الحلقة حول شرايينه .. لقد تألم كثيراً ..
الوغد الحقير تألم كثيراً و أنا أضيق الحلقة أكثر و أكثر.. »
هز الصوت المتوتر أعصابه و هو يجاهد ليصرخ قائلاً :
- « عزة .. أرجوك .. كفى ..! »
إنها .. إنها - صاحبة الصوت الودود- تكرر معها ما فعلته بزوجها ..!
يستطيع الآن أن يتخيلها تجذب الحبل الخارج من عنق صاحبة الصوت المتوتر ببطء ..! وواصلت صاحبة الصوت الودود :
- « لكن هذا لم يكن المؤلم .. ليس مؤلماً كفاية كيفما أردت .. لذا أرخيت الخيط لحظة .. ثم.. ثم جذبته فجأة بكل قوتى .. »
و شهقت صاحبة الصوت المتوتر ..
فجأة و مرة أخيرة ..!
و اكتست الصورة التى رسمها فى ذهنه بالدماء .. دماء تفجرت من حلق صاحبة الصوت المتوتر و أسفل جلد عنقها إذ تمزقت شرايينها لتغرق ملابسها و عينيها الجاحظتين و لسانها المتدلى مع الدماء يعلنان كلمة النهاية ..
نهاية حياتها ..!
و فى ذهنه ارتسم تعبير قاس على وجه صاحبة الصوت الودود وهى تفلت الخيط قائلة :
- « أعرف إنك على الأقل تريدين أن تعرفى (لماذا ؟!) ..
حسناً ..
السبب لأنك كنت تكرهين موتسارت تماماً كما كان يفعل هو ..
هذا هو السبب .. »
و توقف الصوت أخيراً ..
فقط الصوت الرتيب لدوران الإسطوانة ..
إسطوانة موتسارت .. موتسارت الذى يكرهه !
يكرهه ..!!
هو أيضاً يكره موتسارت .. هو أيضاً ابتاع الجرامافون .. هو أيضاً سمع القصة ..
هو أيضاً عاجز عن الحركة الآن ..!
عاجز حتى عن إلقاء السيجارة التى تحرق أنامله الآن ..
عاجز عن الإلتفات إلى صاحبة الصوت الودود .. التى ترتدى الأبيض .. ممسكة إبرة تريكو يتدلى من خيط .. و التى ظهرت على المقعد المجاور له بغتة ..
لتقول :

- مرحباً ..
و ازداد صوتها وداً و هى تقول :
- أنا اسمى عزة .. أعرف أن هذا عسير التصديق .. و لكن و لكننى .. شبح ..

••••••

عندما اكتشفت الجثة بعد ذلك ببضعة أيام .. و قف هذان الشرطيان الشابان و أولهما يقول محدقاً فى الجثة المغطاة بملاءة بيضاء مظهرة بقعة دماء واضحة فى منطقة العنق و الرأس:
- طريقة عجيبة فى الانتحار حقاً ..
- المطلقين حديثاً يفعلون أشياء لا تصدق ..
- و يبدو أنه فعلها على موسيقى موتسارت ..
مط الشرطى شفتيه قبل أن يقول :
- هل تحب موتسارت؟ ..
حسناً .. أنا لا أحبه ..!

خطوات

« كنت أسمع تلك الخطوات .. كنت أسمعها كل ليلة »

••••••

اليوم أحتفل بمرور عامين على وحدتى ..
أن تعيش وحدك ، فهى تجربه قاسية ... تجربه فريدة ... تجربة ممتعة ..
أنت تعيش وحدك فهذا هو الكمال فى حد ذاته ...
أن تعيش فى شقه بمفردك، دون أصدقاء أو أهل أو أقارب أو حتى هاتف ، يقطع خلوتك الذاتية برنين مزعج ،هذا هو ماكنت أصبوا إليه ، و هذا هو ماحصلت عليه ..
يغلقنى الصمت التام ... صمت لا يلوثه حتى ضوء الشمس ، فلقد دققت ألواحًا خشبية على جميع النوافذ ، لأصنع سجنى الخاص الذى لا أملك فيه سوى كتابى الوحيد أيضًا ،أقرأ فيه كل ليله دون أن ينتهى ...
أستيقظ كل يوم لأجلس ساعات طويله على الفراش ، لا أملك حتى القدرة على معرفه إن كان الوقت ليلاً او نهارًا ، ولا أبارح مكانى إلا لتلبيه ضروراتي القصوى ، ثم افتح كتابى وأبدأ فى القراءة حتى يغلبني النعاس ، فلا ألتقى بأحد إلا فى أحلام مضطربة أستيقظ منها والعرق اللزج يغمرنى ،عاجزًا عن تذكر ماكنت أحلم به ...
هذه هى حياتى بلا زيادة أو نقصان ...
لماذا اخترت هذا النمط من الحياة ؟؟...
لا أذكر... كنت أذكر السبب في مرحلة من مراحل وحدتى ، لكن كل الأسباب وكل المنطق ذابوا فى أطنان الصمت الذى يحيط بي من كل جانب ...
صمت طويل مستمر ثقيل مقدس...أشك أننى لو حاولت أن أصدر صوتًا ، فلن أستطيع أن أبدد جزءً من هذا الصمت...
كنت أحدّث نفسى فى مرحلة أخرى من المراحل وحدتى هذه ، وهى عادة تحتاج لتدريب وإصرار لتكتسبها ، و إلى مزيد من الصمت لتوقف عنها ، بعد هذا لن يتبقى لك شيء ...
فى المرحلة التى وصلت لها ، ستدرك أن الجدوى من أى شيء ... لا شيء !
ستصل إلى حالة لم يصل إليها كاهن قضى نصف عمره فى التبت ، وستبدأ الموجودات من حولك ، تتحول إلى صور صور ثنائية الابعاد ، غير ذات قيمة أو لون ...
مجرد ظلال صامتة هى الأخرى ..... وفى النهاية ..... مزيد من الصمت والوحدة ..
أصبحت عاجزاً عن التفكير فى أى شئ أو تذكر أى حدث مررت به ، قبل أن

أدفن نفسى فى عزلتى الإختيارية هذه ...
حتى الكتاب الذى أقرأ فيه كل ليلة ، أستيقظ دون أن أتذكر حرفاً واحداً مما قرأته ...
لكنى لم أتوقف عن القراءة ... لا يوجد شئ أخر لأفعله ....
لا مذياع ... لا تلفاز ... لا صحف .... ولا أنزل حتى من المنزل لأشترى شيئاً من الطعام ، فلدى هنا ما يكفينى لأعوام مقبلة ....
ولدى الكتاب والوحدة والصمت ... أنا أغنى رجل فى تاريخ البشرية إذن !
دخنت لفترة على سبيل التغيير ، لكن سحب الدخان المتراكمة مع نقص التهوية ، أجبرتنى على التوقف ، وها أنا قد نجحت فيما عجز عنه أى مدخن أخر ...
على كل حال لست هنا ، لأصف لك سعادتى المفرطة ولا بؤسي المتراكم ، أنا هنا لأحكى لك ما حدث - لا يعنى هذا أنك تهمنى فى شئ ! - لعلى أفهم ...
مشكلتى بدأت حسبما أذكر ... أذكر ... حتى هذا لا أذكره على وجه الدقة ، لكنى أعرف أن الوقت كان ليلاً حينها ، وأننى كنت أقرأ فى كتابى كالمعتاد ...
والذى حدث هو أننى سمعت تلك الخطوات لأول مرة ..
خطوات ثقيلة .... خطوات واثقة .... خطوات أنثوية لحذاء ذو كعب معدنى ،
أخذت تصعد الدرج متجهة إلى أعلى ...
إلى شقتى ....!
أذكر أننى انتفضت حينها ، فأنا لم أعرف زواراً منذ جئت إلى هنا ، ولم أعتد أن يصعد أحد إلى شقتى ، فهى فى الطابق الأخير ، ولم يجرؤ أحد من الجيران على محاولة التعرف إلىّ ، لذا ... لكن مهلاً ...
هذه الخطوات تتجاوز الشقة ، لتسير قليلاً فى الممر أمام المنزل ، ثم هاهى تواصل الصعود الى السطح ، ولكن ....
ولكن كيف ؟!
باب السطح مغلق ببوابة معدنية صدئة ، لم ينجح أحد فى فتحها من قبل ، فإلى أين تذهب صاحبة تلك الخطوات ؟
أذكر اننى ألصقت أذنى بباب الشقة مصغيًا إلى صوت الخطوات تواصل طريقها إلى الأعلى ، ثم ارتجفت حين سمعت صوت الباب المعدنى يفتح بصرير مخيف لأول مرة منذ جئت إلى هنا ....
من هذه المرأة ؟ .. وكيف فتحت الباب بمفردها ؟
سؤالان لم أحاول التفكير فى إجابتهما طويلاً ، قبل أن أعود لأغوص فى وحدتى وصمتى ، ولكن ما حدث بعد هذا ، كان جديراً بإثارة فضولى أكثر وأكثر ....
الخطوات الأنثوية الثقيلة بدأت تدق السقف فوق رأسى ، ثم سمعت الصوت المعدنى المميز لسلسة مفاتيح تتراقص فى أصابع صاحبها ، ثم صرير فتح الباب مجددًا ...
باب آخر فى السطح الذى أعرف يقيناً أنه خالى تماماً ، لا توجد فيه ولو غرفة

ذات باب لتفتح ....!
لم تتوقف الأصوات عند هذا الحد ، بل تحركت الخطوات قليلاً ، يصاحبها صوت إغلاق الباب الثانى ، كأن صاحبة هذه الخطوات دخلت شقتها ، وأغلقت الباب خلفها ...
لكن .. لكن ... لكن لا توجد شقة فى الأعلى !
صمتت الأصوات عند هذا الحد ، وعاد الصمت المقدس يغمرنى من كل إتجاه ، لكن صخب الأسئلة فى راسى كان مدوياً بحق ، فلم أستطع النوم فى هذه المرة ..
كيف فتحت الباب المعدنى ؟!
إلى أين دخلت وما الذى تفعله فى الأعلى ؟!
من هي أصلاً ؟!
بالطبع لم أحصل على إجابة واحدة لأي من هذه التساؤلات ، فعدت لكتابى الأثير ، أقرأ فيه حتى غلبنى النعاس ... إلى هذا الحد يكاد الأمر يبدوا سخيفاً مكرراً ، لكن ما حدث بعد ذلك لم يكن كذلك ...
أبدًا ...

●●●●●●

فى اليوم التالى استيقظت والعرق اللزج يغمرنى ، شاعرًا بثقل على صدرى يكتم أنفاسى .... هذه الشقة تحتاج للتهوية حتماً ...
لكن لا ...
الهواء الذى سيدخل سيحمل معه أطنانًا من ضوضاء ، لم أعد قادرًا على احتمالها ..
أذكر أن شيئًا ما غريبًا حدث في الليلة الماضية ، لكني لا أذكر ما الذي حدث بالضبط ...
سنوات الصمت أحالت ذاكرتى الى مصفاة لا تبق على شيء ، وها أنا لا أحمل من ذكريات الليلة الماضية سوى صورة مشوشة لحذاء أنثوى ذو كعب معدنى ، دون أن أملك القدرة على تذكر ما الذى تعنيه هذه الصورة ..
شرحت لك يومى من قبل ، لذا لن أطيل عليك ، بل سأقفز مباشرة إلى النقطة التى أعرف جيدًا أنك توقعتها ...
لقد سمعت الخطوات مجدداً ...
خطوات بطيئة .... خطوات مهيبة ... خطوات تصعد ...
تتابع الأصوات بعد ذلك ، حدث كالمرة الأولى تماماً ... الصرير المعدنى .. سلسة المفاتيح ... باب يفتح ويغلق ، والخطوات تدق السقف طيلة الوقت كأنها ستهوى

به ...
ثم بدأ صوت الخطوات يتعالى ، والاسوأ .... يتزايد !
نعم أصبح صوت الخطوات لأكثر من شخص .... ثلاثة أو أربعة .. لا يمكننى التمييز بدقة ، لكنى أثق جيداً ، أننى سمعت الخطوات الأنثوية وحدها ... أكرر وحدها ... تصعد ...
إذن ... خطوات من هذه ؟!
تراكم الاسئلة ، نقلنى إلى تلك الحالة الخاصة التى يعرفها كل من عاش بمفرده تماماً لعدة أعوام ، إذا أصبح فى راسى أكثر من (أنا) وكلهم يتناقشون معى بصوت مرتفع ، يبحثون عن إجابات لهذه الأسئلة ...
- ربما صعد آخرون فى وقت مبكر حين كنت نائماً ..
- ربما هو صوت شخص واحد يتحرك بسرعة ...
- مستحيل أن يكون شخص واحد ....أنا أسمع خطوات كفيلة بهدم السقف على راسى !
- ربما أنا أهذى ... نعم .... كل هذا الوقت بمفردى أصابنى بالجنون أخيراً ...
- ربما ... لكن ... لا ... أنا أهذى ...
لا يوجد أحد ... لا توجد خطوات ... أنا أتوهم هذا كله ...
نعم ...
لو صدقت هذه الفكرة ستختفى الأصوات ... سيعود الصمت ... سينتهى كل شئ ...
فتحت كتابى وأخذت أنظر فى الصفحات محاولاً التركيز ، وقد بدأ صوت الخطوات يبتعد تدريجياً ... الصمت يعود ليغلفنى ... كل يعود لطبيعته ...
ثم دوت الصرخة الرهيبة لتمزق غلاف الصمت حولى ...!
وإلى الأبد !

••••••

أنت الآن ترانى أقف أمام باب الشقة أنتظر ... أمسك سكين المطبخ - سلاحى الوحيد - تحسباً لأي احتمال ...
لا تسألنى كيف نمت الليلة الماضية ، وكيف استطعت مقاومة صدى الصرخة الذى أخذ يتردد فى أذنى حتى الأن ...
حين تمضى كل هذا الوقت بمفردك يغدو كل شئ ممكناً ، وكل ما تحتاج إليه هو قليل من التركيز ...
التركيييييز ...!
لكنى كنت أعرف أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد ... كنت أعرف - مثلك

تماماً - أن الخطوات ستعود ...
وستصعد ...
لم تكن لدى أى فكرة عن الذى سأفعله بالضبط ، ولكنى أثق فى أننى لن أقف ساكناً هذه المرة ، لذا ...
لذا ها أنا أقف أمام باب الشقة منذ استيقظت ، أقبض على سكين المطبخ الصديء وأنتظر ..
أنتظر الخطوات ...
لم يعد الصمت يغلفنى ، فضربات قلبى فى صدري ، كانت تدوى فى أذنى بضجيج مؤلم ...
ضجيج لن يتوقف إلا لوحدثت النهاية التى أخشاها ...!
كيف لم أنس ما حدث الليلة الماضية كما هى عادتى ؟! ... حسنًا ... أعرف أنه حل مجنون نوعاً ما ... لكنى كتبت كل ما حدث على الجدار ...
لا أحاول إستيحاء عادات فرعونية قديمة ، لكنى لا أملك ورقاً هنا ، ولم أكن أريد أن أنسى ما حدث ، لأبقى فى عذاب عدم فهمى إلى الأبد ... لذا ها أنا أقف أمام جدار كتبت عليه ملخص ما حدث الليلة الماضية .... ملخص رديء ... لكنه يكفى ....
اعرف أنك تتسأل الآن عن الذى حدث ليلة أمس ، بعد دوى الصرخة ...
أعرف لكنى لا أملك رداً ... فلم يحدث شيء على الإطلاق !
حتى جيرانى - عليهم اللعنة - لم يتحرك أحدهم ليتحرى مصدر هذه الصرخة ...
المهم أن الأصوات أختفت بعدها ، وعاد الصمت - نسبياً - ليلتها ، فأخذت أسجل على الحائط كل ما حدث ، لذا لا تستغرب لو رأيت كم علامات الإستفهام على الحائط ...
وها أنا أنتظر خطوات الإجابة ...
طال انتظارى ، حتى كدت أعدل عن الفكرة كلها ثم ... ثم ...
ثم سمعت الخطوات تصعد ...
خطوات مخيفة .... خطوات رهيبة ... خطوات قادمة نحوى ...
كنت أرتجف حتى كاد السكين فى يدى يسقط ، لكنى تحاملت على نفسى ، لأفعل مالم أفعله منذ سنوات ...
أزحت رتاج الباب ... أمسكت بالمقبض .. التقطت نفساً عميقاً ... ثم فتحت الباب ... فتحته قليلاً ، ودسست رأسى فى الفرجة الضيقة ، لأرى ظلام الدرج ، وصوت الخطوات يصعد .... ويقترب ... ويقترب ...
ثم رأيتها لأول مرة .. يا الهى ... لقد رأيتها !
كانت بلا وجه ... كان الشعر الأسود الطويل يغطى رأسها تماماً ... وكانت ترتدى فستاناً أبيض اللون يشع بالضوء .... وكانت بلا ساقين !

كانت تحلق على الأرض كأنما تسير على وسادة هوائية ، لكن صوت الخطوات كان يعلو من تحركها وهى تصعد متجهة نحوى .... نحوى أنا !
البرودة المخيفة تشل أطرافى ... السكين يسقط من يدى فعلاً ... وشعري ينتصب كقنفذ ... و هى تصعد مصدرة صوت الخطوات المخيف ....
حين استدارت لتنظر إليّ أخيرًا ، انفجرت أنا فى صراخ هستيرى ، وانتفض جسدى كله كأنما صعقنى البرق ، ويدى تتصرف تلقائيا لتغلق الباب ، ثم حملتنى ساقاى إلى غرفة النوم ، حيث تكومت فى أحد الأركان ، ضامًا ساقاى إلى صدرى ، وانفجرت فى البكاء وأنا ارتجف ...
أنا أهذى .... أنا أهذى .... أنا أهذى ....
مستحيل ان يكون ما رأيته صحيحاً ... مستحيل ... مستحيل !

●●●●●●

لم أجد فى نفسى القدرة على كتابة ما حدث هذه الليلة ، لذا نمت مكانى ، واستيقظت فى اليوم التالى عاجزاً عن تذكر ما حدث ...
كنت لا زلت أرتجف ... شيء رهيب حدث ليلة أمس لكنى لا أذكره ....
فقط أذكر الخطوات ...
كنت أسمع هذه الخطوات .. كنت أسمعها كل ليلة !
وكنت أعرف أننى سأسمعها مجدداً هذه الليلة ... وهذا ما حدث .... سمعت الخطوات تدق أعصابى فى موعدها المعتاد تصعد الى أعلى ، ثم تتابع الأصوات المعتاد فوق السقف ...
لا ... لن أسمح لهذه الخطوات بأن تدمر حياتى .... فلتكن خطوات الشيطان ذاته فلن يمسنى بسوء ، طالما أنا فى شقتى لا أغادرها ، وأنا لم أكن أنوى المغادرة بأى حال ...
ما سأفعله الأن هو أننى سأجلس على فراشى كالمعتاد ، وسأواصل القراءة فى كتابى كما اعتدت أن أفعل كل ليلة ...
وبالفعل فتحت الكتاب محاولاً السيطرة على تلك الإرتجافة التى تغمر جسدى وبدأت فى القراءة ، حتى سمعت ذلك الصوت الجديد ...
صوت شيء حاد شقّ الهواء كأنه سيف هائل ، ثم صوت الارتطام ...
ثم سقطت أول قطرة دم من السقف على الكتاب المفتوح بين يدى ...!
ماذا تفعل لو كنت مكانى ؟!
هل تصرخ ؟! هل تبكى ؟! هل تهرب ؟!
حسن ...أنا لم أفعل ..
أنا لم أجرؤ على فعل شيء !

فقط رفعت رأسى إلى السقف، لأرى دائرة تصبغ باللون الاحمر وصوت الصفير يتكرر مرة أخرى، لتسقط قطرة دم أخرى ...
بليك...
لقد جننت ... أرجوك يا إلهى ... لقد جننت...
بليك...
هذه القطرة سقطت على رأسي .. و ها هي تسيل لزجة على جبهتي ..
بليك...
صفير .. ارتطام .. قطرات...
وها أنا أسير الآن كالمأخوذ ... أغادر الفراش .. الشقة .. أصعد الدرج...
أصعد...أصعد...أصعد...
الباب المعدنى مفتوح ... أدخل ... أراها ثانية...
وأرى السكين الضخم فى يدها تسيل الدماء من على نصله ...
تلتفت هى لي ، ويدوى صوتها فى أذنى ..
« أبى... لقد عدت »
!!!!!!!!!!!!

••••••

« أبي .. لماذا ننسى ؟! »
« لأن النسيان نعمة يا حبيبى ... النسيان نعمة »

••••••

دعنى أحكى لك قصة رجل كان سعيدًا...
دعنى أعرفك بـ (أنا) فى وقت آخر .. أنا حين كنت زوجًا ... وأبًا...!
أنت الآن ترانى أدخل منزلي عائدًا من عملي ، أحمل فى يدي حقيبة الأوراق وبعض الفاكهة، كأي زوج تقليدي..
أنت الآن ترى ملاكي الصغير (رنا) وهي تجري نحوي بأقدام مكتنزة طفولية تردد :
- بابا... بابا...
أضع ما فى يدى على أي شيء مسطح ، وأستقبل طفلتي بين ذراعي ، أضمها بحرص ، وأطبع على خدها قبلة صغيرة .. وأداعب شعرها الناعم قائلاً :
- مرحبا بصغيرتى الحلوة ..
طفلتى لاتزال في الخامسة من العمر ، وهى بالنسبة إليّ ، مباهج الدنيا كلها

مجتمعة فى جسد صغير ...
زوج وزوجة وطفلة صغيرة ...
مشهد تقليدي تمامًا، وأنا لم أعدك بأي نوع من التجديد...
لكني وأنا أتذكر الآن واقفًا على السطح، أرتجف بردًا وهلعًا، أراه لمحة من ماض اندثر ...
ماض كنت فيه عاديًا و تقليديًا .. فكيف انتهى بي الحال بهذه الصورة ؟!
هذا هو السؤال ...
زوجتى كانت امراة طيبة .. تزوجتها بعد قصة حب مراهقة ...انتهت بأن أصبحت زوجتي ، وانتهى الحب بأن أصبحنا صديقين يخوضان متاعب الحياة معًا ... ثم رزقنا بـ (رنا) لتضيف إلى حياتنا معنى جديدًا .. معنى جميلاً ....
كانت(رنا) تتمتع بجمال ملائكي لا أعرف ممّن ورثته، وكانت كل ضحكة تطلقها ، تغسل هموم اليوم كله ، و تمنحنى سببًا جديدًا للإستمرار...
تمر علينا السنوات وتكبر(رنا) ...
ها أنا الآن أراها فتاة صغيرة ، تعود من المدرسة بمفردها ، تحمل حقيبتها الصغيرة و تبتسم وهى تحكى لنا عن يومها...
ويمر الزمن كعادته...
تكبر هي ونكبر نحن ... يأخذ منا الزمن ويعطيها ...
ابنتى الآن على أعتاب المراهقة والجامعة ... فاتنة كأميرة ... رقيقة كندف الثلج ... وهى تحب...!
أنا أعرف هذا وأدركه جيدًا.. أسمعها تتنهد ... أراها تحلم ... أشعر بها طيلة الوقت...
لكنها لاتزال طفلة فى نظري.. و لا تزال في السادسة عشر من العمر فى نظر المجتمع .. فأي نهاية تنتظرها لقصة الحب هذه ؟
إن أفضل الإفتراضات التى تملكها لن تتحقق إلا بعد سنوات طويلة ، لذا حين جاءتني ذات ليلة، لتحدثني عن ذلك الذى اسمه(رامي) حاولت شرح هذا كله لها ...
حاولت وحاولت وحاولت ... فكانت النتيجة :
- إذا لم تزوجني من رامى ... سأنتحر !
تقولها هى بصوت لم أسمعه منها من قبل ، فتتحرك ذراعي لتطبع صفعة مدوية على وجهها ...
أول وآخر صفعة لها ...
تتجمع الدماء فى وجهها وعينيها وفي قلبي ... وتتركني لتتفجر في البكاء في غرفتها ، بينما أقف أنا جامدًا ، لا أصدق ما اقترفته يداي ...
لابأس .. ستبكي قليلاً ثم ستنسى الموضوع كله .. إنها مراهقة ، وكلنا مررنا بهذه الفترة وكلنا أجدت معنا الصفعات نفعًا...

لابأس ... حين تستيقظ ستكون قد نست ذلك الذي اسمه رامي ...
أنا واثق من هذا ...
لكن .. في تلك الليلة استيقظت على صراخ زوجتي ... وقبل أن أصل إليها كان قلبي قد أخبرني بما حدث ... لقد فعلتها...!
الآن أنا أقف فى غرفة ابنتى ... أصغي لصرخات زوجتي الهستيرية وهى تحتضن الجثة الغارقة فى الدماء ...
لقد فعلتها...!
تدور الدنيا بي و أنا أرمق هذا المشهد ، عاجزًا عن النطق و عن الحركه ...
الآن فقدت آخر سبب كان يدفعني للإستمرار ... لقد فعلتها...
الآن أتمنى لو أنني متّ ألف مرة ، قبل أن أمنحها صفعه النهاية ...
الآن أرى تلك الورقة التي تعلقت بيدها ... يدها التي خرجت من أوردتها المقطوعة دماء الحياة بلا رجعة...

« حبيبتي ... لو فرقتنا الحياة ، فعلى الموت أن يجمعنا إلى الأبد ....
سأنتظرك .. إمّا في هذه الدنيا... أو في عالم الخلود ...

رامي
يا للمراهقة ... يا للمأساة !
كلنا قرأنا (روميو و جوليت) في مرحلة من مراحل حياتنا ، لكن... هل جربت أن تعيشها بنفسك ؟!
و في أسوأ دور ممكن ؟!
أنا فعلت.. ودفعت الثمن ..

••••••

لكن (رامي) لم يفعلها ...
هذا ما عرفت لاحقًا لا أحد في كلية ابنتي اسمه (رامي) انتحر ... لم ينتحر أحد سوى ابنتي .. ابنتي أنا ..
الوغد الجبان النذل لم يفعلها ، لكنه ترك ابنتي تنزف حتى الموت و هي تتردد اسمه ...
سيدفع الثمن .... أقسم أنه سيفعل ...

••••••

هل جربت أن تقتل من قبل ؟! ...لا.. إذن اصغ لي جيدًا أيها الساذج ..
أول ما عليك فعله هو أن تدرس ضحيتك جيدًا، لتنتقي أنسب وقت ممكن لتنفيذ هذه المهمة القذرة ، و بالقدر الكافي من الأناقه التي ستجعلك لا تترك دليلاً واحدًا يشير إليك ...
هذه مهمة صعبه بالمناسبة، لكنها الضرورة ... فلايزال مشهد جثه ابنتي الغارقة في الدماء يطاردني كلما أغلقت عيني ، ولم أعد أستطيع الإحتمال ..
هناك مشكله أخرى عليك أن تتجاوزها نفسيًا، وهي أنك ستقتل شخصًا ... شخص يحب ويكره و يفكر و يضحك و ينام و يحلم ويصيب ويخطيء ... مثلك تمامًا...
و كل هذا سينتمي على يديك...
أنت ستضع حدًا لحياته وربما لحياتك لو انكشف أمرك لذا عليك أن تفكر مليًا ... أن تفكر طويلاً ... بعدها سيتحول الأمر بالنسبة لك ، مهمة عليك أن تنجزها، وسيتحول الشخص في مهمتك الرهيبه هذه إلى شيء تتخلص منه تماما ككتاب قديم مللت قراءته ...
هكذا استغرقت في تفكير عميق، دام لأشهر طويلة ، لم أخرج منه إلا لأدفن زوجتي التى ماتت حزنًا على ابنتها ، لتنضم اليها في العالم الآخر ، ولأتفرغ أنا لمهمتي الحتمية ..

●●●●●●

هنا يبدأ المرح الحقيقي ... و هنا تتأكد حقيقة أن لكل مأساة ، جانب كوميدي قد يكون أكثر قسوة من الناساة ذاتها...
« رامي »من ؟!
عرفت أن في كلية ابنتي الراحلة أكثر من طالب يحمل هذا الإسم المقيت (رامي) .. لكن من منهم على وجه التحديد الذي أعطى ابنتي الدفعه الأخيرة على حافة النهايه ؟
هذا سؤال مهم .. هذا سؤال منطقي... هذا سؤال سيبرر للجميع موقفي حين أنفذ ما انتويت تنفيذه ..
الحل اذن ؟!
هه ..
لابد أنك استنتجته مبتسمًا ... نعم ... ستصبح كلية تجارة هذا العام بلا (رامي)... أي (رامي) !

●●●●●●

شبح ابنتي يتجه تجاهي بلا ساقين و السكين في يدها لا يزال يقطر دمًا ..
تردد بصوتها الحالم :
أبي .. إنه أنا ..
لكن لا .. سأركز .. سأركز ..
نعم .. إنني الآن أتذكر ..
أتذكر كيف قتلت أول (رامي) ..

••••••

كان اسمه (رامي محمد) .. كان عمره سبعة عشر عامًا .. كان في طريقه للمنزل ..
كان يعيش في أحد الأحياء الفقيرة التي لم تسمع شوارعها لفظة (إضاءة) و كانت هذه النقطة في صالحي .. كان يحمل في يده تلك الأكياس البلاستيكية السوداء التي تشي بأن الفاكهة هي محتواها ، و كان هذا لحسن حظي ، فهذا لن يعيطه فرصة للمقاومة و أنا لست بالشاب الفتيّ لأصارعه ..
كان يمرّمن جواري و كله طمأنينة ، فمن الذي يقلق من عجوز مثلي يسير بمفرده في ظلام الطريق ؟ .. لكنه شعر .. في تلك اللحظة الأخيرة في عمره و بعد أن تجاوزني بخطوتين شعر بشيء ما ، و استدار تجاهي ليجد يدي تغرس السكين لآخره في صدره ، بينما يدي الأخرى تكمم فمه لتمنعه من الصراخ ..
لثوان تجمدت عيناه الجاحظتان على نظرة مزجت الهلع بالدهشة بالغضب بالألم ، ثم تراخت يداه لتسقط الأكياس من يده ، قبل أن يسقط هو كصخرة ..
هكذا يموت الإنسان .. تخرج الروح و لا يتبقى سوى جسد سيبلى في التراب ..
هكذا لم يعد هناك (رامي محمد) ..
فقط جثة غارقة في الدماء ..
أمّا أنا فكنت قد أخذت كمًا من الحبوب المهدئة منعني من الذعر ..
نعم لقد قتلت إنسانًا ، لكني لن أستوعب هذه الحقيقة حتى أعود إلى منزلي ..
الآن أستعيد السكين لأدسه في ملابسي
و أبتعد بسرعة دون أن يشعر بي أحد ..
الآن أتحول من أب مكلوم إلى قاتل ..

••••••

لكنه لم يكن (رامي) المطلوب .. عرفت هذا حين زرت قبر ابنتي لأجد قصاصة

ورق مكتوب عليها :
« سأذكرك إلى الأبد ..
رامي
إذن فعملي لم ينته .. يتبقى ثلاثة يحملون هذا الإسم .. ثلاثة سينضمون إلى ابنتي في العالم الآخر ..
قبل أن يتهمني أحدكم بالجنون ، أؤكد أنني حاولت كثيرًا معرفة أي (رامي) الذي يجب أن يموت .. حاولت و سألت صديقات ابنتي و فتشت في أوراقها ، لكنني لم أصل لشيء ..
لهذا دفع (رامي غانم) الثمن هو الآخر ..
هذه المرة لم أجد سوى أن أنتظره في غرفة تبديل الملابس في النادي ، فلقد كان من الطراز الذي لا يفارقه أصدقائه إلا أثناء النوم و في دورة المياه ..
دخول النادي لم يكن صعبًا ، لكن الوصول لغرفة الملابس لم يكن هينًا .. المهم أنني فعلتها ..
كان غارقًا في العرق و عضلاته تأن من مجهود المباراة التي خاضها منذ قليل ..
كان هشًا جدًا و كالعادة لم يتوقع من عجوز مثلي شرًا ..
لا أنكر أنني شعرت بالندم حين تدفقت دماءه الحارة على يدي بعد أن غرست السكين في عنقه ، لكن لا .. كلّما تذكرت مشهد جثة ابنتي تأكدت من أنهم يستحقون ..
كل من يحملون اسم (رامي) يستحقون !

••••••

و كان طبيعيًا أن يلفت نشاطي هذا الإنتباه ..
اثنان في ذات الكلية يقتلان طعنًا و كلاهما يحمل ذات الإسم .. يبدو الأمر مثيرًا للشك ..
هكذا بدأ الجميع في الحذر ، و هكذا بدا أنه سيستحيل عليّ أن أواصل انتقامي ..
لكني أقسمت ألا أتوقف .. تبقى اثنان يحملان ذات الإسم ، أحدهماالسبب في موت ابنتي ، و أنا لن أتركه يعيش و يتخرج و يتزوج و يحظى بالحياة التي حرم ابنتي منها ..
أبدًا ..
لقد كان (رامي حسين) يعيش بمفرده في شقة صغيرة في أحد المناطق الراقية .. لقد كان حذرًا فلم يفتح لي الباب حين زرته ، بل أخذ يحدثني من وراء الباب بينما أنا أختلق الحجج ليفتح لي ، و لم يفعلها إلا حين تظاهرت بأنني أصبت

بأزمة قلبية ، حينها لم يملك إلا أن يحملني إلى داخل شقته ليتصل بالإسعاف ..
عجوز مسكين يصاب بأزمة قلبية أمام منزلك .. بالطبع ستساعده .. بالطبع ستعطيه ظهرك و أن تتصل بالإسعاف .. بالطبع ستشهق ذاهلاً إذا اخترقت سكينته ظهرك ، و بالطبع ستكون آخر كلمة ستتنفسها هي :
لماذا ؟!
ثم ستهوي كأي (رامي) آخر !
و بهذا تبقى واحد فقط لتنتهي مهمتي .. لينتهي انتقامي ..

••••••

لكن (رامي رشاد) هرب !
هرب .. هرب .. هرب .. الوغد الحقير هرب ..
ترك منزله و الكلية و اختفى .. هرب ...

••••••

هكذا بدأت وحدتي ..
بعد أشهر من البحث أصابني اليأس ، فانزويت بمفردي في تلك الشقة التي أعيش فيها الآن .. كنت أهرب أنا الآخر ..
أهرب من الماضي و من الذكريات و من جرائمي و من فشلي ..
و لأن النسيان نعمة .. بدأت أنسى ..
لم يعد معي سوى الوحدة ، و كتابي الوحيد أقرأ فيه كل ليلة .. مهما طالت الأيام ستنتهي و سأموت هنا دون أن يشعربي أحد ..
هذا ما كنت أخطط له ..
حتى سمعت الخطوات ..

••••••

الآن أنا على السطح و الدموع تسيل على وجنتي ببطء ..
لقد تذكرت كل شيء ..
أمّا شبح ابنتي فمد يده تجاهي مرددًا :
أبي .. لقد انتهى الأمر ..
تقولها فأنتبه إلى الجسد الذي تكوم على السطح بلا حراك .. لازلت أذكر هذا الوجه الذي أصبح الآن يحمل شحوب الموت و سخريته ..

(رامي رشاد) .. !
لكن .. ما الذي أتى به إلى هنا ؟؟
أجابت ابنتي على السؤال دون أن أنطق به :
لقد كان يبحث عنك ..
ياااااااه .. ! .. لهذا السبب اختفى .. ليتتبع القاتل الذي يطارده ..
لأشهر طويلة أخذ يقتفي أثري و يبحث عني ليقتلني قبل أن أقتله، و حين توصّل إلى مخبأي – بمعجزة ما – بعد عام طويل من البحث ، وجد شبح ابنتي في انتظاره ..
ابنتي .. أنقذتني !
غالبت دموعي لأقول بصوت مبحوح :
(رنا) .. أنا .. آسف ..
لكن شبح ابنتي أخذ يتلاشى ببطء أمامي دون أن تجيب .. و على الأرض هوى السكين الذي كان في يدها ليملأ رنين سقوطه المعدني صمت الليل ..
أنا آسف يا ابنتي ..
لكنها تتركني و لا تجيب ..
الآن أسمع صوت خطوات تصعد إلى السطح .. يبدو أن الجيران على قيد الحياة برغم كل شيء .. سيبلغون السطح الآن ليجدونني جوار جثة (رامي) و سيجدون السكين الملوّث بدمائه جواري .. إنها النهاية إذن ..
لكن لا يهم .. لقد انتهت مهمتي و لم أعد أمقت الموت إلى هذه الدرجة ..
ستكون محاكمة سريعة ، بعدها السجن الإنفرادي حيث أمارس وحدتي مجددًا بعدها ستكون المشنقة ..
لا بأس .. كل شيء سيكون على ما يرام ..
الآن أسترخي بينما صوت خطوات الجيران يقترب ..
و يقترب ..
و يقترب ..
و ..

العشرون دقيقة الأخيرة

« ألن تتوقفي عن قراءة هذه التفاهات يا (ميشكا) ؟ »
فلا ترد (ميشكا) و تواصل قراءة تفاهاتها المحببة .. أمّا أمها فتعود للنوم و قد سقطت أسيرة الإيقاع المنتظم ، مستندة على كتف أبيها ، الذي استند بدوره على نافذة ، بدت الثلوج من خلفها و كأنما غزت الكون كله ..
(ميشكا) في العاشرة من عمرها لذا فقد يثير اهتمامك أن تعرف أن التفاهات التي تقرأها تقول :
– الجثة الثالثة عثر عليها في أحد الأزقة في موسكو التي حولها انهيار الإتحاد السوفيتي إلى شبح مجد من أمجاد الماضي .. و كالعادة كانت مذبوحة بأداة شبه حادة و قد حمل الوجه أقسى آيات الفزع التي من الممكن أن يحملها وجه بشري .. الأمر الذي فسره د . (بوريس ميلانوف) بأن القاتل يفضل أن تتم عملية الذبح ببطء شديد لتعاني الضحية أقصى درجات الألم و الرعب و هي تلفظ أنفاسها الأخيرة ، لكن باقي التفاصيل التي حملتها الجثة هي التي أكدت أنه قاتلنا الملقب بـ (نازع الأحشاء) ..
لكن هذا لا يعني أن (ميشكا) غريبة الأطوار ..
فلنقل – فقط – أنها لها مزاجًا غريبًا في القراءة ، وهذا حقها خاصة و أن أطفال هذه الأيام ليسوا أطفالاً بالمعنى الذي نعرفه عن الأطفال .. نحن كنّا أطفالاً يضحكون علينا بـ (العروسة) و (الحاجة الحلوة) .. أمّا الآن فلا يكفي الانترنت و القنوات الفضائية و الهواتف المحمولة و ألعاب الكمبيوتر لملء فراغ هؤلاء الأطفال .. لذا حين يكون عيب (ميشكا) الوحيد هو أنها تهوى قراءة قصص الجرائم و السفاحين ، فسنجد أن الأمر ليس بهذا السوء ..
ثم إن تلك الصحيفة المسماة (مسرح الجريمة) و كاتبها الأبرز (ليو باروفسكي) هما الأجدر باللوم مع كل تلك القصص التي ينشرونها بتفاصيل سادية لا مثيل لها في أية صحيفة خرى .. صحيح أن هذا ما يبقيها على رأس قائمة المبيعات ، لكن اقرأ معي هذه الفقرة لتفهم ما اعنيه :
كما وجدنا في الجثة الأولى و الثانية تمامًا كان البطن مبقورًا بذات الأداة التي استخدمت في الذبح و هذا ما أثبتته فحوص الطب الشرعي بعد أن عثر الأطباء على أجزاء من نسيج العنق ملتصقة بالغشاء البيرتوني المحيط بالأمعاء ..أمّا الأمعاء فكانت تتدلى خارجة بذات التشكيل الرهيب الذي لم يفهم المحققون المغزى منه حتى الآن .. أمعاء ممزقة و معقودة على بعضها البعض بحيث تبدو كأنها زهرة .. زهرة من الأمعاء البشرية تنبت في جسد ممزق في بشاعة .. و لو أضفنا إلى هذا كله نزع العين اليسرى و ..
تتذكر أنت الآن أن (ميشكا) في العاشرة من عمرها و هي تقرأ هذه السطور ، فأذكرك أنا أنها ليست المسؤولة عن توافر هذا النوع من التفاهات بين يد العامة .. إنه (ليو باروفسكي) و صحيفته (مسرح الجريمة) ..

سحقًا له و لصحيفته !
الإيقاع المنتظم و الإهتزاز المتواصل لا يجعلان القراءة أسهل بأي حال .. بل إن (ميشكا) بدأت تفرك عينيها كأنما سيخفف هذا من الصداع الذي تشعر به .. و حين مرّ الساقي من جوارها و هو يدفع عربته ، طلبت منه قدحًا من القهوة فمنحها إياه ذاهلاً بعد أن أقنعته بيدها التي قبضت على بضعة أوراق مالية أخذتها من حقيبة أمها الغافية أمامها ..
في العاشرة و تشرب القهوة ؟! .. أرجوك .. اقرأ معي ما تقرأه هي الآن و ستجد أنه من حقها أن تشرب الخمر لا القهوة !
الجثة الرابعة كانت في (سيبريا) التي لا تحتاج إلى المزيد من الجرائم لتزيد رهبتها .. و كانت لامرأة هذه المرأة .. امرأة في الثانية و الثلاثين تدعي (منيرفا شولوخوف) لكنها كانت أول ضحية يعثر عليها في منزلها .. في غرفة نومها .. الأمر الذي حذر منه د . (بوريس) و اعتبره نقلة نوعية في نشاط قاتلنا الذي اعتاد اصطياد ضحاياه في الأزقة المظلمة لا أن يتبعهم إلى منازلهم ، مما سيؤدي إلى حالة عارمة من الفزع ستجتاح البلاد كلها بعد أن أصبح (نازع الأحشاء) هو الكابوس الذي ينتظره الجميع خلف كل باب و مع كل دقة جرس .. لا بأس .. سأعترف أن (ميشكا) غير طبيعية ، لكنك الآن تريد أن تعرف ما الذي أصاب ضحيتنا الرابعة :
الجيران هم من اكتشفوا جثة (منيرفا) بعد أن رأوا الدماء و هي تتسلل أسفل عتبة بابها بغزارة غير طبيعية .. و حين اقتحموا المنزل كانت جثتها هناك لكنها كانت معلقة في وضع عكسي في السقف و قد شكلت أمعاءها تلك الزهرة المخيفة بحيث تكون في استقبال من يدخل .. أما الرأس فقد تم العثور عليه في .. في .. يتبع العدد القادم ..
و هو قول كان كفيلاً بتحطيم أعصابها لولا أنها كانت تملك العدد القادم ..
من أهم الدروس التي تعلمتها من هذه الصحيفة ألا تقرأ عدد أبدًا قبل أن تتأكد أنه لا يحمل تلك العبارة البغيضة (يتبع العدد القادم) .. في هذه الحالة تؤجل قراءة العدد حتى يصدر العدد – اللعين – القادم !
« ميشكا .. ألازلت .. »
تقولها أمها من وسط نعاسها الذي تعود إليه ، فتتصلب (ميشكا) للحظة قبل أن تلتقط العدد القادم من حقيبتها بحذر شديد ، لتعود لمواصلة الـ ..
لكن صرخة حماسية انطلقت مجلجلة من بين شفتيها حين قرأت :
نحن ننفرد بنشر مواصفات نازع الأحشاء الشهير ..
و أسفل هذا العنوان و بخط أصغر :
– الضحية الوحيدة التي نجت من الموت تصف لنا ما رأته في تلك الليلة الرهيبة
كانت أمها قد انتفضت مستيقظة من صرختها الحماسية ، و كأي أم أدركت الموقف كله في لحظة ، لتصيح :

ألم أقل لك أن تتوقفي عن قراءة هذه التفاهات ؟
ثم و بحركة سريعة انتزعت منها الصحيفة ..
- أمي .. لا ..
صرخت بها لكن هذا لم يزد أمها سوى حماسًا بينما واصل أباها تظاهره بالنوم ليجنب نفسه الجدل .. و بحزم لا نقاش معه قالت الأم :
و الآن اخلدي إلى النوم ..
و هي من المعجزات التي يمارسها الأهل منذ زمن ..
إنهم يفترضون أنهم قادرين على إصابتك بالجوع و الشبع و النعاس و اليقظة و الخوف و السعادة بمجرد أن يأمروك بهذا !
أمي إنني ..
قلت اخرسي و إلا ..
ثم إنها طوّت الصحيفة أسفل ذراعها و عادت للنوم ، بينما مطّ أبوها
- المتظاهر بالنوم - شفتيه في أسف ..
مستحيل .. لقد أوشكت منذ لحظة واحدة على معرفة سر (نازع الأحشاء) الرهيب .. أوشكت أن تعيش ما عاشته تلك الضحية التي نجت منه لتحكي لها هي وحدها ما حدث و أي هول رأت .. أسرار الكون ذاته أوشكت أن تتكشف لها ، ثم تأتي أمها لتنتزع هذا كله منها في لحظة ..
إنها تستحق أن تنتزع أحشاءها .. لا .. لا ..
يبدو أنها أسرفت حقًا في قراءة هذه القصص ..
لكنها تريد أن تعرف حقًا ..
تريد لكنها لن تجرؤ على جذب الصحيفة من أسفل ذراع أمها ، و إلا تحولت هذه الأخيرة إلى ما هو أسوأ من (نازع الأحشاء) و هي أكثر من يعرف هذا ..
هكذا لم تملك (ميشكا) سوى الدموع الصامتة و أمل أن تسقط الصحيفة من أسفل ذراع أمها بأي طريقة ، حتى امتدت يد أبيها فجأة لتجذب الصحيفة ببطء لينالها لها و هو لا يزال يتظاهر بالنوم ، و إن منحها ابتسامة جانبية ، فبادلته إياها بأخرى ممتنة و هي تلتقط منه الصحيفة بحذر ..
و ببطء شديد فضّت الأوراق و عادت تواصل :
- الضحية الرابعة كان اسمها (منيرفا) و ..
لا .. لا .. ليس هذا .. (منيرفا) ماتت في شقتها معلقة بوضع عكسي أمام باب شقتها و قد تحولت أمعاءها إلى زهرة مرحبة .. لم تعد تهم الآن !
جرت عينيها المرهقتان على الأسطر حتى وصلت إلى :
الضحية الخامسة و الحيدة التي نجت من الموت كان (فيودور تاركوفسكي) .. في الرابعة و الثلاثين من العمر و كان ينظف المطعم الذي يعمل فيه بعد انتهاء ساعات العمل ، حين دخل (نازع الأحشاء) مطعمه متظاهرًا أنه زبون ، و على الرغم من أنه لم يعد استقبال الزبائن بعد ساعات العمل الرسمية ، إلا أن

(فيودور) كان يشعر بالوحدة ، و وجدها فرصة ليؤنس وحدته .. لكنه لم يكن يعرف أنه سيدفع عينه اليمنى و لترين من دماءه ثمنًا لهذا ..
رشفة من كوب القهوة أمامها ، ثم :
و حين دخل (فيودور) إلى المطبخ ليعد العشاء إلى هذا الغريب ، فوجيء به يقف خلفه و قد قبضت يده على سكين ضخم ذو نصل متآكل لا يزال يحمل آثار دماء جافة .. و قبل أن يجد الفرصة للحركة كان (نازع الأحشاء) يهوي بسكينه على وجهه ليفقد (فيودور) عينه اليمنى و لتتمزق شرايين عنقه نوعًا ما .. لكن العجيب أن (فيودور) قاومه رغم إصابته و أخذ يصرخ كالمجذوبين ، ليفرّ (نازع الأحشاء) ، قبل وصول بعض المارة الذي جذبهم الصراخ و ..
و الذين نقلوا (فيودور) إلى المستشفى حيث أجروا له عملية و .. الخ الخ .. كل هذا مفهوم .. أين الوصف بالضبط ؟؟
- و في التحقيق وصف (فيودور) الغريب بأنه معتدل القامة و على درجة من البدانة .. ذو شعر خفيف في مقدمة رأسه يشي بأنه في طريقه للصلع ،
و أنه يرتدي منظارًا طبيًا ذو إطار ذهبي و هناك ندبة خفيفة في ذقنه .. و بهذا يصبح لدينا - أخيرًا - وصف واضح لهذا القاتل الذي روّع روسيا بجرائمه التي ..
لكن (ميشكا) لم تكمل و قد تحول الصداع في رأسها إلى طرقات لا ترحم تهوي بإنتظام على جمجمتها .. لذا أغلقت عينيها بقوة و أخذت تتخيل (نازع الأحشاء) ..
المشكلة أن هذا الوصف يليق بأي شخص رأته في حياتها .. الكل أصبح على درجة من البدانة و الكل يرتدون النظارات الطبية هذه الأيام و الكل يصابون بالصلع .. حتى أباها بدأ الصلع يغزو مقدمة رأسه ، و لولا أنه لا يملك ندبة في ذقنه لأبلغت عنه على الفور !
لكن (ليو باروفسكي) كتب كأنما يجيب :
و صحيح أن هذه المواصفات لا تكفي لتحديد هوية القاتل ، لكنها تكفي بالتأكيد لإثارة الشكوك التي قد تجنب المزيد من الضحايا ، و لابد أن (نازع الأحشاء) سيخفف قليلاً من نشاطه في الفترة القادمة ، بل ربما يقدم على الإبتعاد عن المدن حتى تهدأ الأمور ، قبل أن يعود لينتزع المزيد من الأحشاء .. و لقد أكّد الدكتور (بوريس) على أن يـ .. و هذا هو ..
ثم مساحة بيضاء إلى آخر الصفحة و هي من العيوب التي تكررت في صحيفة (مسرح الجريمة) أكثر من مرة ، لكنها لم تحتط لها للأسف .. بعض النسخ تحمل عيوب طباعة كتلك التي تطالعها الآن و الحل الوحيد أن تحصل على نسخة أخرى و إلا تحول تأكيد الدكتور (بوريس) إلى بعض الرموز الغير مفهومة .. لكن ..
من أين لها أن تحصل على نسخة أخرى ؟

إنها في قطار يشق طريقه وسط ثلوج تبدو و كأنما لا بداية لها و لا نهاية ، و لابد أن أقرب بائع صحف يبعد عنها أكثر من ألفي كيلومترًا على الأقل ، و هي لن تطيق صبرًا حتى تصل .. فما الحل ؟

أخذت تنظر حولها في حيرة لتصطدم عيناها بنسخة أخرى من (مسرح الجريمة) يمسكها أحد المسافرين على بعد عدة مقاعد منها ..

ها هو الحل إذن !

صحيح أن أمها حذرتها من مغادرة مكانها أيًا كان السبب ، لكنها تستطيع دومًا التظاهر بأنها ذاهبة إلى دورة المياه ، هذا بفرض أن تشعر بها أمها أو أبوها الذي غرق في النوم فعليًا لا تظاهرًا كما كان يفعل منذ قليل ..

ثم إن المخاطرة تستحق ..

الدكتور (بوريس) بنفسه يؤكد على شيء ما يجب أن تعرفه و إلا ..

هكذا غادرت مكانها ببطء شديد ثم اتجهت على أطراف أصابعها إلى ذلك المسافر الذي اختفى تمامًا خلف الصحيفة و هي تبتسم ببراءة .. ستطلب منه النسخة أو ستقف أمامه لتقرأها و هي في يده لو وصل الأمر .. المهم أن تنتهي قبل أن يضطر أبوها إلى إلقاء أشلائها من القطار بعد أن تنتهي منها أمها ..

عذرًا .. هل يمكنني أن ؟

لكنها لم تكمل عبارتها هذه أبدًا ..

ففي اللحظة التي نطقتها طوى المسافر صحيفته لترى وجهه لأول مرة ..

كان معتدل القامة و على درجة من البدانة .. ذو شعر خفيف في مقدمة رأسه يشي بأنه في طريقه للصلع ، و كان يرتدي منظارًا طبيًا ذو إطار ذهبي و هناك ندبة خفيفة في ذقنه ..

و كانت تلك النظرة الرهيبة المطلة من عينيه أوضح من اللازم ..

صدمتها المباغته جعلته يدرك أنها تعرفته على الفور ..

أنها عرفت أنه (نازع الأحشاء) الشهير ..

شخصيًا ..

●●●●●●

لكن (ميشكا) في السابعة من عمرها برغم كل شيء ، لذا تصرفت كأي طفلة أخرى في السابعة من عمرها ..

تجمدت في مكانها و قد اتسعت عيناها بنظرة رعب ذاهلة ..

صحيح أنها حاولت التحرك .. حاولت التماسك .. حاولت الصراخ حتى ، لكن هذا كله لم يحدث .. فقط ظهر (ليو باروفسكي) في عقلها ليروي لها كيف سيكتب عن جريمتها :

و لا بد أن الفتاة المسكينة حاولت تحذير أحدهم ، لكنهم لم يصدقوها .. من الذي يصدق طفلة في السابعة من عمرها هذه الأيام ؟ .. هكذا وجدت نفسها في قطار يشق الثلوج في مواجهة نازع الأحشاء الشهير الذي ..

قال هو :

اجلسي ..

فأطاعته كأنما نومها مغناطيسيًا بنظراته ، و انتفخت مثانتها كفم ضفدع في موسم التكاثر ، بينما (لو باروفسكي) يواصل في رأسها :

السؤال هو كيف قتلها في القطار دون أن يشعر به أحد ؟؟ أين كان والديها حين كان نازع الأحشاء يمزق عنقها بـ ..

و قال هو :

- أنت تعرفين من أنا .. لا داعي للتظاهر بالعكس ..

ثم إنه تحسس الندبة في ذقنه ، ليردف :

لا تفكري في أي حماقة ، فمهما حدث سيظل هناك وقت كاف لأجز عنقك لو اضطررت إلى هذا ..

لكنها كانت عاجزة بالفعل عن فعل أي شيء .. أما هو فطوى الصحيفة و وضعها جواره ببطء ، و أخرج من جيبه لفافة تبغ أشعلها بأناقة ، ليدخن في هدوء دون أن ينظر لها حتى ..

أمّا (ميشكا) فقد بلغت مثانتها حلقها ، و شعرت بها على وشك الإنفجار ، فانتزعت الأحرف من فمها انتزاعًا :

أنا ... لن .. أتحدث .. أبدًا ..

بالطبع لن تتحدثين .. فأنا سأقتلك .. فقط أفكر كيف و أين ؟

قالها بهدوء كأنما سألته عن الساعة ، فبدأت تشعر أنها ستفقد الوعي ..

لكن (ليو باروفسكي) حذرها في عقلها :

ربما فقدت الوعي ، و هذا ما منحه حجة نقلها من مكانها .. ربما زعم أنه والدها و أنه سيأخذها إلى دورة المياة ، و هناك ما كان عليه سوى أن يكرر ما مارسه من قبل عشرات المرات .. و لو نظرتم إلى الصورة في الأسفل ستلاحظون أن الدماء ..

بالطبع سيضعون صورتها و ستراها كل صديقاتها في المدرسة .. ربما سخرن منها كذلك .. ربما قالوا أنها كانت تستحق ..

إنها تكرههم جميعًا !!

على أية حالة بعد أن يقتلها سيغادر القطار بكل هدوء دون أن يعرف أحد أنه هو نازع الأحشاء الشهير ، و ربما مر بمدرستها ذات يوم .. صحيح أنها لن تكون موجودة لتشهد المذبحة ، لكن الفكرة في حد ذاتها سوف ..

لم لا .. سوف أتركك ..

قالها فجأة ففغرت فمها بذهول ..

تبدين فتاة لطيفة و لست أشعر أنه يجب عليّ أن أقتلك .. فقط عليك أن تعديني أنك ستعودين إلة مقعدك و ستامين حتى تنتهي هذه الرحلة .. ستامين و لن تستيقظين مهما كان السبب .. موافقة ؟

فانفجرت (ميشكا) لترد بحماس :

بالطبع .. سأنام و لن أستيقظ حتى لو انقلب بنا القطار و سأنسى أنني رأيتك و سأتوقف عن السهر متأخرًا و ..

كفى .. كفى .. فقط تذكري .. ربما تركتك أنت و قتلت والديك .. سيدفعان ثمن حماقتك ، و ستعيشين يتيمة دون أن تجدي من يرعاك .. من يحميك مني .. و حينها .. و حين تخلدين إلى فراشك في أحد الليالي ، قد تشعرين بنصلي البارد على عنقك ، قبل أن أرسلك في زيارة سريعة إلة والديك في الجحيم ..

و الآن يمكننا أن نقول أن (ميشكا) ستفقد عقلها في أية لحظة .. الواقع أنه لو قتلها لكان أهون عليها من أن تقضي ما بقي لها من عمر ، تستيقظ كل ليلة على هذا الكابوس ..

لكنه أشار له بيده الحرة :

هيا .. انصرفي ..

فسالت الدموع من عينيها غير مصدقة ، و لم تتحرك ..

هيا قبل أن أغير رأيي ..

فوقفت بصعوبة .. ترنحت للحظة .. ثم تراجعت بظهرها إلى مقعدها ، لتتكوّر فيه على نفسها و لتنخرط في بكاء صامت مرير ..

لقد نجت .. نجت .. نجت .. نجت ..

لكنها ستموت لو لم تدخل دورة المياه الآن !

و لو فعلت سيقتل نازع الأحشاء والديها ، و لو بللت نفسها ستقتلها أمها !!

فقط تتمنى الآن لو مرت هذه الرحلة في سلام .. حينها ستذهب إلى مقر صحيفة (مسرح الجريمة) و ستنتزع أحشاء (ليو باروفسكي) بنفسها ، قبل أن تشعل النيران في كل شيء .. فقط لو تماسكت دون دورة مياه حتى تنتهي الرحلة ..

فقط .. لو .. تمكن ...

يقول (ليو باروفسكي) في عقلها :

و لم تدر (ميشكا) كيف غابت في النوم .. ربما هو الإهتزاز الثابت ، ربما لأن خوفها استهلكها عاطفيًا .. المهم أنها نامت .. و أنها حين استيقظت كانت مفاجأة تنتظرها .. مفاجأة قاسية حقًا ..

و المفاجأة كانت أنها فتحت عينيها لتراه أمامها مباشرة !

معتدل القامة و على درجة من البدانة .. ذو شعر خفيف في مقدمة رأسه يشي بأنه في طريقه للصلع ، و كان يرتدي منظارًا طبيًا ذو إطار ذهبي و هناك ندبة خفيفة في ذقنه .. و كان يضحك مع والدها في استمتاع حقيقي ، بينما أمها

تتابع حديثهما بابتسامة وقورة ، و لم تكد الأم تلاحظ الذعر الذي تبدى في عيني ميشكا كأوضح ما يكون ، حتى قالت :
ها قد استيقظت .. لن تصدقي من انضم إلينا أثناء نومك ..
نازع الأحشاء الشهير .. نعم إنها تعرفه !!
لكن أمها قالت بابتسامة تتسع :
الدكتور (بوريس) .. إنه يعمل في صحيفتك المفضلة تلك التي اسمها .. اسمها ..
مستحيل !!
ألم أقل لك أنها مفاجأة ؟ .. إنها لا تكف عن قراءة صحيفتكم أيها الدكتور ..
على الرغم من اعتراضي أن تقرأها و هي لا زالت في السابعة .. لكن ..
لكن الصوت الذي سيطارد كوابيس (ميشكا) إلى الأبد ، قاطع أمها :
الأطفال لم يعودا كما كانوا في الماضي .. إنهم الآن يعرفون الكثير و الكثير ..
ثم إنه مال على (ميشكا) المرتجفة ، ليردف :
أكثر مما ينغي لهم أن يعرفونه بكثير ..
و هو في هذا محق ... فهي تعرف انه ليس الدكتور (بوريس) .. تعرف أنه أشهر في سفاح في روسيا على الإطلاق .. و تعرف أنه ما دام قد قرر التعرف على والديها فلن تنتهي هذه المعرفة بصداقة أو بزيارات عائلية في المستقبل .. بل ستنتهي بكارثة ..
(ميشكا) .. هل لك أن تذهبي إلى عربة الطعام لتحضري لي زجاجة مياه .. لقد فرغت زجاجتي ..
قالتها الأم فجأة فسادت لحظة من الصمت المباغت ، تبادلت فيها (ميشكا) نظرة ذات مغزى مع الضيف الرهيب ..
نظرة تساءلت فيها (ميشكا) .. هل لي أن أغادر مكاني ؟ فأجابها بنظرة .. نعم ، لكن تذكري أن والديك تحت رحمتي .. فاكتفت (ميشكا) بهذا الرد و جرت قدميها مبتعدة عن الجميع ..
الآن تعود الشجاعة في أعماقها كالعنقاء إذ تبرز من الرماد ...
الآن تتصاعد في رأسها أفكار ، لم يكن عقلها ليجرؤ على طرحها منذ لحظات من معدودة ..
الآن تصل (ميشكا) في أعماقها إلى حقيقة واضحة و صريحة ..

يجب أن أتخلص من السفاح .. يجب ..
لكن .. كيف ؟!

••••••

أن تقتل الدون (باتشيني) ..

اليوم عليّ أن أقتل دون (ريكاردو باتشيني) ..

لست مجبرًا على اليوم ، فالمهلة الممنوحة لي تمتد لثلاث أيام من لحظة استلام المهمة ، لكني اعتدت تنفيذ المهمة يوم تلقيها .. هذا يحافظ على سمعتي كقاتل محترف .. هذا يضمن لي أجرًا أفضل ..

ثم إنني – كقاتل – أعرف أن الموت أرحم بكثير من انتظاره .. زميل مهنة حكى لي كيف أنه أخذ يعد لقتل ذلك الهدف ليومين كاملين ، خطط فيهما لكل تفصيلة ، لينتهي به الأمر و قد انتحر الهدف خوفًا من موته المنتظر !
صدقني .. الهدف دائمًا ما سيختار الموت في اليوم الأول .. و لولا أنني سأبدو مبالغًا لقلت أنني أستحق إكرامية ممن أقتلهم لأنني أفعلها في اليوم الأول ..
لكن ، لا بأس .. الأجر الذي يتقاضاه من هم مثلي كفيل بقتل حاسة الطمع عندنا ..

اليوم عليّ أن أقتل دون (باتشيني) و هي مهمة ليست بالسهلة ، لكنك لا تتقاضى مليوني ليرة لتنفيذ المهمات السهلة ..
فقط ضع في اعتبارك أن دون (باتشيني) هو واحد من زعماء العائلات الخمس التي تحكم إيطاليا ، و أن تحت سلطته يعمل أكثر من ألفي رجل يكفي ثلاثة منهم لإحتلال أي منشأة عسكرية في البلاد ، فالدون يعرف أن أعداءه كثر ، و أن هناك العديد ممن سيرغبون أن يرونه نائمًا مع الأسماك ، و كوني تلقيت هذه المهمة يثبت أنه كان بعيد النظر حقًا ..

و يعني أن مهمتي ستكون خطرة للغاية ..
هنا الخطأ لا يعني هروب الهدف فحسب ، بل سيصل الأمر إلى أن يعلق رأسي على مدخل المدينة و ستوزع باقي أطرافي على زعماء ايطاليا كتذكار لذلك الأحمق الذي حاول اغتيال الدون (باتشيني) ..

و هذا ما يمنح عملي متعته !
نعم ..
أنا رجل أقضي يومي في القتل و هو ليس الخيار الوحيد لمن هم في عمري ، لكني أحب مهنتي و لست أخجل من هذا ..
أنا أحب مهنتي لأنني بارع فيها حقًا ..

الدليل أنه لا أحد يعرف من هويتي على الرغم من أنني نفذت أكثر من ثلاثين مهمة حتى الآن ..
لم يكتشفني أحد ..
لا الشرطة و لا من قتلتهم
و لا حتى من يكلفونني بالمهام ..
لو أردت أنا أعمل لحسابك ذات يوم ، عليك أن تكتب تفاصيل المهمة – شاملة السعر فلا أحب أن آتي في إثرك لو لم يعجبني السعر لاحقًا – و أن ترسل التفاصيل إلى ( ) ..
لو وافقت ستجد رسالة في غرفة نومك – و هو نوع من استعراض القدرات لا أكثر – فيها السعر الذي سأوافق عليه ، حينها ستضع نصف المبلغ في حساب بنكي يتغير بعد كل مهمة ، و النصف الآخر بعد التنفيذ ..
هكذا أكون أكثر أهل الأرض غموضًا ..
قد أكون صديقك .. الرجل الذي تجلس جواره في المقهى .. جارك الذي لا يتحدث كثيرًا .. قد أكون أي شخص ..
فقط حين تتذوق طعم رصاصتي ستعرف من أنا ..
و اليوم ..
سأقتل الدون (باتشيني) و لن يوقفني أحد !

••••••

قواعد القتل بسيطة و واضحة ..
أولاً .. لا تتورط مع الهدف ..
لا تتعرف عليه .. لا تحدثه .. لا تقابله وجهًا لوجه ..
لا تنظر في عينيه حتى ! ..
هكذا يظل الهدف هدفًا ، و إلا أصبح بشريًا بالنسبة لك ، ذو قلب ينبض يستحق الرحمة و أن يستمر في الحياة ..
ثانيًا .. اعرف أنك مهما كنت بارعًا أو ذكيًا و أنه مهما كانت خطتك لتنفيذ المهمة محكمة ، ستكون هناك لحظة يدرك فيها الهدف أنه سيموت حالاً ..
لحظة سيتوقف فيها و كأنما همس الموت باسمه في أذنه .. لحظة لن تدركها حتى تشعر بها ..
لحظة لو تجاوزتها أنت كقاتل ، فاعرف أن مهمتك فشلت و أنه عليك أن تبتعد على الفور ..

ثالثًا .. أفضل وقت للقتل هو بعد تناول الطعام ..
نعم .. نحن الإيطاليون لدينا هوس عجيب بالمطاعم ، و لكل واحد منا مطعمه المفضل الذي لا يقل عنده أهمية عن منزله ، و لو كنت من زعماء المافيا ، فالمطعم بالنسبة لك هو أرضك المقدسة التي تعقد فيها اجتماعاتك و تتخذ فيها قرارتك ..
لرجال الشرطة هنا تعبير شهير و هو أن زعماء المافيا يمزقون إيطاليا بالشوكة و السكين ، و هم في هذا محقون ..
المهم أنه بعد تتناول الضحية وجبتها المفضلة ، تصبح في حالة سلام نفسي من الكون ، و تصبح في أفضل حالة لتلقي الرصاص ..
لهذا يجب على أي قاتل محترف هنا أن يحمل دليلاً للمطاعم في المدينة ، و أهم زبائن كل مطعم ..
بهذا بمكنك أن تختصر الوقت ، و بهذا يمكنك أن تعرف أن الدون (باتشيني) يحب يرتاد مطعم (كاستللو) يوميًا ..
و بهذا يمكنك أن تسترخي على بطنك على سطح المبنى المواجه للمطعم .. في يدك بندقيتك المفضلة ، و من فمك تتدلى سيجارتك الأثيرة ..
بهذا يمكنك أن تنتظر اللحظة التي يخرج فيها الدون (باتشيني) من المطعم ، يحيط به رجاله متأهبين لكل شيء و أي شيء ، إلا لو كانت رصاصة تأتي من السماء ..
بالطبع عليك أن تحتاط في هذه المهنة لبعض الأضرار الطبية ..
فالإنتظار في هذا الوضع لساعات طويلة يؤثر على فقرات العنق ، و يصيب بنوع من الخدر في الأصابع ، مما قد يفقدك لحظتك الذهبية ، لذا عليك بتمارين العنق كل صباح لتصبح أفضل قاتل في إيطاليا !
ثم إن الـ .. لحظة ..
هاهو الدون يخرج من المطعم ..
هاهو بمعطفة الأنيق و القبعة السوداء و ذلك الشارب الكث الأشيب الذي يخفي نصف وجهه ، و النظارة الضخمة التي تخفي الباقي ..
هاهو الآن و جبهته تملأ منظار بندقيتي ، ننتظر سويًا لحظتنا الذهبية ..
اللحظة التي سيهمس فيها الموت باسمه و التي سأرسله أنا إليه ..
اللحظة التي يتوقف فيها عند باب المطعم ، و يرفع وجهه تجاهي كأنما شعر بي
و .. و ..
و أضغط أنا الزناد ..

••••••

بعد أي مهمة أكرر ما أفعله بذات الحذافير ..
أخفي البندقية في أي مكان في السطح على أن أعود لأستردها لاحقًا ، و أنطلق إلى أقرب مقهى لأحتسي فنجانًا من القهوة المركزة ، تاركًا الكل يبحث عني في كل مكان لا أتواجد فيه ..
من الذي سيشك في رجل بسيط مثلي يحتسي القهوة في مكان عام ؟؟
عادة ما يبحث رجال الهدف عني ، ثم تأتي الشرطة لتواصل البحث بحماس أقل ، ثم و حين يأتي المساء يعود كل شيء لطبيعته ، و يغسل أصحاب المطاعم الدماء من أمام أبوابهم ، ليواصلوا عملهم مرة أخرى ..
حينها أعود أنا إلى منزلي لأغتسل و لأنعم بنوم هادىء طويل ، و أستيقظ في اليوم التالي لآخذ ما تبقى من أجري ، تاركًا جيراني يتساءلون ، كيف يظل رجل لطيف مثلي بلا زواج حتى الآن ..
كأنني جننت لأتزوج !
على أية حال أنا لم أحك لك هذا كله لأستعرض لك حياتي المعتادة ، بل لسبب جعل من حياتي هذه رحلة بحث عن سؤال وحيد ..
لقد قتلت الدون (باتشيني) ..
فكيف ظهر إذن في اليوم التالي في مطعم (كاستللو) ؟!

●●●●●●

عرفت أنه على قيد الحياة في اليوم التالي حين لم أجد نصف المبلغ الثاني في حسابي ، بل وجدت رسالة تزعم أنني لم أنفذ المهمة المتفق عليها ، و هي رسالة لم أكد أقرأها حتى عقدت العزم على أن أقتل من كلفني بهذه المهمة ، فأي قاتل محترف يعرف أنه ينبغي أن يحافظ على سمعته ، و أن يقتل الزبائن الذين لا يدفعون باقي الأتعاب ..
لكن الرسالة كانت غريبة بحق ..
لقد اشتممت في سطورها رائحة الغضب ، و الزبون لا يغضب إلا حين لا يحصل على ما طلبه ، لذا قررت أن أتأكد أولاً قبل أن أقتله .. لذا قررت أن أزور مسرح الجريمة ..
هكذا تراني الآن في مطعم (كاستللو) أتناول حسائي بأبطء ما يمكنني منتظرًا شبح الدون (باتشيني) المزعوم .. أما (كاستللو) فأخذ يمارس هوايته في قص ما حدث بالأمس لرواد المطعم :
لقد رأيته يسقط بعيني .. دفع الحساب و خرج من المطعم .. ثم بووووووم ..

و قبل أن يتحرك واحد من رجاله كان يسقط على الأرض و نافورة من الدماء تخرج من رأسه .. حزنت لأنني فقدت زبونًا مستديمًا مثله و ..
رررائع .. لقد مات إذن و ها هم يرددون قصة موته ، فما الذي يزعمه من كلفني بالمهمة إذن ؟؟
ثم يالسخافتي ..
كيف أشك في مصرع رجل قتلته بنفسي و رأيت دماءه تغرق قارعة الطريق بمنظار بندقيتي ؟؟
ثم رأيته اليوم يدخل في موعده المعتاد و يطلب طبقه المفضل كأن شيئًا لم يحدث .. بل إنه لم يحمل حتى أثر جرح على رأسه ..
أعترف لك أنني خفت و كأنني أرى شبحًا ..
!!!!
ما الذي يقوله هذا الأحمق ؟!
لكن في مهنتي هذه لا يهم إن كان شبحًا أم لا .. ما دام يدفع الحساب فهو زبون .. ثم كيف يكون شبحًا و يلتهم كل هذه الكمية من الإسباجتي ؟
.. إنني طباخ ماهر حقًا ، لكن ليس إلى درجة اجتذاب الموتى ..
فيسأل أحد الزبائن :
من الذي مات إذن ؟
هو .. أعني أنه لم يمت .. لست أعرف ..
إنني لا أخرج من هنا كثيرًا لظروف عملي .. المهم الحساب يا سيدي الفاضل .. مادام يدفع الحساب فليأت من الجحيم ذاته .. ثم إنه من السادة الكبار ، و هؤلاء لا يموتون بسهولة ..
لا يموتون بسهولة ؟! ..
رصاصة تخترق رأسه لا تكفي لقتله ؟!
و يقول الزبون :
- إنها تمثيلية إذن .. الرجل تظاهر بموته لسبب ما .. ربما ليبعد أنظار البعض عنه ..
- ربما .. لكن لابد أنه لم يقاوم جودة أطعمتنا ، ليأتي إلينا اليوم هادمًا نظرية قتله هذه .. المهم أنه يأتي و أن درجي يمتليء بالليرات ..
هنا لم أتمالك نفسي ، لأقول :
هل سمعت صوته ؟ .. أعني .. أهو ذات الصوت الذي اعتدت سماعه ؟
ففكر (كاستللو) للحظة قبل أن يجيب :
لا أعرف .. الدون (باتشيني) لا يتحدث إلا نادرًا و بصوت خفيض للغاية ..

أنت تعرف هؤلاء القوم ، يبالغون في الهدوء ليزيدوا من تأثيرهم عليك حين يهددونك ..
لكنك واثق أنه هو ..
تمامًا كما أثق في جودة مأكولاتي ..
عظيم .. إذن الدون (باتشيني) لم يمت بمعجزة ما ..
مادام يأكل الاسباجتي و يدفع الحساب ، فهو لم يمت ..
ربما لأن جمجمته أقوى من اللازم و ربما لأنني لم أصبه جيدًا بل خدشه فحسب و ربما لأن (باتشيني) باع روحه للشيطان ليضمن له الخلود ..
لا فارق ..
المهم الآن أنه عليّ أن أقتل الدون (باتشيني) ..
مرة أخرى !

••••••

لتقتل رجلاً للمرة الثانية عليك أن تكون في قمة الحذر ، فهذه المرة لن يكون عنصر المفاجأ في صالحك .. الرجل يعرف أن هناك من يسعى لإغتياله و سيحتاط هذه المرة جيدًا ، مما سيزيد في صعوبة تنفيذ المهمة ..
و بالطبع لست بالحماقة الكافية لأنفذ المهمة في ذات المكان ، و هذا يعني أنني أحتاج لمعلومات أكثر عن الدون (باتشيني) لأقرر أين سأقتله هذه المرة ..
الواقع أنني بدأت أكره هذا الرجل حقًا ..
صحيح أن هذا ضد قاعدة ألا أتورط في أي شعور عاطفي تجاه هدفي سواء كان حبًا أو كرهًا ، لكنني بدأت أكره الدون (باتشيني) ..
الرجل – و ببساطة – يمثل أول فشل في تاريخي المهني ..
أملي الوحيد لإستعادة مجدي ، هو أن أقتله بطريقة مبتكرة ..
طريقة تليق به ..
طريقة صاخبة علنية ليحكي عنها سكان المدينة لأشهر بعد ذلك ..
نعم .. سأفجره !

••••••

في ايطاليا لدينا عادة تلغيم السيارات قديمة قدم الدهر ، حتى أن أي صاحب

سيارة اعتاد أن يفحص سيارته جيدًا قبل أن يركبها ،عملاً بالقول المأثور (افحصها قبل أن يفحصوا أشلاءك) ..
البعض يضع القنبلة أسفل المحرك و ينتظر اقتراب الهدف و في يده مفجر ..
البعض الآخر يضعها في المحرك بحيث لا تنفجر إلا مع إدارته .. و المجددين يضعونها الآن أسفل المقعد بحيث تنفجر بعد خمس دقائق من ركوب السيارة ..
أنا الوحيد الذي يستخدم أسلوب القنبلة مع أنبوب العادم .. بهذا يركب الهدف سيارته و ينطلق بها لفترة ، و حين يسخن أنبوب العادم إلى الحد الكافي ..
برررروووووووووم ... و تتطاير الأشلاء في كل اتجاه ..
بالطبع لن أضيع وقتي و وقتك في كيف تسللت إلى جراج سيارات الدون (باتشيني) ، و كيف عرفت السيارة التي سيركبها في اليوم التالي – لقد اعتاد أن يستخدم معطر السيارة قبلها بليلة – و لا كيف تمكنت من زرع قنبلتي و الخروج دون أن يشعر بي أحد ..
المهم أنني فعلتها و أنني سأنتظر حتى يأتي الغد ، ليتحول الدون (باتشيني) إلى أشلاء ..
المهم أن يكفي هذا لقتله هذه المرة ..

●●●●●●

في اليوم التالي استيقظت و قد عقدت العزم على قضاء اليوم في منزلي ،
فليس من الحكمة أن أظهر يوم الإنفجار العظيم .. مهما كانت أهمية المهمة أو الهدف ، فلا شيء يفوق أهمية هويتي و سريتها ..
لو سار كل شيء على ما يرام سيتم الإنفجار و الدون (باتشيني) لا يزال داخل المدينة ، و بالتالي سأعرف عن طريق نشرة الأخبار إن كنت سأحصل على باقي مستحقاتي أم لا ..
هكذا تركت التلفاز مفتوحًا على أعلى صوت ، و أخذت أضيع الوقت في مطالعة الصحف و المجلات ، ثم بدأت في تنظيف بندقيتي المفضلة ، و بعدها انهمكت في عمل غداء أعرف يقنيا أنني لن أذوق لقمة منه حتى يأتيني الخبر اليقين ..
و بعد خمس ساعات كاملة ، ارتفع صوت مذيعة الأخبار ليقول :
– و لقد اهتزت المدينة اليوم حين انفجرت سيارة ملغومة قرب (...) مما أدى إلى مصرع ركابها و عدد من الـ ..
و مع كلماتها بدأوا يعرضون تسجيلاً لمنطقة الحادث ، فجلست على ركبتي أمام التلفاز بحثًا عن هدفي وسط الأشلاء ..

– و لقد صرح مصدر مسؤول أن هذه العملية هي امتداد لـ ..
هاهو !!
صحيح أنه تحول إلى أشلاء ، لكن بقايا معطفه الطويل واضحة ، و لو أمكنني إيقاف الصورة و تكبيرها لأريتكم شاربه الضخم الذي تفحم تمامًا ..
إنه هو .. هو ..
الدون (باتشيني) ..
لقد قتلته .. قتلته و لن يمكنه العودة هذه المرة ..
أبدًا ..

••••••

بالطبع أنت تعرف .. نعم .. إنه لم يمت !
لا تسألني كيف ففي هذه المرحلة لم تعد لدي حتى القدرة على التفكير في كيف .. كل ما يمكنني استيعابه – بمشقة بالغة – أنه لا يزال حيًا ..
هذه المرة عرفت حين رأيته ذات ليلة مصرعه في سيارته الملغومة .. كنت قد تركت منزلي لأبتاع آغلى زجاجة شراب في الأسواق لأحتفل بنجاحي ، حين رأيته يجتاز الشارع المقابل و من حوله رجاله كالمعتاد ، قبل أن يختفوا جميعًا داخل أحد المتاجر ..
أشباح ؟ .. كنت أتمنى هذا و كنت سأحتمله .. لكنهم دخلوا إلى المتجر ليقتلوا كل من في داخله بمدافعهم الرشاشة قبل أن يهربوا بسرعة في سيارتين كانتا في انتظارهم ..
أما أنا فلقد تجمدت في مكاني ذاهلاً طيلة الوقت ، حتى أنني لم أتمكن حتى أن أتوارى بعيدًا عن الرصاص الذي تناثر في كل اتجاه ..
إذن هم ليسوا أشباحًا .. الدون (باتشيني) على الأقل ليس شبحًا فلقد رأيت رذاذ الدماء على وجهه حين خرج من المتجر مسرعًا ، و قبل أن يختفي مع رجاله في الأفق ..
إنه .. فقط .. لم .. يمت ..
كيف ؟؟؟؟؟!!!!
رصاصة في رأسه لم تقتله .. و سيارته انفجرت لتمزقه تمزيقًا و لم يمت ..
كيف ؟!!
ما الذي يلزمني لأقتل هذا الوغد ؟؟
ما الذي يلزمني ؟؟

••••••

العباقرة منكم فهموا ما أنتويه و يبتسمون الآن في خبث ..
نعم ..
سأفعلها .. و سأفعلها الليلة ..

••••••

يعيش الدون (باتشيني) في قصر مليء بالثغرات ..
الرجل من زعماء المافيا الخمس و يعمل أكثر من ألفي رجل تحت إمرته ، لكنهم يهتمون بأقمشة البذل التي يرتدونها أكثر من أن يهتموا بأبسط قواعد الأمن و الحراسة ..
خذ عندك ..
البوابة الأمامية لا يقف عندها سوى ثلاث رجال يحافظون على مسافات ضيقة بينهم ليشكلوا سويًا هدفًا واحدًا يسهل إزالته بضربة واحدة .. و البوابة الخلفية يقف أمامها حارس واحد مسلح بمسدس ذو ست رصاصات فقط ، بل و مزود بكاتم للصوت أيضًا ..
حتى صوت الرصاصات لم يتركوه له ليجتذبهم لو حدث شيء ما !
عدد نوافذ القصر أكثر من عدد أبواب مترو الأنفاق و الأجمل من هذا كله الحديقة العظيمة التي تحيط بالقصر و القادرة على إخفاء جيش طروادة ..
بعد هذا كله تودّ أن تعرف كيف تسللت إلى غرفة نوم الدون (باتشيني) ؟؟ ..
أعتقد أنك مثلي لا تحب إضاعة الوقت في التفاهات ..
أعتقد أنك تريد أن تعرف ما الذي أفعله في غرفة نومه ..
لماذا أقف أمام فراشه و سكين ضخم في يدي يلتمع نصله على ضوء القمر ..
لماذا أرتجف غضبًا و كراهية و أنا أقترب منه بشاربه الأشيب الكث و منامته الحريرية ..
لماذا فتح عينيه ؟!!
فجأة فتح الدون عينيه و نظر لي نظرة ثابتة انتفضت لها ، و قد أردكت أن كارثة قد حدثت ..
لقد أضعت الثانية التي يجب عليّ فيها قتل الهدف ..
و لقد مرت هذه الثانية لذا ..
إليّ يا رجاااااااااااااااااااااال ...
صرخ بها الدون فتحركت مئات السيقان في كل مكان ، و انفعت أنا لأخرس صرخته بأن غرست سكيني حتى مقبضه في قلب الدون ..

هذه المرة قتلته ..
هذه المرة قتلته ..
هذه المرة شعرت بقلبه يتوقف عن النبض
و شعرت بدفء دماءه على يدي ..
هذه المرة – بالتأكيد لا محالة – قتلته !
و الآن حان وقت الهرب .. إن كان هذا ممكنًا ..

••••••

يمتليء قصر الدون (باتشيني) بالثغرات ، لكن دخوله ليس كخروجه و مئات الرجال يطاردونك بمسدساتهم ..
لذا اسمح لي أن أعتبر نفسي محظوظًا ، لأنني أجلس الآن في ردهة منزلي أتصبب عرقًا و أحتسي الشراب .. برغم كل ما حدث لازلت أعتبر نفسي محظوظًا ..
لم أغسل يدي بعد من دماء الدون و لا أعتقد أنني سأفعل ..
إنها دليلي أنه مات .. أنني قتلته ..
أنني نجحت ..
المشكلة الآن أنني أتنفس بعسر .. و على الرغم من كل الشراب الذي أحتسيه ، لا يزال جسدي يرتجف عرقًا من كثرة الدماء التي تنزف من جرح الرصاصة التي اخترقت جانب صدري !
أخبرتك أن الهرب لم يكن بسهولة الدخول ، و أنني أخطأت لأنني اقتربت من الهدف أكثر من اللازم ، لكن لا يهم .. حقًا لم أعد أهتم .. حتى لو مت الآن فيكفيني أنني قتلت الدون (باتـ ...
إذن فهذا هو منزلك ..
يقولها بصوت خفيض مثلج ، فألتفت إليه ببطء
و قد بدأ وعيي يغيب عني تدريجيًا ..
كنت أظن أن منزل أفضل قاتل في ايطاليا سيكون أفضل من هذا كثيرًا ..
إنها مشكلة الرجل الذي يعيش وحده دون أن ترعى منزله امرأة و ..
من هذا الشخص ؟!
أجاهد لأتخلص من تأثير الشراب و الدماء التي أفقدها بسخاء ، لأرى ملامح محدثي الذي اقتحم منزلي دون أن أشعر ...
القامة المعتدلة و الشارب الكث و النظارة التي تخفي باقي الوجه ..

الدون (ريكاردو باتشيني) !!
أتسمح لي بالجلوس ؟
و هو من نوعية الأسئلة التي لا تعني إجابتها شيء ، فلقد جلس بالفعل ..
أما أنا فلم أتمالك نفسي من الضحك الذي تحول إلى سعال لأشعر بطعم الدماء في فمي ..
إنه حي .. حي .. حي .. حي .. حي ...
أنت ..
أنت الشيطان ..
أليس كذلك ؟
أسأله فيجيبني هو بهدوء و بصوت يأتي من بعيد :
لا ..
الأمر ببساطة أنني كنت أعرف أن هنام من سيحاول قتلي ..
كنت أعرف هذا لكني لم أعرف من ..
لذا استأجرت عددًا من الأشخاص ليتنكروا في هيئتي و ليتحركوا في البلاد نيابة عني ، لأتتبع أنا قاتلهم ..
هذا هو الموضوع بكل بساطة ..
بساطة ؟!! ..
بكل بساطة !!
كيف ..
لم ..
سوف ..
أسقط على ركبتي و وعيي يبتعد عني أكثر و أكثر عالمًا أنه لن يعود لي مجددًا ،
بينما يواصل الدون (باتشيني) :
لم أتوقع أن يأخذك الحماس و تحاول قتلي في منزلي ..
لكنك فعلت و قتلت شبيهي ..
هكذا تمكن رجالي من إصابتك و تبعك إلى هنا ..
و الآن لا أخفي عليك أنني محبط ..
فأهمس أنا و قد فقدت قدرتي على الرؤية :
محبط ؟
نعم ..
لم أتوقع أن يستأجروا ساذجًا مثلك ليتخلصوا مني ..
و لا أرى مسدسه ، لكنني أسمع صوته حين يجذب الزناد ، قبل أن يقول :

- لكي تقتل الدون (باتشيني) ..
عليك أن تكون أفضل من هذا بكثير ..
و لم أسمع حتى صوت الرصاص ..
فقط غاب عني وعيي ..
و لم يعد !

حين يأتي الموت

« متى تظنه سيأتي ؟؟ »
قالها الأول ، فارتجف الثلاثة ، رغماً عنهم ..
و أجاب الثاني بصبر نافذ :
سيأتي حين يأتي... لا داع لإضاعة الوقت المتبقي، في عذاب الانتظار... كفانا عذاب النهاية...
أما الثالث ، فكوّر جسده البدين ، في أحد الأركان ، كأنما يصنع لنفسه شرنقة من الدهون المحيطة به ، و أخذ يبكي ..!
بكاء مر غزير ، أصاب الرابع بالغيظ ، إذ شاهد كتلة الشحم هذه تبكي ، فزمجر :
- أهذا وقت البكاء ؟!
جاءه الرد بطعم الدموع ، مالحاً :
- ألا أملك حتى لحظاتي الأخيرة، لأفعل بها ما أشاء؟!!
ثم غلفهم الصمت و النحيب ، فجلس الأول يفكر ..
ماذا تفعل في لحظاتك الأخيرة ؟؟!!
تصلي ؟؟..تبكي ؟؟..تفكر ؟؟..ترقص ؟!..تقتل ؟!!
هيا فكّر.. فالخيارات محدودة ، و اللحظات معدودة ..
اعتصر ذهنه فلم يجد شيئاً .. لا شيء على الإطلاق ..
فراغ قاتل أكثر من الموت ذاته ..
متى ينتهي هذا كله ؟؟!
ربما بعد لحظات ...
ربما بعد ساعات ..ربما بعد أيام ...
لا فارق ، إنهم هنا منذ شهرين و لم يتغير شيء بعد ..
ذات الغرفة الضيقة ، عارية الجدران ، بلا أثاث أو إضاءة أو مخرج ..
فقط منفذ صغير للتهوية ، أعلى السقف ، من حيث ألقوا به ، و ثلاث أرواح تتعذب مع روحه طيلة شهرين ، سابحين في ظلام أشد قتامة من ظلام القبر ، و سؤال واحد يدور في العقول و القلوب ..
متى يأتي الموت ؟!!
كان يعرف أن السؤال الأحق - في حالتهم هذه - هو (كيف يأتي الموت ؟) لكن أحدهم لم يجرؤ على التلفظ بالسؤال ..
سيأتي الموت بأبشع صوره ..
هم يدركون هذا حق الإدراك ، فلا داع للمزيد من الفزع ..
كانت عيونهم قد اعتادت الرؤية في الظلام كالوطاويط ، فأخذ يتسلى بمراقبة

ردود أفعالهم ..
الثاني كان نحيلاً إلى حد الهزال ..إلى حد بروز عظام جمجمته ، المغطاة بالشعر ، و قد امتزج شعره الطويل ، بذقنه الثائرة ، فبدا أشبه بالمذؤوبين ... و وسط غابة الشعر هذه ومضت عيناه ، كمصباحين يبثان الفزع في كل مكان .. بإمكانك أن تلحظ علامات المرض ، في أنياب الرجل النامية ، و العروق البارزة في وجهه ، و ذلك الانتفاخ الطفيف في عنقه ... المرحلة الخامسة من المرض .. حين يبلغون المرحلة السادسة ، سيبدأ المرح .. بل قل سيبدأ الهول !
فيروس العصر ..
لا ..
لم يمنحه العلماء اسماً ..
فلم يتبق من العلماء أحد على قيد الحياة ليمنحه اسماً متحذلقاً ينتهي بمقطع لاتيني ، كأنه ينقصه رهبة الإسم ..
لم يعرف عن الرجل الثاني شيئاً ، و لم يهتم ليعرف ..
الثالث كان بديناً أكثر من أن يسمح لعلامات المرض بالظهور عليه .. إنه يملك من الشحم ما يكفي لإخفاء ملامحه ذاتها !!..
هذه الكتلة من الشحم كانت تعمل يوماً كمدرس لعلم الذرات ، لكن حين أصابه المرض ، تحول إلى رقم في سجل ضحايا الفيروس ، ليلقوا به في هذه الغرفة حتى ينتهي أمره ، بعد هذا سيحرقوا الجثث ، و يلقوا بضحايا جدد في ذات الغرفة ..
هو الآن يستند براحته على جمجمة محترقة ، دون أن يبالي بهذا ..
لقد كان هذا الرجل محامياً ، أو طبيباً ، أو مهندساً ... و ربما كان متزوجاً ، تنتظره زوجته في نهاية كل يوم ، بعد عودته من العمل ، و ربما و قفت إلى جوارها طفلة صغيرة جميلة تناديه « بابا » ...
لا بد أن هذه الطفلة الصغيرة الجميلة ، تنتظره الآن ، دون أن تعرف أنه يستند على جمجمة أبيها المحترقة تحت الأرض !!
بابا لن يعود يا حلوتي ..
لن يعود .. إنه رقم (657658) من ضحايا الفيروس ..اضطررنا لحرقه كوسيلة فعّالة للقضاء على المرض .. فعلنا هذا من أجلك يا صغيرتي !!
الرابع كان أكثر الثلاثة إمتاعا في مراقبته ..
لقد كان يعرف هذا الرجل ، حين كانوا على أرض الواقع ... كان ثرياً ذلك الثراء الفاحش الكفيل برفعه من مرتبة البشر إلى أنصاف الآلهة ..
حين أصابه الفيروس ، أصابه ذهول غاضب ، كأنما نسى حقيقة كونه بشرياً ،

يصاب بالأمراض كسائر البشر ..
و حين أخذوه من قصره المنيف ، ليلقوا به في هذه الغرفة ، أخذ يصرخ ، و يهدد ،و يركل ، و يقاوم ، ثم .. ثم ..
ثم ها هو الآن يختبر بضعة مشاعر آدمية ما كان يظن بوجودها ..
الجوع .. البرد .. الخوف .. الموت !!
كانت تنتابه نوبات من الضحك ، فتتردد ضحكاته الوحشية ، في ظلام الغرفة ، كطرقات الموت في آذانهم ... علام كان يضحك ؟؟
لا أحد يدري !!
هو .. هو لا يملك الكثير عن نفسه ...
مجرد (هو) آخر يعيش دون أن يضيف لنفسه ، أو للحياة شيئاً ... مجرد ترس صغير في الآلة الكبيرة كما يقولون ..
و هنا .. في هذه الغرفة تحت الأرض ، تبدو كلمات ك (الأحلام) و (الطموح) و (النجاح) و (الإنسان) ، كلمات رخيصة لا معنى لها و لا مذاق ..
و حين يأتي الموت ، ستحترق هذه الكلمات مع جثثهم لتختفي من الوجود ..هل يصنع ماضيه فرقاً ؟؟ هل تشكل خطاياه ذنباً؟؟ هل يقيم أحد لحياته وزناً ؟؟!
ربما كان الموت ما يناسبه حقاً ..
إنه يذكر التاريخ ...
يذكر التوترات .. المفاوضات .. الحروب .. السلام المؤقت ، و الوعود بغد مشرق مليء بالآمال ، حتى ظهر ذلك الفيروس ليبدد كل شيء ..
تساءل مرة ، ترى .. كيف هي الحياة على سطح الأرض الآن ؟؟
كم بلغ عدد الأحياء ، و كم بلغ عدد الضحايا ؟؟
هل تبقى أحياء على سطح الأرض ؟؟ ..
هل وجدوا علاجاً للفيروس ؟؟ .. هل يخرجونهم من هنا يوماً ليمنحوهم بضعة حقن تشفيهم ، و اعتذار على تخليهم عنهم طيلة تلك الفترة ؟؟
هل يفعلوها قبل أن يبلغوا المرحلة السادسة ؟؟!
هل يرى الأرض مرة أخيرة قبل موته ؟؟ .. لقد فقد الأمل في هذا منذ زمن طويل ..
و فجأة صرخ الثاني :
- إنني أسمع الأصوات!
قالها فساد ذعر عجيب في النفوس ... لقد بلغ الرجل المرحلة السادسة ..
عاد الثاني يصرخ :
- الأصواااات ... إنها تصرخ في أذني ... لست أقدر على

الإحتماااال..
أول علامات المرحلة هي الأصوات التي يسمعها المصاب بالفيروس ، بعد ذلك يدخل في مرحلة الغيبوبة التي ستستمر لساعات .. بعدها يستيقظ المسخ !!
سيتحول المصاب إلى مسخ متعطش للدماء لا يوقفه سوى الموت !!
و في هذه الحالة لا يعني انتقال الرجل إلى المرحلة السادسة إلا شيء واحد ..
كان الثاني يتلوى ، معتصرا أذنيه براحتيه ، و قد برزت عروقه أكثر و أكثر ، كأنها على وشك الانفجار ، فلم يتحرك هو من مكانه .. فقط تبادل نظرة عميقة مع الثالث الذي ارتج شحمه و الرابع الذي بدا عليه الامتعاض ..
إنهم يعرفون ما عليهم فعله جيداً .. ناقشوه مرة واحدة و كانت تكفي ..فقط حين يدخل الثاني في مرحلة الغيبوبة ..
السؤال هو من سيفعلها هذه المرة ؟؟! ..لنترك هذا في حينه ..
ارتفعت صرخات الثاني تحمل عذابات الدنيا كلها ، كأنه يحاول التغطية على صوت الصراخ في أذنه ، ثم بدأ في ضرب رأسه في الجدار بلا هوادة ، لتتفجر دماءه ..

- الأصواااات ... أوقفوا هذه الأصواااات!!

لكن أحدهم لم يحرك ساكناً ... لا توجد وسيلة للمساعدة .. و حين يأتي دورهم ، لن يساعدهم أحد أيضاً ..
هكذا تدور الدائرة التي ستنتهي بجثثهم المحترقة ، يستند على بقاياها ضحايا جدد ينتظرون دورهم ..
ألا يبدو الموقف ساخراً بصورة أو بأخرى ؟؟!
حقاً ؟؟!!
إن الرجل الذي يتلوى أمامهم الآن سيغدو وجبتهم المثالية بعد جوع طويل .. طويل !!
إن ما يشاهدوه الآن لا يعدو عن كونه وجبة تنضج .. تماماً كما ترمق أنت دجاجة في الميكروويف ، و هي تنضج .. يسيل الزبد منها لتنتهي بين أسنانك و عظامها في سلة المهملات .. الفارق طفيف للغاية !
سيأكلونه قبل أن يستيقظ هو من غيبوبته ليفترسهم جميعاً ..
الآن يسقط الثاني بلا حراك معلناً دخوله في مرحلة الغيبوبة ...
الآن تحمل النظرات التي يتبادلونها معان أكثر من اللازم ..
و الآن يدوي السؤال صارخاً ، في الأعين وفي أنفاسهم التي تتردد في صدورهم ، في إيقاع مطرد ..
من سيفعلها ؟؟!

حسناً ... إننا الآن في مسابقة (اقتلوا هذا الرجل !) و نحتاج متطوعاً ، فمن الشجاع الذي سيتقدم ؟؟

أطرق هو ، كأنما يعلن انسحابه ، فسدد الرابع عينين ثاقبتين إلى الثالث ، أذابت الشحم في جسده ، و جعلته يهتف منتفضاً :

- لا ... لن أفعلها .. لن أستطيع ..
- ما عليك سوى أن تجلس على وجهه ، و ستقتله بوزنك ..
- لا ..
- فكّر في الأمر ... ستمنحه موتاً نظيفاً و سريعاً ..
- لا ...لا ... لا ... افعلها أنت ..

التفت الرابع إليه هو ، و برقت عيناه بوميض غريب ، و هو يقول :

- و ماذا عنك ؟؟!

هزّ رأسه نفياً ، محافظاً على صمته ، كأنما ينتمي إلى مكان آخر ، و جاء إلى هنا لمجرد المشاهدة ، فهب الرابع واقفاً ، وهو يقول :

- أوغاد جبناء ..

كاد يجيبه أن (أوغاد جبناء) أفضل من (أوغاد قتلة) ، لكنه فضّل أن يلوذ بالصمت .. سنرى مقدار حماس هذا الرجل حين يأتي الدور عليه !

تحرك الرابع ببطء واثق ، كأنما يستمد ثقته من إيمان عميق بأحقية ما سيفعله ... كأنما هو رسول الموت ذاته ، و قد جاء لينفذ مهمة حتمية ، اعتاد تحمل عبئها ... انحنى على الثاني دون وجل ، و طوّق عنقه بقبضتيه ، و بدأ يعتصر الحياة منه ..

مرت الدقائق كدهر لا ينتهي ... أطول ست دقائق مرت عليهم في هذه الغرفة المظلمة ... بعدها استلقى الرابع جوار جثة الثاني منهكاً ، ليقول باقتضاب :

- أعتقد أن هذا يفي بالغرض ..

لم يجب هو ، و اكتفى الثالث بدموع صامتة أبلغ من أية كلمات ... لقد مات أولهم ، و بدأت العجلة تدور ..

- سنحتاج لأداة حادة لتقسيم جثته ..

قالها الرابع بلا اهتمام ، كأنه يتحدث عن قطعة لحم مشوية ، فقلب هو شفتيه ممتعضاً ، و قال :

- ألن تنتظر حتى يفقد دماءه ؟
- دماءه قد تخفف قليلاً من العطش ..
- إذن فلقد تحولنا نحن إلى ما كان سيتحول إليه ، لو تركناه حياً ..
- لا بأس من استباق الأمور ... هيا ساعدني في تقسيم الجثة ..

- أتنازل لك عن نصيبي ... لا رغبة لي في جسده ..
منحه الرابع نظرة مخيفة ، حتى بدا و كأنه سيتحمل عبء رسول الموت مجدداً معه ، لكنه تجاهله ، ليقول للثالث :
- و ماذا عنك .. هل ستلتهم دموعك السخيفة هذه ؟؟
سالت الدموع على شفتي الثالث مدراراً ، و قال :
- سأنضم لك ..
ثم وجه حديثه للأول ، مبرراً :
- لن أتمكن من تحمل جوعي أكثر من هذا ..
أشاح هو بوجهه عنهما و قلبه يخفق كطبول الحرب ...
إلى هذه الدرجة ؟؟!!
إنسان يتحول لوليمة غداء يقيمها مسخان من مسوخ البشرية ؟؟
لكن لا ...
ليس هما المسخان ...
بل المسوخ هم من ألقوا بهم هنا ، محتمين براية البقاء للأصلح ...
لا لتهديد الأمن القومي ... لنقتل بضعة ملايين ..
لا للخضوع لأي قوة ... لنقتل بضعة ملايين ..
لا لكل من يقف في طريق عجلة التقدم .. ستسحقه العجلة كحشرة .. لذا ..
لنقتل بضعة ملايين ..!
و لا صوت يعلو فوق صوت المعركة !!
الفرد في سبيل المجموع و لو كان هذا الفرد هو أنت !!
تناول الرابع أحد العظام الملقاة من حوله ، و كسرها على ركبته - عليه اللعنة !
- و أمسك بطرفها المدبب كأداة مثالية لتقطيع جثة آدمي ، مردداً :
- لسوء الحظ أنه هزيل .. لكن لا بأس .. سيفي بالغرض مؤقتاً ..
و في سره دعا هو أن يكون آخرهم ، كيلا يلقى مصير الثاني ..الثاني الذي تحرك بغتة !!!
تحرك كمارد الغضب لا يبقي و لا يلوي على شيء ... الرجل كان مخيفاً و هو طبيعي ، فما بالكم و قد بلغ آخر مراحل المرض ... فريسة منحت القوة للانتقام من الصيادين ...
صرخ الرابع هلعاً ، و صرخ هو مبهوتاً ، و اختنقت الصرخة في حلق الثالث و أصابع الثاني التي امتدت بغته تعتصر عنقه بوحشية .. و البادي أظلم !!
في آخر مراحل المرض لا يفقد المرء ذاكرته لينقلب إلى مسخ متعطش للدماء ...
بل يفقد كل ماكان يمنعه عن التحول إلى مسخ مسبقاً ... تتهشم قشرة الحضارة

من حوله أخيراً ، ليولد الإنسان الحقيقي لأول مرة ..
و آخر مرة !!
لماذا لم يتحرك هو ؟؟؟! الواقع أنه سؤال سأله لنفسه مراراً ؟ تكراراً فيما بعد ..
لكنه – أبداً – لم يحظ بجواب ..
ربما لأنه سئم الحياة فجلس ينتظر الموت ممثلاً في الثاني ، بلا وجل ..
ربما خشي على حياته من مواجهة الثاني لإنقاذ الثالث ...
ربما هي لحظة السعادة الشريرة التي وصفها ديستوفسكي ، و التي تمر بأي شخص حين يرى كارثة تصيب غيره ينما هو في مأمن – مؤقت – عنها ..
ربما ... ربما ... ربما ...
المهم أنه لم يتحرك قط .. لم يحاول حتى ... حتى حين بدأ الثاني في تمزيق جثة الثالث ، لتتناثر دماءه على وجهه ..
كان مبهوتاً بحقيقة الإنسان .. و حقيقة الموت ..!
لكن الرابع تحرك بأسرع مما يتوقع ، و التقط عظمة فخذ ضخمة ، و هوى بها على رأس الثاني ، فارتفع صوت عظام تتهشم .. و سكن المشهد على جثة الثاني تقبض على جثة الثالث ، يسبحان في دمائهما ، و أمامهما الرابع يلهث كثور ..
– هيا .. يجب أن تخرج من هنا ..
قالها الرابع ، ففغر فمه ذاهلاً :
– ماذا ؟؟؟!!
– قلت لك هيا .. لن يمض وقت طويل حتى يستيقظا ..
– لكن .. لكن لماذا ؟؟؟!!
– هذه مرتي الأخيرة لأكون صاحب الكلمة النهائية .. و كلمتي النهائية هي أنك ستنجو ..
– كيف ؟!
– ستصعد على الجثث حتى تبلغ فتحة التهوية .. و من هناك إلى الخارج .. إلى السطح ، بما كان حظك في الأعلى أفضل من هنا .. هيا ..
– ماذا عنك ؟؟
– أنا لهما .. عرفت هذا منذ اللحظة الأولى لي هنا ..
تبادلا لحظة صمت التقت فيها عيونهما ، و تلامست أرواحهما لحظة لم ينسها هو قط .. ثم بدءا في تكوين سلم من الجثث الآدمية ... و حين وقف أخيراً على قمة الجثث ، قال :
– تعال معي ..
– لا مكان لي في الأعلى ... هيا اذهب ..

هز هو رأسه متفهماً ، ثم مد أصابعه ليقبض على منفذ التهوية ، و لدهشته استجاب له دون مجهود !!

استنفر عضلاته برجاء ليزج بجسده إلى الأعلى ، فأنت عضلاته ، ثم بدأ جسده يرتفع ببطء ..

و من الأسفل هتف الرابع بتوتر :

- أسرع لقد بدءا في الاستيقاظ ..

استند بمرفقه على الأرض ، ثم دفع جسد إلى الأعلى بحركة سريعة ، ليجد نفسه - أخيراً - خارج الغرفة ..

الآن هو في غرفة ذات باب و نافذة يطل منها القمر صارماً ، و نسمات من الهواء تتخلل المكان من حوله ، لتجد طريقها إلى صدره ..

هل دمعت عيناك يوماً ، لأن غرفتك بها باب و نافذة ؟؟! .. هو دمعت عيناه بعدم التصديق ..!

أتاه صوت الرابع :

- هيه ... ستجد ذراع في الجدار المواجه لك .. حركه لوضع التشغيل ..

- ما الذي سأشغله بالضبط ؟؟

- ستحرق الغرفة و تقذني منهما ..

- مستحيل ..

صرخ بها و جسده ينتفض هلعاً ، فأتاه صوت الرابع صارماً :

- افعلها قبل أن يبدءا في التهامي حياً ..

- بإمكانك أن تخرج هيا ... اصعد على جثثهم و سأمد لك ذراعي ..

- لا فائدة من هذا .. لقد استيقظا بالفعل ..هيا أسرع .. لا أريد أن أموت هكذا ..

- لكن سـ ..

- هيا بالله عليك ... هذا هو أول و آخر شيء أطلبه منك ..

كاد يهتف بشيء ما ، لكن تلك الزمجرة المخيفة أذابت الكلمات في فمه ، ممزوجة بطعم الخوف ..

و ارتفع صراخ الرابع متوسلاً :

- حرّك الذراع .. أرجووووك ..

قالها ثم تصاعد دوي هائل ، امتزج فيه صراخه ، بصرخات الثاني و الثالث الوحشية ، كأنه قفص أسود ألقي فيه بحمل مسكين ...

و حين تصاعدت الدماء من منفذ التهوية ، لتبلل قدمه ، لم يشعر بنفسه إلا و هو يقفز على ذدراع التشغيل ، ليحركها إلى وضع التشغيل ...

للحظة لم يحدث شيء ... ثم بدأ الهول يحدث أسفل قدميه و ألسنة اللهب تتلوى مع صراخ الجميع في الأسفل .. و أسفل قدميه ارتفعت حرارة الأرض كالجحيم ، فقفز ليعدو مبتعداً ، و دموع المرارة تزيد الظلام من حوله عتمة .. ممرات ... غرف ... درج ... ممرات ... ابتعد كل هذا لكن الصرخات لم تفارقه ...

كان يبحث عن السطح .. سطح الأرض الذي حلم به ليال طويلة ...

لم ينتبه أن المكان كان خاوياً تماماً ... بل مهجورًا لم تطأه قدم منذ زمن ..

لم ينتبه أن الظلام من حوله يحمل رائحة عجيبة ، لم تعرفها أنف بشري من قبل ..

لم ينتبه حين بلغ السطح أخيراً ، أن ثمة شيء ما تغير في حدود الماديات من حوله ..

كل ما كان يريده حينها هو أن يبتعد عن الصرخات التي تجثم على روحه ..

و حين فقد وعيه ... لم يعرف أن هذه الصرخات ستصاحبه ما بقى حياً ..

أنها لن تتركه طيلة رحلته الطويلة ... قط ..

اسمي (113)

اليوم الأول ..

هذا القبر بارد .. بارد و مظلم ..
لا تزال جراحي تنزف على المعدن البارد ، لكني لا أشعر بالألم على الإطلاق .. ربما لأن المعدن البارد يلاصق جسدي العاري ، أو ربما لأنني مذهول أكثر من قدرتي على الألم ..
لماذا أتوا بي هنا ؟!
إن ما أذكره أنني ذهبت لأصلي الفجر في المسجد المجاور لمنزلي ، لكنني حين خرجت من المسجد شعرت بمن يضع ذلك الكيس القماشي الأسود على رأسي ، بينما ثان يكبّل حركتي بقوة لا تجدي معها مقاومة، و ثالث يحملني حملاً ليلقي بي في البوكس ، لأسقط على آخرين مكبلين يصرخون صرخات مكتومة ..
ثم سقط أخرون فوقي ..
حدث هذا في لحظة فلم أشعر إلا و بالبوكس و قد تحرك ، بينما صرخاتي المكتومة تمتزج بصرخات من معي لتحدث طنينٌ غير مفهومًا ، بينما التزم مختطفينا الصمت التام كأنهم ملائكة الموت يؤدون مهمتم الأبدية ..
المشكلة أن هذا القبر لا يسمح لي بالحركة ..
ضيق أكثر مما ينبغي ، و بارد كأنه ثلاجة صغيرة ..
لقد ظننت أم جسدي سيبعث ببعض الدفء في المعدن البارد ، لكن العكس يحدث الآن ..
سأتجمد في هذا القبر بعد قليل ..
أذكر أن جسدي المتكوم أسفل و فوق أجساد الباقين ظلّ يترجرج ساعات طويلة ، قبل أن يتوقف البوكس أخيرًا لنسمع الأصوات المعدنية لمؤخرة البوكس إذ يفتحه أحد مختطفينا ، ثم شعرت بالثقل من فوق يقل تدريجيًا ، لأفهم أنهم يحملوننا خارج البوكس إلا حيث لا يعلم أين إلا الله ..
كل هذا كان يتم بصمت و ثقة ، حتى بدأت أصوات ترتفع ..
أصوات من كانوا في البوكس ..
و هذه المرة لم تكن صرخاتهم مكتومة ..
لكنني الآن أريد أن أنام ..
الألم .. البرودة .. السهر .. الصدمة .. الدماء التي فقدتها ..
أريد أنا أناااااااااااااااااااااام !
آه ..
اسمي هو (عادل رمزي) ..

اليوم الثاني ..

و لا يزال المعدن باردًا ..
إنهم يحافظون على برودة هذه القبور المعدنية بوسيلة ما ، و لا بد أنهم عباقرة ، فهم يتحكمون في درجة البرودة ببراعة تضمن لهم أننا لن نهلك هنا .. لكنني لا زلت لا أفهم سبب وجودي هنا ..
ثم إن البرودة لا تناسب مثانتي الممتلئة .. لقد ناديت عليهم لساعات ليأخذونني إلى دورة المياه ، دون أن يجيب أحدهم .. حتى أنا لم أسمع صوتي واضحًا ..
منذ أن خرجت من البوكس محمولاً كالباقين ، ليلقي بي حاملي بين يدي لجنة الإستقبال ، حيث ما يحدث يسمونه (رزق) .. البعض رزقهم أن تهوي الهروات المعدنية على ضلوعهم ، و البعض على أطرافهم ، و البعض على وجوههم ، لكن المحظوظين وحدهم هم من يتلقون الضربات على رؤوسهم، فهؤلاء لن يستمروا طويلاً .. على قيد الحياة !
اسمي هو (عادل رمزي) .. لو كان تحريك ذراعي متاحًا ، لحفرت اسمي بأظافري على المعدن البارد كيلا أنساه .. (عادل رمزي) .. (عادي رمزي) و لا شيء سواه ..
بعد الإستقبال ألقوا بنا في أحد الغرف ، نلملم جراحنا ذاهلين و سؤال واحد يلهب رؤوسنا .. لماذا ؟
الطبيعي أن تتساءل أين أنا ؟ أو .. ما الذي يحدث ؟.. لكن إذا واجهت ما واجته ، ستجد أن (لماذا ؟) هو السؤال الأهم ..
بعد هذا نزعوا الأقنعة السوداء من على رؤوسنا ..
و رأينا الـ .. الـ ..!

اليوم الثالث ..

كما توقعت أصبت بالحمى .. إن جسدي يرتعش و كأنما أوصل أحدهم تيارًا كهربيًا بقبري المعدني ، و أصبحت أعجز عن التنفس دون سعال .. و إن كنت تتساءل عن مثانتي فلن تروق لك الإجابة أبدًا .. الرائحة هنا لم تعد تطاق !
اسمي هو (عادل رمزي) ..
لن أنساه مهما فعلوا ..
حين نزعوا الأقنعة من على وجوهنا رأيت القاعة التي جمعونا فيها ، و رأيت آثار من سبقونا هنا لتسيل دموعي هلعًا على الفور .. ما الذي يفعلونه ؟ .. ما الذي

يفعلونه ؟
لا توجد كلمات لوصف ما حدث لنا ..
لا يوجد سوى السؤال الوحيد (لماذا ؟!) ..
إنهم لم يستجوبوننا حتى .. فقط حين انتهوا منحوا كل واحد منا رقمًا .. رقمي هو (113) لكنهم أخبروني أنه سيكون اسمي الذي لو نسيته سوف يساعدونني على حفظه ..
اسمي هو (113) .. لا .. اسمي هو (عادل رمزي) و لن أنساه .. و لن أنسى رقمي كذلك ..
لكن ما الذي يريدونه مني ؟! .. أنا لم أفعل شيئًا .. أنا فقط ذهبت لأصلي الفجر ..
إنهم يقولون أنني أعرف ما الذي فعلته ، لكنني – و أقسم بالله العظيم على هذا – لا أعرف !
إنهم يقولون لي (أنت تعرف يا 113) ، لكنني أقسم أنني (عادل رمزي البريء) .. لم أفعل شيئًا أبدًا أبدًا أبدًا أبدًا ..
إنني لا أشعر بساقيّ .. لا أشعر بالـ ..
لا ..

اليوم الرابع ..

لابد أنهم أخرجوني من هنا حين كنت فاقدًا للوعي ، فأنا أشعر بمذاق سكري حول فمي ..ألم أقل لك أنهم عباقرة و لا يريدون لي أن أهلك هنا ..
لقد كفت جراحي عن النزف لأن دمائي تجمدت ، و لم أعد أعرف في أي يوم نحن .. لم يعد هذا يهم في الواقع ..
إنني الآن على إستعداد لأعترف بأي شيء يريدونه .. فقط فليوجهوا لي اتهامًا و سيروا كمّ تعاوني مهما كانت التهمة ..
نعم .. أنا قتلت و سرقت و زنيت و اختلست و نصبت و قذفت و هربت و اعتديت و ظلمت و تعدّيت و اختطفت و حرقت .. فقط أخرجوني من هنا !
أنا (عادل 113 رمزي) الذي أستحق الإعدام .. أعدموني لكن أخرجوني من هنا ..
أخرجوني و لن أصلي الفجر أبدًا .. بل لن أصلي على الإطلاق .. سأصلي فقط حين يأذنون لي .. أو لا .. لا داعي لأن يرهقوا أنفسهم .. ليخرجوني من هنا و سأقبع غرفتي في المنزل و لن أتركها أبدًا ..

إنهم يريدونني أن أنسى اسمي ، لكني سأقاوم .. سأقاوم .. سأقاوم ..
اسمي هو (عا 113 دل 113 رمـ 113 زي 113) ..

اليوم الخامس ..

الكلاااااب .. الخونة .. الشياطيييييين !!
أخرجووووووووووووووني من هنااااااااااااااااا!!

اليوم السادس ..

حمدًلله أنهم لم يسمعونني .. الواقع أنهم ليسوا مخططين إلى هذا الحد !
أن تعرف يا 113 .. و الواقع أنني بدأت أتذكر ما الذي فعلته بالضبط ..
لقد .. لقد .. لقد دخنت سيجارة بانجو في الثانوية .. صديقي (علي) – الذي أرجو أن يكون هنا و يلاقي ذات العذاب لأنه السبب ! – كان يدخن سيجارة بانجو عند سور المدرسة ، و حين سألته عن سر رائحة سيجارته الغريبة ، قدّم لي واحدة ، ففكرت أنه لا ضير من التجربة ..
الآن أدفع ثمن هذا الخطأ ، و أنا عليه نادم .. آه .. شيء آخر .. منذ أشهر صحت في طفل صغير كان يقذف نافذتنا بالحجارة .. نعم ..
لا بد أنه ابن (مش عارف مين !) و لابد أنه اشتكى لوالده الذي قرر أنني أستحق العقاب .. فقط لو يمنحني والده فرصة للخروج من هنا .. سأحطم كل نوافذي و سآكل الزجاج لأثبت له أنني نادم ..
نعم .. أنا أستحق أن أوجد هنا .. لكن إلى متى ؟!
فقط مهما طال بقائي هنا يجب أن أتذكر أنا اسمي هو .. (عادل) ..
أو (منير) ..
لم أعدْ واثقًا ..!
لكن أعرف يقينًا أن رقمي هو 113 .. لو نسيت سوف ..

اليوم الـ ..

إذن هكذا يأتي الموت ..
دافئًا مطمئنًا حاملاً لي وعود الخلاص من هذا القبر الجليدي ..
فقط عليّ ألا أقاوم .. فقط عليّ أن أبتسم مرحبًا بنجاتي ..

فقط عليّ أن ..
و أخيرًا ..

كان هناك خطأ في الإجراءات .. هذا يحدث و علينا أن نعذر المسئول فهو لم يقصد ..

لهذا استيقظت لأجد نفسي في المستشفى و والدي يقف جواري يبكي كالأطفال .. مجرد تشابه بسيط في الأسماء .. لهذا أخرجوني حين اكتشفوا خطأهم .. أخرجوني في الوقت المناسب تمامًا فلم أفقد سوى ساقي اليمنى و إن كنت لا أذكر كيف .. لا بأس اليسرى ستفي بالغرض !
مجرد تشابه في الأسماء لكني لا أفهم كيف حدث .. إن من كانوا يسعون وراءه اسمه (علاء رمزي) أما أنا فاسمي الذي ولدت به و الذي لا أعرف غير هو (113) ..!

فزع

اليوم ستذهب ليلى إلى المعسكر...
يا إلهي ..
ستترك ليلى المنزل يومين كاملين...
هكذا فكر الدكتور شريف بقنوط و أسى .. يومين كاملين يقضيهما مع زوجته.. وحدهما... فى المنزل...
إن الفكرة تبدو مفزعة حقا .. !
الساعة الآن التاسعة مساء للأسف .. سيضطر لإغلاق العيادة و العودة الى الجحيم .. منزله..
وتحت سيل من الأمطار الهادرة ،التى أخذت تدك سيارته دكًا ، أخذ الدكتور شريف يقود سيارته، وفى رأسه عاصفة من الافكار أشد هولاً من تلك التى خارج السيارة ..
حسنًا ..
سيعود إلى المنزل لتستقبله زوجته ، بنظراتها الكئيبة المتحفزة للشجار لأى سبب و بدون سبب..
حقًا ستستغل اليومين التى ستقيمها ابنتها ليلى خارج المنزل خير استغلال .. ستعيد له الشريط الكئيب ، عن كيف تحملته ايام فقره ، و هى سليلة الأسر الراقية، و كيف رضيت به و بالحياة معه .. هو الهمجى الغبى الذى يظن نفسه ملكًا لمجرد أنه رجل ..
اللعنة..!!
إن حوادث السيارات تحدث كل يوم .. فهل ينقذه حادث ما من الساعات الرهيبة التى فى انتظاره؟!
لكن ..
هاهو المنزل يلوح له، وسط الظلام و الامطار، ككابوس مجسم .. النافذة المضاءة فى الطابق العلوى تقول انها هناك .. فى انتظاره ..
اجتاز الدكتور شريف بوابة المنزل .. فالحديقة التى أحالتها الأمطار إلى مستنقع طينى لزج ..
فالمرآب، حيث ترك سيارته ، و خرج منها متجهًا إلى باب المنزل ، و كأنما سيسلم نفسه فى معتقل سيبريا...
ألا يمرض أحدهم فى هذا الطقس فيرسل فى استدعاءه ؟
بيد مرتجفة من البرد - أو لعله الإنفعال - مدّ يده بالمفتاح .. و فتح على نفسه بوابة جهنم...!
الردهة المظلمة أمامه ..

و درجات السلم التى لوّثها بصيص من الضوء القادم من الطابق العلوى ..
الطابق العلوى.. حيث تنتظره هى ...
و قد تساقطت كتفاه ..
وبخطوات متثاقلة مهمومة ، أخذ يصعد الدرج
و .. أخيرا جئت ...
الصيحة الشرسة تستقبله ، كطبول الحرب إيذانًا ببدء ليلة جديدة من الشجار..
حسنًا ، فاليحتمل قدر المستطاع .. ثم فليندس فى فراشه حتى الغد...
قد يستيقظ غدًا ، فيجدها جثة هامدة .. من يدرى؟؟
أما هي فبدت أمامه تقف على باب الغرفة المظلمة ، و قد صنعت الظلال فى وجهها لوحة مرعبة للغضب و الوحشية.. واصلت الصراخ :
- أين كنت طيلة الوقت؟؟
فأجابها بلا اكتراث محاولاً التماسك :
- فى العيادة...
- إلى هذا الوقت...؟
- العاصفة أخرتني .. إن كنت تشكين فى هذا انظرى من النافذة ..
التمعت الكراهية فى عينيها و هي تتابعه إذ يدخل الغرفة و يبدأ فى نزع سترته ، لتقول :
- العاصفة..أم أنك تعمدت التأخر.. تعمدت عدم المجيء ؟؟
كاد يصارحها أن هذه هى الحقيقة ، و لكنه آثر السلامة ، و ابتلع رده مع ريقه و هو يواصل نزع سترته ..
لكنها لم تتوقف ..
انفجرت تعيد عليه النغمة الخانقة .. للمرة المليون ربما ..
و ردد هزيم الرعد صراخها بدوي هزّ كيانه هزًا..
« كفى ... كفى .. »
خرجت الكلمة من بين شفتيه هادرة .. باترة .. تحمل كرهه.. و غضبه.. و ثورته... و مقته..
لكنها لم تتوقف...
بل ازدادت هياجًا .. و ارتفع صوتها حتى غطى على صوت هزيم الرعد ذاته
و .. و ..
و لا يمكن تفسير ما حدث بالضبط .. و لكنه كان حتميًا..
ربما العاصفة.. ربما الصراخ .. ربماالغضب و الكراهية .. ربما لأن أعصابه لم تتحمل المزيد ..

ربما هو مزيج من هذا كله ..
المهم أنه وجد نفسه يقفز ليقبض على عنقها ليعتصره بقوة عاتية محاولاً إسكات صراخها ..
صراخها الذى استمر لحظة .. ثم استحال إلى حشرجة.. ثم القرقعة المخيفة التى بدت كهزيم ألف رعد ..
ثم صمتت تمامًا..
و إذ أفاق كانت أصابعه لا تزال تعتصر عنقها.. وكان رأسها قد مال إلى الخلف بزاوية غير طبيعية و الرغاوى تسيل من فمها ..
و كانت عيناها الجاحظتان مسددتان تجاهه ، ترمقانه بكراهية..
حدق هو لحظة فى هذا كله .. ذاهلاً .. خائفًا .. ثم ترك أصابعه تنسل من حول عنقها ..
و للحظة ظلّت واقفة.. ثم سقطت..
أخيرًا سقطت..
و صمتت...!
و بإنفعال هائل أخذ يلهث غير مصدقًا أنه فعلها .. ثم جلس على الفراش
و أشعل سيجارة نفث دخانها فى سماء الغرفة.. مسرح الجريمة..
لقد ماتت ..
لكم تبدو الفكرة مفزعة.. مخيفة ... و مريحة..!
لقد ماتت .. لقد تخلص منها..
ثم انقطع التيار الكهربائى بغتة .. فساد الظلام المكان ..
و رغمًا عنه احتبس دخان السيجارة في صدره ، فأخذ يسعل بشدة حتى دمعت عيناه ..
ثم بدأ شعور عجيب بالفزع يكتنفه..
هو ... وهى - سابقًا- فى الغرفة و الظلام يغلف كل شئ .. والأمطار تضرب زجاج النافذة بدوي مخيف ، امتزج بهزيم الرعد ليصنع مزيجًا مخيفًا كموسيقى تصويرية لفيلم رعب ..
رعب..؟ إن الشعور الذى يشعر به حقًا هو الرعب ..
يجب أن يغادر الحجرة فورًا ..
هكذا و دون تفكير أطفأ الدكتور شريف سيجارته ، و اندفع خارجًا من الغرفة حتى أنه تعثر بجثة زوجته ، مما أورثه فزعًا على فزعه دفعه للعدو إلى الأسفل .. إلى الردهة حيث أخذ يلهث ، عاجزًا عن التفكير ..
لقد قتلها..

أنهى حياته الزوجية الفاشلة بجريمة قتل ..
لابد أن السجن هو مصيره ..
لا .. ليس السجن .. بل المشنقة .. الإعدام شنقًا...
ليلى .. يا إلهي .. ليلى ..
كيف لم يفكر فيها .. في المصير المظلم الذى ينتظرها بأم مقتولة و أب محكوم عليه بالاعدام ؟
الضوء ..
ليدخل بعض الضوء فى المكان ثم يفكر..
نعم ، لابد من أن الشموع على المائدة .. أين الثقاب ؟ ..ها هو.. و بذات اليد المرتجفة أشعل عود الثقاب .. تراقص لهب الشعلة للحظة إثر نسمة هواء باردة أثارت رجفة فى جسده .. ثم مدّ يده ، ليشعل فتيل الشمعة و ليغزو الضوء المكان على استحياء ..
و على الضوء المتقطع الشاحب .. ظهر وجهها..!
ارتد بهلع ليصطدم بالمقعد ، فسقط أرضا مطلقا صرخة فزع مدوية ..
إ.. ن .. ه .. و.. ج .. ه .. ه .. ا ..
الوجه المحتقن و الذى بدأت تغزوه الزرقة ، و الرغاوى تسيل من فمها و العينان الجاحظتان ترمقانه بكراهية..
أخذ جسد شريف يرتجف بشدة ، و البرودة تغزو عظامه ، و هو يحدق ذاهلاً مرعوبًا فى زوجته التى استقرت أمامه على مقعد المائدة ، و رأسها يميل إلى الخلف بزاوية غير طبيعية ..
مستحيل.. مستحيل .. إنه يهذى.. بالتأكيد هو يهذى ..
تغلب ذهوله على فزعه ، فقفز واقفًا و انطلق عدوًا إلى الطابق العلوي ، إلى حيث لم يجدها..!
« انها لم تمت ..»
هكذا هتف ثم انطلق يعدو مجددًا إلى الأسفل .. إلى المائدة حيث جلست هي .. و بخبرته الطبية لم يحتج لمجهود بالغ ليدرك أنها ميتة ..
للأسف ميتة.. !
بهستيريا تامة أخذ الدكتور شريف يضحك ، و قد ألقى البرق بوميض شاحب على وجهه ، تلاه هزيم الرعد الذى امتزج بضحكاته ..
لا زالت تطارده حتى وهي ميتة .. ياللحماس.. ياللقسوة ..!
ثم استحالت مشاعره كلها بغتة إلى جذوة مشتعلة من الغضب .. ليتخلص منها نهائيًا..

الجثة.. الحديقة.. الجاروف فى المرآب .. الصورة مكتملة و لا تحتاج إلا إلى التنفيذ ..

و تحت المطار .. تحت وميض البرق .. في قلب العاصفة ، وقف الدكتور شريف فى الحديقة يحفر .. و يحفر ..

يحفر قبرها..

استمر الأمر لساعتين قبل أن يعود منهكًا خائر القوى إلى داخل المنزل و المياه و الطين اللزج يغمرانه ..

هذه المرة تخلص منها حقًا ..

حتى لو كانت من هواة السير أثناء الموت ..!

الآن يغتسل .. ويخفي آثار ما حدث ، و فى الغد يتخلص من الجثة نهائيًا ..

لن يسمح لها أن تدمر مستقبله كما دمرّت حياته ، و إن لم يكن من أجله ، فليكن من أجلها .. من أجل ليلى ..

نعم .. لن يسـ ..

الطرقات الكئيبة على باب المنزل ..

طرقات جمدت الدماء في عروقه ، و انتصب لها شعره ..

لا .. لا يمكن .. إنها العاصفة .. لا .. ليست العاصفة ..

إنها هي !!

هي .. هي .. هي ..

قادمة من أجله .. لتنتقم .. لتقتله ..

« لاااااا ... »

صرخ بها و عيناه تلمعان بجنون مطبق .. لن يسمح لها هذه المرة ..

اندفع عبر درجات السلم إلى الطابق العلوي .. غرفته .. المسدس في درج المكتب حيث اعتاد أن يضعه للطوارىء .. هاهو ..

التمع البرق في السماء فأخذ يقرأ عنواين الكتب في مكتبته ..

(السحر الأسود) .. (عن الجن و الشياطين) .. (جذور الموت) ..

من الذي ابتاع هذه الكتب ؟!!

فتجيبه الطرقات الكئيبة .. إنها هي ..

تلمس طريقه إلى الأسفل و قد أخذت عيناه تدمعان هلعًا ، و قد تلاشى كل شيء من ذهنه لتحل فكرة واحدة ..

يجب أن يتخلص منها .. الليلة ..

مأخوذًا .. بعينين زائغتين و بخطوات بطيئة مترددة ، بلغ الباب .. و فتحه .. استقبلته الرياح و الأمطار ، لكنها لم تكن هناك .. ثم شعر بشيء ما يمر بين

ساقيه بغتة !
و بدون تفكير قفز و أطلق النار ، فأطلقت تلك القطة مواءً أليمًا ، قبل أن تسقط جثتها أمامه تنز الدماء ببطء ..
و بمزيج من البلاهة و الذهول حدّق هو في جثة القطة ..
المسكينة .. جاءت لتحتمي من العاصفة ، فاستقبلها هو برصاصة ..
و موليًا ظهره للباب المفتوح .. محدقًا في جثة القطة .. و من قلب العاصفة و الظلام ، ظهرت هي ..
سمع (شريف) صوت خطواتها الحافية تدق الأرض خلفه تمامًا ، و شعر بحفيف رداءها إذ احتك به ، لكنه لم يستدر ..
شلّ الرعب تفكيره و جسده تمامًا ..
أما هي ، فاجتازته و قطرات الأمطار تتساقط منها و الطين يغطي جسدها كله ، في حين مال رأسها بزاوية غير طبيعية و قد جحظت عيناها و الكراهية تطل منهما ..
ثم ابتعلها ظلام الردهو مجددًا ..
و إذ استطاع الدكتور (شريف) التحرك أخيرًا ، كان ما فعله حتميًا ..
حقًا كان ..

••••••

عندما وصلت (ليلى) بعد يومين كان هناك الكثير من الصراخ ..
و عندما اقتحم الجيران و الشرطة المكان ، كان المشهد أمامهم عنيفًا و مخيفًا ..
جثة القطة عند مدخل الباب .. الدكتور شريف في منتصف الردهة و قد اخترقت رصاصة رأسه ، في حين قبضت يده على المسدس ..
و في الأعلى كانت جثة الزوجة ملقاة أمام غرفتها و قد مال رأسها بزاوية غير طبيعية و قد جحظت عيناها و كأنما ترمقان كل شيء ..
بكراهية ..

الليلة التاسعة

من الماضي السحيق
صفحات غابرة من القرن الثامن عشر

الممر الحجرى الكئيب .. المضاء بالمشاعل ذات اللهب المتراقص ، ملقياً بتلك الظلال المتراقصة الرهيبة .. رقصة النار المجنونة الخالدة..
الوزير بحركتهالتى تكسبه وقار ، يليق بوزير الملك «جورج الثاني» يقطع الممر بخطوات سريعة ، تعكس توتره البادي في ملامحه..
قطع الممر ، ليستقبله الحارسان بتحية صاخبة ، تجاهلها وهو يدلف الى تلك القاعة الضخمة المضاءة بعشرات المشاعل ، مانحة إياها هيبة واضحة ، أضفت إلى هيبة طبيعة المكان ذاته ..
بلاط الملك «جورج الثاني» نفسه ....!
وعلى عرشه استوي الملك «جورج» ، وقد أخذت عيناه الباردتان القاسيتان ، قسوة ملك مملكة لا تغيب عنها الشمس ، تتابعان الوزير الذي امتثل أمامه لينحني باحترام بالغ قائلا بصوته الذي لم تؤثر في قوته السنون :
– مولاي ..
دوي الصوت الجهوري ، صوت الملك يقول :
– ماذا عندك يا وزيري ؟
فرد الوزير قامته ، وقال متحاشياً النظر في عيني الملك:
– لقد استفحل الأمر يا مولاي ... استفحل وأخشي أن تأتي اللحظة ، التى يخرج فيها من أيدينا..
– أمر ماذا ؟؟
– أمر ذلك البيت يا مولاي .. البيت المسكون !!
خرج صوت الملك «جورج» حاملاً برودًا يكاد يطفئ لهيب كل المشاعل في القاعة :
– ماذا عنه ايها الوزير ...؟
تسللت العصبية الى صوت الوزير رغما عنه ، وهو يجيب:
– لقد فاقت سمعة هذا البيت الحدود ... والناس يخشونه كالموت ذاته ولا أحد أصبح يجرؤ على الدنو منه .. إنهم يطالبون بهدمه...
– يطالبون بهدمه لأنهم يخشونه ...؟ لماذا لا نقتل الوزراء ايضا مادامو يخشونهم هم ايضا ..؟!
أسقط في يد الوزير وقد منحه ملكه واحدة من ردوده الباترة الشهيرة .. لكنه لم يتمالك نفسه ، من أن يقول بتخاذل :

- ولكن ....
- ولكن ماذا ..؟!
انحني الوزير باحترام قائلا :
كما تشاء يا مولاي...
والتفت مغادراً القاعة الملكية تاركاً الملك..
وانتظر الملك حتي غادر ، ثم قام من على عرشه ، ليذهب إلى ممر آخر خلف العرش اضاءته المشاعل ، متجها الى غرفة الملكة «كارولين»...
وعلى باب الغرفة ، هبت الوصيفات ، ليستقبلن الملك بمزيج من الرهبة والخوف ، ليقول هو بصرامة :
- هل الملكة مستيقظة؟
أجابته إحدي الوصيفات على الفور :
- نعم يا مولاي ...
ودون أن يرد عليها دخل الى غرفة الملكة ، التى رقدت في فراشها شاحبة ، وإمارات الإعياء تطل من وجهها ومن سعالها المتقطع ...
وبصرامة خلت تماما من الإشفاق سألها :
- أما زلت ترفضين التحدث...
ادارت «كارولين» له عينين متثاقلتين بالمرض وخرج صوتها متحشرجاً محملاً بالوهن وهي تجيب:
- لا أملك شيئاً لأجيب به مولاي ..
- بل تملكين .. تملكين سر هذا البيت ...!
قالها بلهجة صارمة مخيفة ، استقبلتها هي بضعف وهي تكرر :
- لا أملك شيئا أجيب به مولاي..
التمع الغضب في عينيي الملك «جورج الثاني» وبدا وكأنه سيصدر أمراً بإعدامها وعلى الفور .. ولكنه تمالك نفسه ليقول بصوته البارد المخيف :
- لقد منحتك أكثر من فرصة يا «كارولين» ويبدو أنك لم تتركي لى الخيار ... سيهدم المنزل غداً...
أطلقت الملكة سعلة خفيفة وقالت وهي تغالب فقدان الوعي ..
وربما الحياة ذاتها :
- لن يستطيع مولاي....!
ارتجفت سفتا الملك غضباً أمام هذا التحدي السافر، وعكس صوته كل غضبه ومقته وهو يقول:
- سنرى ...

وغادر الغرفة بخطوات سريعة قبل أن يفقد أعصابه ويخنقها بيديه ...!!
ولم يكد يفعل ، حتي نادت الملكة بصوتها الواهن على إحدي وصفاتها:
-«مارتا»...
دخلت الوصيفة العجوز على الفور إثر ندائها قائلة :
-أمر مولاتي....
انتزعت الملكة الكلمات من حلقها انتزاعا ، وهي تقول :
-ثمة سر يجب أن أفضي إليك به يا «مارتا»....
لست أظنني سأستمر أكثر من هذا .....
خفق قلب الوصيفة العجوز وجلاً ، والملكة تتابع :
-يجب أن يحافظ أحدهم على السر...
وزاغت عيناها أكثر فأكثر ، إذا أردفت :
-سر البيت الملعون ..
واستحال وجل الوصيفة إلى فزع ...!!!

••••••

حدث في هذه الليلة .....!!!
وهكذا وجد «يوسف يحي» نفسه في تلك القاعة ...
الرائحة الخانقة الرطبة ... وأضواء المشاعل المتراقصة تمزق الظلام الى الف ظل .. وضربات قلبه في صدره تنبض بالخوف والهلع ...
والفضول ...!
ذلك الفضول القاسي العجيب ، يجري في عروقه ويدفعه الى المواصلة .. يجب أن يعرف .. يجب أن يفهم ...
ومهما كان الثمن ..
ونظر الى الممر المظلم الذي جاء منه وتساءل ..
كيف سيخرج من هنا ....؟!؟
لا بأس .. لنترك هذا لوقته .. المهم أن يبقي حياً ليخرج..
وبعينين شاردتين أخذ يرمق القاعة أمامه ... خاصة تلك المائدة الخشبية ، التى تراصت حولها المقاعد وتناثرت فوقها الشموع .. إنها تناديه .. تطلب منه الجلوس .. وذلك الدفتر العتيق .. عليها يطلب منه أن يفتحه .. أن يقرأه .. فهل يجرؤ ...؟؟

واستجمع شجاعته .. جر قدميه جراً وتقدم .. ثم بلغ المائدة ليجلس على أحد المقاعد .. وبيدين مرتجفتين مد يده الى الدفتر ليفتحه...
ثم انتبه بغتة إلى شئ ... بالغ الأهمية ...
يجب أن يدون ما حدث .. يجب ... ليترك حقيقة ما حدث في دفتره على أحدهم يجده فيعرف ما حدث....
وهكذا أخرج يوسف دفتره وقلمه وبدأ يكتب :
«ها أنا قد بلغت تلك القاعة المخيفة ولا أعرف حتي كيف سأخرج منها بعد ذلك ... ولا كيف سينتهي هذا كله .. ولكني لم أعد اهتم .. إنني على استعداد لبذل حياتي ذاتها مقابل أن أفهم ما حدث لى .. إنها لحظة الحقيقة كما يقولون .. فإما الآن أو لا للأبد ...!
على كل حال ، لقد كان كل ما ممرت به قاسياً بحق ويستحق أن أظفر بتفسير من أجله .. ولإن تخاذلت ، لكنت قضيت حياتي كله ، أتساءل عن سر ما حدث.. عن ماذا كان يختبئ خلف تلك الأحداث الرهيبة..
لهذا إن لم أخرج من هنا ، أرجو أن يجد أحدهم هذا الدفتر ليفهم ويعرف..
لقد سجلت فيه كل ما حدث ومنذ الليلة الأولى و... مهلاً...
ثمة صوت ما ...!!!
صوت خطوات قادمة من الممر المظلم الذي أتيت أنا منه ....!!!
نعم لست أهدي .. إنها خطوات ... وخطوات أكثر من شخص ..أيضاً...!!!
أشعر بالخوف ولا أملك أن أذكر هذا .. ترى هل رأى أحدهم المشهد في الأعلى وجاء ليستقصي .. ربما .. لقد اقتربت الخطوات على كل حال...
يا إلهي ... لايمكن أن يكون ما أراه حقيقة .. إنه مستحيل ... مستحيل !!!!

••••••

ولكن ..
أعتقد أنه يجب أولا أن نعرف الأحداث منذ البداية منذ الليلة الأولى ....

••••••

الليلة الأولى
منذ بدأ كل شئ ...!!

فرك ذلك العجوز ، ذو الذقن النامية ، والجلباب القذر كفية وقال :

-هه .. هل اعجبتك ؟!
ألقي «يوسف» نظرة على الغرفة الضيقة ، بعدم رضا واضح إلا أنه قال :
-لا بأس ..
-لقد قلت أنك تريد مكاناً هادئاً .. أليس كذلك ؟!
-نعم .. قلت...
عاد العجوز يفرك كفية قائلا :
-إنك لن تجد مكاناً أكثر هدوءاً من هنا .. كما أن الإيجار مناسب و..
قاطعه «يوسف» بنفاذ صبر:
أعرف ... أعرف .. هاك.
وناوله بضعة اوراق مالية تلقفها العجوز بلهفة هاتفاً :
شكرا يا سيدي .. سأتركك لترتاح ..
وغادر الغرفة على الفور تاركاً «يوسف» بحقيبته على الفراش المتهالك ، مجيلاً بنظره في أساس الغرفة المتواضع ، المتكون من منضدة خشبية ومقعدين ، لا يصلح أحدهما للجلوس ..!
ثم فتح باب الشباك ليلقي نظرة على المنطقة المحيطة .. حقاً .. لقد صدق العجوز .. لا توجد منطقة أكثر هدوءاً من هنا... من المقابر..
وأمام المشهد الكئيب المطل من النافذة أخذ «يوسف» يفكر ..
ها هو قد ظفر بالمكان الهادئ الذي ينشده ليبدأ في كتابة الرواية التى يحلم بها .. تلك الرواية التى يعقد عليها أمله في النجاح ككاتب..
صحيح ان إمكاناته المادية لن تسمح له بإيجار هذه الغرفة أكثر من شهر ، ولكن لا بأس..
ربما بحث عن عمل ليدر عليه دخلاً مؤقتاً حتي ينتهي من كتابة الرواية .. ولكن الآن ما عليه سوي أن يفرغ تفكيره للكتابة .. للكتابة فحسب...
سينام الآن ويستيقظ مساءاً ليبدأ طقوس كتابته المعتادة .. وجبة خفيفة وقدح من «الكاكاو» الساخن .. ورزمة من الأوراق البيضاء تنتظر أن تمتلئ بالحبر ..
وصامتاً بدل ملابسه بأخرى للنوم .. مدد جسده على الفراش المتهالك .. أغلق المصباح الوحيد في الغرفة..
ونام ...
وعندما دقت الساعة العاشرة مساءا استيقظ ليبدأ في ممارسة طقوسه..
اغتسل ، ثم أكل طعاماً معلباً ، ثم جلس على المقعد الخشبي أمام رزمة الأوراق على المنضدة ، والأبخرة تتراقص على سطح كوب «الكاكاو»..
امسك قلمه وبدأ يعتصر في أفكاره ..ز

مرت نصف ساعة .. ساعة ... ساعتين .. بعدها أدرك أنه لا يملك ما يكتبه !!
خواء فكرى تام ....!!
وبسخط ألقي بقلمه ، ليحدق بعيني شاردتين في قدح «الكاكاو» الذي برد منذ زمن...
عن ماذا يكتب ...؟؟ غنه لا يعرف ...!!
إنه ذلك الشعور السقيم بأنك كنت تملك الفكرة .. فكرة تتقافز داخل جمجمتك وكأنما ترجوك أن تكتبها .. أن تمنحها الخلود على الورق .. ولكن ما إن تقترب منها ... ما إن تحاول أن تقبض عليها بأصابعك .. حتي تكتشف أنك كمن يحاول أن يمسك بخيط من الدخان ...
لقد تبددت الفكرة من رأسه كما يتبدد خيط الدخان ...!
وشاعرا بالحنق قام من على مقعده وخرج من الغرفة مزمعاً التجول قليلاً بين المقابر عله يجد فكرة يبدأ بها ..
استقبله نسيم الليل البارد ، ليثير بين أوصاله تلك الرجفة الأولية ، ثم استنشق نفساً عميقاً ، ملأ به صدره وأخذ يتجول بين شواهد القبور الرمادية ، وبرهبة غمغم لنفسه :
-إنه مكان موحش حقاً ..!!
وتغلبت غريزة الاستكشاف في أعماقه على كل هذا ، فأخذ يجول بين الشواهد الباردة وكأنما يبحث عن فكرة بينهم ، بينما ذلك الشعور المعتاد بالرهبة من الموت والمقابر ، يجد طريقه داخله كأى بشري آخر ..!
إنه ذلك الخاطر الرهيب المرير ، بأن تلك الحجارة تحوي أسفلها رفات العشرات .. عشرات كانوا يحيون ويفكرون ويحلمون ويحبون ، ثم انتهي بهم الأمر الى التراب ... وسيأتي دوره ليلحق بهم آجلا أو عاجلاً ...1
«مهلاً .. ما هذا ...؟!!

انقطع حبل أفكاره وهو يحدق فيما قادته إليه قدميه بعجب بالغ ، مغمغما بالعبارة السابقة ، بلهجة تفوح بالدهشة والاستغراب ...!!
فأمام عينيه تراصت ستة قبور ، في دائرة كاملة ، بعدت بضعة أمتار عن باقي القبور وقد أحاطت بها دائرة من النباتات التى زحفت على شواهد القبور مطوقة إياها بسياج أخضر داكن منح المشهد هيبة عجيبة وكأنها لوحة كابوسية عن الموت ...!!

وأمام هذا المشهد وقف «يوسف» برهة مذهو لأقبل أن يملك السيطرة على

قدميه مجدداً ليبدأ في الدور أن حول القبور ، باحثاً عن ثغرة وسط سياج الأعشاب لينفذ منها إلى مركز الدائرة ...

«انت هنااااك» ؟!!!

انبعثت الصيحة من الظلام لتطيح بأعصابه ولتجعله يلتفت كالملدوغ إلى مصدر الصيحة .. اصطدمت عيناه بالعينين اللتين التمعتا في الظلام ، ثم تبدت ملامح الوجه المتعضن ذو الشعيرات البيضاء النامية من خلفهما:

وكرر :

-أنت .. ماذا تفعل هنا ؟!!

انتزع «يوسف» الكلمة من خلفه ليلقيها :

-أنا أسكن هنا ..

-أنت الساكن الجديد إذن ؟!

-نعم....

تحركت التجاعيد على جانبي وجهه لترسم ابتسامة ودودة وقال :

-مرحباً ...

وكانما أذابت ابتسامة العجوز خوفه ، هدأت نفس «يوسف» وأجاب :

-أشكرك .. هل لى أن أسألك من أنت ؟!!

-حارس هذا المكان ...

هز» يوسف» رأسه متفهما وأشار الى نافذة غرفته المضيئة :

-هذه غرفتي . . انتقلت اليوم...

جلس العجوز على إحدي الصخور الضخمة ، وأخرج من جيبه لفافة تبغ مكتظة ، أشعلها قائلاً:

-ولم تجد مكان أفضل من هنا يا ولدي ؟!

ابتسم يوسف مجيباً :

-لقد كنت أزمع الوحدة والهدوء....

بادلة العجوز الابتسامة ، قائلاً :

-ستحصل عليهما هنا بالتأكيد :

عاد «يوسف» يهز رأسه متفهماً ، قبل أن يسأله بغتة :

-منذ متي وأنت هنا ...؟

سعل العجوز لافظاً المزيد من الدخان ، ثم أجاب :

-لست أذكر بالضبط .. عندما تبلغ عمرى لن يشكل هذا فارقاً ..

ومال إلى الأمام قليلاً ، متسائلاً بتخابث :

-لماذا ...؟!

-كنت اتساءل عن هذه القبور الستة .. لست أدرى .. لكن ألا تبدو لك غريبة نوعا ما ..؟

نفث العجوز دفقة أخيرة من الدخان ، قبل أن يلقي باللفافة أرضا متسائلاً :

-أى قبور ستة ...؟! المكان مكتظ بالقبور ..

أشار يوسف إلى ما خلف ظهره قائلاً...

-تلك التى تشكل دائرة ..

منحه العجوز نظرة طويلة متفحصة ، ثم قال :

-لست ادرى عن ماذا تتحدث يا بني .. فلا توجد أمامى قبور ستة أو دائرة..

عقد يوسف حاجبيه باستغراب ، قائلاً :

-ماذا ....؟!!

والتفت بجذعه مشيراً إلى ... إلى ... أين ذهبت القبور ...؟!!!!

تسمر إصبعه المشير الى الأرض الجرداء الخالية تماماً وهتف بذهول :

-لقد كانت هناك ...

وهب واقفاً ، غير مصدقاً لما أمامه ، مردداً :

-أقسم أنها كانت هناك ....

ربت العجوز على كتفه قائلاً من بين سعاله :

-يبدو انك لم تنم جيداً يا بني .. سأتركك الآن ، فالوق تأخر على عجوز مثلي ...

ثم تركه وسط ذهوله ...

لكن كيف ...؟! ... القبور كانت هناك ...!! هو رآها بأم عينيه ...؟!!

لا ....لا ... لابد أنه يهذي .. القبور لا تختفي فجأة .. كل هذا كان هذياناً و.....

إنه ليس هذياناً .. إنها الفكرة..

لقد خرج ليبحث عن فكرة ، وها هي تتقافز أمامه ... وهذه المرة أمسك بخيط الدخان وما عليه إلا أن ينسج به قصته ...

قصة رعب على ما يبدو...

كل ما عليه الآن هو العودة ..

إعداد قدح «كاكاو» يخر ثم السباحة بين الأوراق ...

وبخطوات سريعة ، اجتاز القبور عائداً إلى غرفته ، ليدخلها بلهفة قبل أن يقف هاتفاً بسخط :

-اللعنة ..

لقد نسي النافذة مفتوحة ، فأطار الهواء اوراقه في أنحاء الغرفة ..

وبضيق بالغ أغلق النافذة ، ثم انحني ليجمع الأوراق ولكنه توقف بغتة ليحدق في

إحدي الأوراق التى كتبت عليها بضعة سطور باللغة الإنجليزية..
مهلاً .. إنه لم يكتب شيئاً قبل أن يترك الغرفة .. فمن كتبها إذن ؟!!!
وبحذر مد يده ليلتقط الورقة ثم أخذ يقرأ ما فيها ببطء....
ثم ترك الورقة تسقط من يده ذاهلاً ...!! هذه المرة إنه لا يهذي ... بالتأكيد لا يهذي ...!
لقد خالفت القوانين .. عليك أن تعلن نفسك عضوا ميتاً في الليلة التاسعة .. هذا ما كان مكتوبا في الورقة .....!!

••••••

الليلة الثانية
أحداث أخرى ....

في اليوم التالى استيقظ ، جلس على فراشه ، ثم أشعل سيجارة من العلبة التى ابتاعها ليلة أمس ... وأخذ يحدق في الورقة ...
لقد خالفت القوانين .. عليك أن تعلن نفسك عضوا ميتاً في الليلة التاسعة ..
الحروف الانجليزية العتيقة بأطراف مثنية ، مائلة ، والتى تبدو كأنما رسمت لا كتبت ...
والآن .. من رسمها في غيابه ؟! وما الذي يعنيه بالضبط ....؟!!
استنشق المزيد من الدخان في صدره ، وواصل ... هل هي مزحة ...؟! لا ...
لاتبدو كذلك ... أو على الأقل ، الأمر أسخف من أن يكون مزحة ...
وأعجب من أن يكون جدياً ...! لهذا فهو يصلح ... يصلح لاستخدامه في روايته...
سيكتب قصة عن شاب ، يعيش وحيداً في المقابر ، ليكتب رواية ، فيصطدم بالقبور الستة ، وتلك الرسالة المجهولة ....
سيكتب ما يحدث له ...
وإذ عادت فورة الحماس تجتاح عروقه ، هب من على فراشه ، والتقط أوراقه وقلمه وبدأ يكتب .. ويكتب ... ويكتب ...!
وبعد أربع ساعات متواصلة ، أمسك الأوراق التى تشبعت بالكلمات ، وأخذ يرتعش...
لقد كتب ...! أمسك قلمه مجدداً وكتب ...!!
الآن عليه ان ينتظر .. فما سيحدث له في عالم الواقع هو ما سيحدث له في

عالم الرواية التى يكتبا .. أما الآن ، فهو يستحق ان يكافئ نفسه بغذاء شهي ، وكوب كبير من الكاكاو .. ثم يكتب هذا ضمن احداث الرواية ...!

أى شئ سيفعله أو يحدث له سيكون ضمن أحداث الرواية ...! وابتسم لنفسه مغمغماً:

لأتصرف إذن كما يليق ببطل روايتي أن يتصرف .. ثم أشعل سيجارة اخرى ، وخرج من غرفته ، ليتنسم الهواء المعبق برائحة شواهد القبور..

ورآها ..

كانت هناك .. بالقرب من غرفته ، تهم بركوب سيارتها التى اشتركت مع ثوبها في اللون الأسود ، وعي عينيها منظار داكن خفي نضف ملامحها .. وقد تكلفت خصلات شعرها باخفاء النصف الآخر..

كانت تهم بركوب سيارتها عندما رفعت لرأسها بغتة ونظرت إليه ...!!

ثم تقدمت نحوه ..!!

أما هو فتسمر في مكانه مأخوذا ، حتي أصبحت امامه مباشرة لتقول بانجليزية صميمة:

-لقد جاءوا من أجلك..

وقبل ان يستوعب عبارتها ، كانت قد عادت الى سيارتها لتنطلق بها مخلفة عاصفة من الغبار ...

وفي ذهنه بدأت أفكار عديدة تتولد ...

غنها إنجليزية .. لغتها ذات الوطء الثقيل تقول هذا...

إنها تعرفه .. لقد تحدثت اليه وكأنها تعرفه حق المعرفة...

لقد جاءوا من اجله .. هي قالت هذا ...!!

من هي ، ومن هم ....؟!!!

و... مهلا .. أتراها هي التى كتبت تلك الورقة ...؟!!!

«صباح الخير يا أستاذ «يوسف»...

أدار عينين شاردتين الى مصدر الصوت ، ليجد ذلك العجوز ، ذو الجلباب القذر ، الذي أجر له الغرفة ، يفرك كفيه ، مبتسماًفي لزوجة ..

وبشرود امتزج ببعض الضيق ، أجابه:

-صباح الخير..

ثم لم يتمالك نفسه ان يسأله:

-من هذه السيدة ...؟!!

بدا العجوز وكأنما ينتظر أن يسأله هذا السؤال ، إذا انطلق :

-إنها أجنبية .. جاءت هذا الصباح لتشرف على دفن ستة من بلدتها ، في قطعة

الأرض المجاورة .. ويبدو أنها غنية بحق .. لقد دفعت بسخاء ، ووضعت للقبور شواهد رخامية أنيقة .. لم أرى مثلها من قبل .. بل والأغرب من هذا ، لقد وضعت القبور ، في شكل دائرة ...

دائرة ...!!!

رنت الكلمة في أذنه بعنف ، جعلته ينتقض بذهول .. ثم اندفع يعدو عبر شواهد القبور ، على نحو أدهش العجوز ، وجعله يضرب كفاً بكف مغمغماً :

-هل جن ، أم ماذا ...؟!!

اما هو ، فقد أخذ يعدو لاهثا بين شواهد القبور وفي ذهنه فكرة .. بل امنية واحدة .. ألا يكون ما يظنه حقيقياً ولكنه اذا وصل ، كانت الكلمة الوحيدة ، التى استطاع ان ينتزعها من بين لهاثه هي :

-مستحيل ...!!

فإمامه تراصت القبور الستة في دائرة كاملة ، تماماً كما رآها ليلة أمس ...!!

لساعات طويلة ، لم يستطع «يوسف» سوي أن يدخن...

وفي ذهنه عربدت الأفكار والتساؤلات والخيالات ، لتصيبة بصداع تكاد خلايا عقله تذوب معه ..

ثمة شئ ما خطا فيما يحدث .. ما هو بالضبط ؟!!

تصاعدت طرقات على باب غرفته ، فهتف من مكانه :

من ....؟!!

أتاه صوت حارس المقابر العجوز ، مفعماً بالود :

-غنه أنا يا ولدي....

شعر بعض الارتياح لمجيئة ، فقام يفتح له محاولا رسم ابتسامة ترحيب على شفتيه :

-أهلاً بك يا والدي ...

نظر اليه العجوز بعينين لا تطرفان ، ثم قال :

-ما بك يا ولدي ...؟!

أراد «يوسف» ان يمنحة إجابة باترة ، يريحه بها ، إلا إنه وجد نفسه يحكي له على كل شئ...

القبور ... الورقة ... السيدة الأجنبية .. الدائرة... الرواية ...

وما إن أتم حتي ابتسم الحارس العجوز قائلاً :

-ولم تشغل ذهنك في هذا ...؟! ليكن الأمر ما يكون طالما لا يضرك ...

كيف ...؟!!

-يا ولدي ... الحياة أعقد من أن نقف عند كل مشكلة فيها .. ثم انك تقول أنك تكتب ما يحدث لك في روايتك .. أى أن الأمر قد عاد عليك بفائدة رغم كل شئ .. أليس كذلك ؟؟

اطرق «يوسف» لحظة ثم قال :

-السيدة الأجنبية كانت تحاول إخبارى رسالة ما .. رسالة تتعلق بما وجدته في الورقة .. ثمة شئ على فعله ى أفهمه..

أجابة الحارس ببساطة:

-لا بأس .. حتي تتبين لك حقيقة الأمر ، واصل حياتك كان لا شئ هنالك....

ثم نهض ليردف:

دعنا نتمشي قليلاً في الخارج .. سيريح هذا أعصابك ...

هز «يوسف» رأسه موافقا ، وانطلق معه الى الخارج ، وهو يقلب ما قاله الحارس العجوز له ، في رأسه ...

لم لا ...؟ ليترك الأمر يمضي حتي يفهمه...

ثم إنها أحداث أخرى تضاف الى روايته ...

وعلى شاهد أحد القبور ، استقر بهما المقام ، فاخرج العجوز سيجارة غليظة من جيبة أشعلها ، وقد أخذ يرمق القمر في سكينة...

وبفضول سأله «يوسف»:

-لم أعرف اسمك بعد ...؟

-اسمي «فهمي محمد»...

وأنا «يوسف يحي»...

تشرفنا

قالها ولاذ بالصمت مجددا ، فرفع «يوسف» عينيه الى القمر هو الآخر ان ليسبح في بحر ذكرياته ...

تذكر طفولته ، وحيداً بلا أخوة .. ثم يتيما بال أبوين بعد أن مات والده في حادث على الطريق .. تذكر جارته الحسناء ، والرسائل المراهقة التى كان يلقيها على نافذتها .. تذكر يوم رحلت مع أسرتها لتزيد وحدته ، وحدة .. بعدها لم يبقي له سوي القراءة .. والكتابة ...

عوالم حالمة يسبح فيها ، ليضع بعدها عوالمة هو على الورق .. الكتابة تمنحه سحرا ما بعده سحر...

سحر ان يكون المسيطر ...

ان يملأ عالمه الوحيد بأبطال قصصه ، ثم يسيرهم كما يشاء ...

«ما هذا ...؟!..

قالها العجوز بغتة وهو ينهض من على شاهد القبر ، فحدق «يوسف» فيه لحظة شارداً ، ثم انتبه لقوله ليتساءل :

-ما الذي حدث ...؟!

-أعتقد أنني رأيت شئ ما ...

ثم اتجه الى دائرة القبور ، وقد بدا عليه الاستغراب ، فتتبعه «يوسف» حتي بلغا منتصف دائرة القبور...

وهناك رأى «يوسف» ما جذب انتباه الحارس العجوز ..رأى جثة ذلك الكلب الضخم التى رقدت أمامهما بلا حراك ...!

وببطء مال الحارس العجوز على الجثة ، ليتحسسها قائلا :

-إنه بارد .. لقد مات منذ زمن ....

لم يجبه «يوسف» بحرف... بل أخذ يحدق في جثة الكلب برهة ، ثم انتقل بعينيه الى شواهد القبور من حوله ...

ورغماً عنه تسلل اليه شعور عجيب .. شعور بانه محاص....!!

أما العجوز فهب واقفاً ببساطة ليقول :

-لأدفنة قبل أن تفوح رائحته .. ساعدني ولا تخف... لن يؤذلك .. فائدة الميت الوحيد ، أنه لم يعد قادرا على الإيذاء مجدداً ...

ولم يجد «يوسف» لماذا وجد نفسه يجيب:

أرجو هذا ...

بل ولم يدر سر تلك القشعريرة الباردة التى كانت تغزو جسدة بقسوة ....!!

عندما عاد الى غرفته ، بعد منتصف الليل ، لم يكن قادراً سوي على النوم لذا أبدل ملابسه ، وأطفأ المصباح .. ثم ألقي بجسده على الفراش ...

كل ما كان يريد الظفر هو النوم العميييق ... لكنه لم يظفر به ...!!

شئ ما جعله يستيقظ قبيل الفجر... صوت خطوات ....!!!

فتح عينيه ببطء مرهق شاعراً أنه لا يزال يحلم .. ورغم الظلام الدامس شعر بوجود شئ ما يتحرك ...

وعيه يعود اليه بالتدريج .. الآن يدرك أنه ليس شئ ... إنه شخص...!

عيناه تتكيفان على الظلام .. إنه شخص ما يقف في الظلام أمامه مباشرة ...!

يسترد وعيه كلياً .. هذا الشخص يحمل سكيناً ، يلتمع نصله في ضوء القمر ، بكلتا يديه ، ويهم بغرزه في قلبه ..

ومدركاً لهذا كله تصلب جسده في رعب مطلق... كانت لحظة من اللحظات التى تعجز فيها غريزة البقاء ، عن اتخاذ رد فعل ايجابي..

لكنه على ضوء القمر الشاحب رأى النصل يرتجف في يد صاحبه .. ثم خرج من حامله صوت مألوف .. صوت أنثوي يتحدث بالإنجليزية ، وقال بلهجة مرتعشة :
-أنت ... أنت .. لقد دمرت حياتي...!
إنها السيدة التى رآها صباحاً .. ويبدو انها جنت
وبغتة هوت بالسكين فأغمض عينيه ، وقد فقد القدرة على التنفس ثم .. المعدن البارد يسقط على صدره ، ثم صوت خطوات مسرعة الى الخارج...
وعندما فتح عينيه .. كانت غشاوة رقيقة من الدموع على عينيه ..
دموع الانفعال ...
إنه حي ... حي .... حي ... لم تقتله ...!!
تلك الحقيرة ..!!!
وإذ تحول انفعاله الى ثورة هائلة ، أمسك بالسكين ، وانطلق يعدو الى الخارج مطلقاً صرخات غضب مجنونة..
لكن صوت السيارة المبتعدة أتاه من بعيد ، فوقف يلهث وجسده كله يرتجف...
لقد هربت .. القاتلة المجنونة هربت ...
وململماً أشلاء أعصابه ، استدار ليعود الى غرفته وقد فقد قدرته على النوم ... دخل اضاء المصباح و...
واتسعت عيناه في ذهول ، تحدقان في الهول الذي حدث...
فهذه المرة ، كانت الصدمة أكثر قسوة من أن يحتملها ....!

••••••

الليلة الثالثة
فتّش عن المرأة ..

أشعل يوسف سيجارة ثم أخذ ينفث الدخان في سماء الغرفة ..
حسنًا .. ليرتب أوراقه .. الساعة الآن الخامسة صباحًا ، و لن ينام على كل حال .. لذا لنبدأ ، فالموقف كالتالي ..
لقد انتقل للإقامة في تلك الغرفة جوار المقابر ليتفرغ للكتابة ، لكن كل شيء حوله اجتمع على منعه من تحقيق مبتغاه ..
أولاً رأى تلك القبور الستة قبل أن توضع في مكانها ، ثم رآها في اليوم التالي إذ

وضعت على شكل دائرة مكتملة ..
ثم جاءت تلك الرسالة الإنجليزية التي تطلب منه أن يعلن نفسه عضوًا ميتًا في الليلة التاسعة ..
بعد هذا يأتي دور السيدة الانجليزية التي كادت تقتله في فراشه ، و هي تردد بهسيتريا أنه دمر حياتها ..!!
و أخيرًا ... و أخيرًا كل ما كتبه في تلك الرواية التي استوحاها من الأحداث الدائرة من حوله .. ست أو سبع صفحات ، ترقد أمامه الآن ناصعة البياض ، كأنما لم يمسسها قلم ..!
أما ما كتبه فهو أمامه الآن .. مكتوب على الحائط .. كله على الحائط !!
أحدهم نقل كل ما على الورق إلى الحائط بمعجزة ما .. و الأدهى أنه نقله بخطه هو ..
بل و لك يكتف بهذا ، بل كتب المزيد ..فإلى جوار سطوره ، تراصت سطور أخرى بالانجليزية ، و بذات الخط المائل المرسوم ، الذي كان يقول هذه المرة :
«و رأى يوسف كلماته و قد خطت على الحائط ، فلم ينم ليلتها ، بل أخذ يدخن و يفكر .. يفكر في حل لهذا كله .. حل منطقي للامنطقية الدائرة من حوله ، و في اليوم التالي انطلق ليبحث عن السيدة الانجليزية .. »
و مطفئًا سيجارته ، غمغم (يوسف) ساخرًا :
– رغم أن أسلوبه رديء ، إلا أنه يساعدني حقًا في كتابة الرواية ..
و مع أول أسهم من أشعة الشمس اخترقت زجاج نافذته ، معلنة عن مولد الفجر ، ألقى (يوسف) بجسده المكدود على الفراش ، مزمعًا النوم ..
لكنه كان يرتجف .. و بشدة ..
فهو يعرف .. بل يدرك أنه ما إن يستيقظ حتى سينطلق يبحث عنها ..
عن السيدة الانجليزية ..

●●●●●●

« تنام كثيرًا يا سيد (يوسف) .. »
قالها العجوز الذي أجّر له الغرفة ، إذ استيقظ عصرًا ، فأجابه بصبر نافذ :
كنت مستيقظًا طيلة الليل ..
لماذا ؟!
كنت أفكر في خطة لخنقك ..
ماذا ؟!!

لا عليك .. أريد أن أسألك عن شيء ما .. عن تلك السيدة الانجليزية التي جاءت أمس ..
فرك العجوز كفيه ، ليقول متخابثًا :
ماذا عنها ؟
ما اسمها و كيف أجدها ؟!
هرش العجوز رأسه مفكرًا و قال :
لا أتذكر اسمها بالطبع .. لقد كان اسمًا غريبًا يصعب نطقه ، لكني سمعتها تتحدث بعربية ركيكة للغاية عن فندق ما .. لا أتذكره .. آسف .. لكن لماذا تسأل على كل حال ؟
فكّر (يوسف) لحظة في أن يقص عليه أحداث الليلة الماضية ، لكنه أحجم عن هذا ليقول :
حاج (سيد) .. أريد أن أحدثك على انفراد ..
لم يكن هناك أحد بالجوار ، لكن (يوسف) وضع ذراعه على كتف العجوز ، و تنحى به جانبًا ، ليهمس له في خطورة :
حاج (سيد) .. إنني أراقب هذه السيدة ، لكن يجب أن يبقى كل ما سأقوله لك بيننا فحسب ..
استبد الخوف بالعجوز ، فهتف :
هل أنت مباحث ؟!!
نعم .. و الآن اخفض صوتك و اصغ لي جيدًا .. نحن نعتقد أنه ثمة شيء ما في التوابيت التي دفنتها تلك السيدة .. مخدرات في الواقع ، لكن يجب أن يبقى كل ما سأقوله سرًا لا يخرج من أحدنا مهما كان السبب .. و نحن الآن في حاجة لمساعدتك ..
كيف ؟!
أخبرني كيف أجد هذه السيدة ؟
أجاب العجوز ببساطة :
عن طريق العربة التي نقلت التوابيت.. لقد كانت مؤجرة من شركة (...)
حدّق (يوسف) في العجوز مأخوذًا ، متسائلاً كيف استطاع هذا الوغد حلّ مشكلته بهذه البساطة !!
ليتمالك نفسه الآن ، فهو رجل مباحث لا يفترض به أن يندهش ، لذا قال بصرامة متوترة :
عظيم .. لتبقي كل ما قلناه الآن سرًا بيننا ..
و تركه و مضى في خطوات سريعة ، و الهواجس تمزق تفكيره .. لقد عرف كيف

سيجدها ، و لكن ..
ما الذي سيفعله معها ؟!!
ما علاقتها بكب ما حدث أصلاً ؟!!
ثم .. مهلاً .. لماذا لا يكون ما قاله للعجوز صحيحًا ؟!!
عصابة دولية تهرب المخدرات في توابيت و تريد استخراجها .. و مشكلتهم تتمثل في شاب مصري وحيد يقطن المقابر ، قد يكشف خطتهم ..
ما الحل إذن ؟! .. لنخيفه .. لنخيفه حتى يترك كل هذا و يهرب ..
لم لا ؟!!
لا .. لا .. ماذا عن القبور ؟! .. الرسالة ؟! .. خطه على الحائط ؟! ..إنه يريد أن يفهم .. حل منطقي للامنطقية ..!!
حل – ربما – يعثر عليه عند السيدة الانجليزية ..

••••••

و بعد عدة ساعات كان (يوسف) يخرج من مكتب الشركة ، قابضًا على ورة بين أنامله ..
اسمها (اليزابيث كافنديش) .. بريطانية .. تقيم حاليًا في فندق من فنادق الدرجة الثانية في قلب العاصمة .. هاقد عرف كيف يصل إليها و بقى أن يعرف ما الذي سيفعله معها ..
و في الأغلب لن يحدث هذا إلا حين تصير أمامه ..
عندئذ سيعرف .. سيفهم ..
و سينتهي هذا كله ..
أو سيبدأ !!

••••••

الساعة الآن التاسعة و النصف مساءً .. و المشهد كالتالي ..
(يوسف) يقف منتظرًا ، مختبئًا خلف أحد السيارات في ركن الشارع المظلم قرب مدخل الفندق .. توشك سجائره على النفاذ ، و قبضة الجوع تعصر معدته بعد يوم كامل لم يتناول فيه شيئًا ..
لقد دخل الفندق و سأل عنها ، ليعرف أنها خرجت منذ الصباح و لم تعد بعد ..

لكنها تركت حقيبتها في الغرفة ، و هذا يعني أنها لم تسافر عائدة إلى بلدها ..
و هذا يعني أنها ستعود إلى هنا إن عاجلاً أو آجلاً ..
عظيم .. لكن متى ستأتي ؟!! .. إن الإنتظار الممض هذا يحرقه ببطء !
و أخذت الساعات تمر عليه كالقرون ..
و بعد أن نفذت سجائره و صبره و قدرته على التحمل ، وقفت تلك السيارة السوداء أمام الفندق ، بصرير ينمّ عن قيادة خرقاء ، ثم خرجت هي من السيارة ، تكاد تسقط لفرط ما أسرفت في الشراب .. إنها لمعجزة أنها نجحت في القيادة إلى هذا الحد ..
راقبها (يوسف) و هي تترنح داخلة الفندق ، ثم قرر ما سيفعله .. سينتظر حتى تصعد ، ثم سيتسلل خلفها إلى غرفتها حيث لن تقاومه في حالتها هذه ..
المهم أن يستطيع أن يخرج منها كلمة واحدة و هي في هذه الحالة !
و الآن حان وقت الإنطلاق ..
اجتاز المدخل ... متجهًا إليها !
بلغ السلالم .. متجهًا إليها !
اجتاز الممر .. متجهًا إليها !
ثم وقف أخيرًا أمام باب غرفتها يرتجف انفعالاً .. مدّ يده على الباب ليطرقه ، فتحققت أسوأ كوابيسه ..
الباب مفتوح !!
هل يدخل ؟! .. لا مفر .. لذا دفع الباب بيده و دخل ..
و بدأ المشهد الذي يراه يتشكل في مخه ببطء مخيف ..
غرفة صغيرة .. منضدة .. مقعدين .. سرير في منتصف الحجرة .. هي ممدة على السرير .. مذبوحة .. الدماء تنزف من جرحها بإطراد .. السكين في يدها .. لقد ذبحت نفسها .. الدماء تتجمع عى الفراش .. عيناها الجاحظتان ترمقانه بنظرة اتهام مريرة .. و ثمة ورقة على المنضدة مكتوب عليها بخط هستيري رديء (أنت دمرت حياتي) ..
و على الحائط .. و بالدماء .. كتب :
« لقد خالفت القواعد و عليك أن تعلن نفسك عضوًا ميتًا في الليلة التاسعة »
!!!!!!!؟؟؟؟؟؟؟؟؟!!!!!!!!!!!
الآن تكتمل الصورة في ذهن (يوسف) ..
و الآن يسقط مغشيًا عليه عند باب الغرفة !!

•••••••

الليلة السابعة
فقدنا ثلاث ليالي ..!!

استجمع كل إرادته و قوته ليزيح تلك الغمامة السوداء من على عينيه ، فاكتشف أنها جفناه ..
رفعهما لحظة ، فآلم الضوء الساطع عينيه ، فأغلقهما مجددًا في ألم ثم عاد يفتح عينيه على اتساعهما .. طالعه وجه ذلك الكهل المبتسم ، الذي خرج صوته ليرن في أذنيه :
لقد استيقظت مجددًا .. سأعطيك المهديء ..
و شعر (يوسف) بوخز الإبرة في ذراعه ، ثم بالمهديء يسري في عروقه ..
ما الذي حدث ؟!
قرأ الكهل تساؤله في عينيه ، فأجاب :
أنت في المستشفى .. لقد ظللت ثلاث ليال تحت تأثير المخدر ، لذا ستشعر بنوع من العجز عن التفكير ، و إن كنت تسمع ما أقوله الآن ، استرخ تمامًا ، و سأعود إليك ..
و ارتفع وجه الكهل ، ثم غاب عن مجال إبصاره .. و في ذهن (يوسف) بدت الكلمات كالبخار ، تولد و تتلاشى بأسرع مما يستوعبها ..
المستشفى .. المعاطف البيضاء .. طلاء الجدران هذا .. إنه يذكر هذا المكان ..
لكنه لا يذكر وجه الكهل .. ثم .. ثم .. ثلاث ليال تحت تأثير المخدر !!
هل مازال تحت تأثيره ؟!
كل ما يذكره هو دماء .. دماء كثيرة .. امرأة مذبوحة ..
(اليزابيث كافنديش) .. دمااااااءء !!
و تحول بخار الأفكار في رأسه إلى عاصفة عاتية ..
ما الذي جاء به إلى هنا ؟!! .. ما الذي حدث ؟!
لقد كان يقف عند باب غرفتها ، حين فقد الوعي ، لكن عن أي ثلاث ليال تحدث هذا الرجل ؟! .. هل ظلّ مغشيًا عليه لثلاث ليال كاملة ؟؟!!
كيف ؟!!
المنوّم .. لقد خدروه لأنه كان ..
« هل استرددت وعيك ؟! »
أدار رأسه ببطء فطالعه وجه الكهل مجددًا ، و قد جلس جوار فراشه ، ليقول :
و الآن اصغ لي جيدًا يا أستاذ (يوسف) .. لقد عرفت اسمك من البطاقة ..
ما .. الذي .. حدث .. لي ؟!!

لقد عثروا عليك في غرفة فندق و معك جثة سائحة انجليزية مذبوحة .. و لقد أصبت أنت بحالة هياج عصبي ما إن استيقظت اضطررنا معها إلى تخديرك طيلة هذا الوقت .. و الآن الشرطة تريد استجوابك ، لكنك لست مضطرًا إن لم تكن مستعدًا بعد ..

ازدادت عاصفة الأفكار في رأسه هياجًا .. استجواب ..

ما الذي سيفعله ؟!

«هل أصبح جاهزًا ؟! »

اقتحم الصوت البارد القاسي أفكاره ، فأدار عينيه إلى ذلك الضابط الشاب الذي وقف عند باب الغرفة يحدقه بنظره اتهام ..

بإمكانك أن تحاول معه ، كن لا ترهقه كثيرًا ..

قالها الطبيب الكهل ، ثم غادر الغرفة ليتركهما سويًا .. أما الضابط ، فلقد اقترب من فراش (يوسف) مسددًا إليه نظرات اتهام لا تعرف الرحمة ، و قال :

(يوسف) .. ما الذي كنت تفعله في غرفة القتيلة ؟!

لا .. لا أذكر ..

قالها و أشاح بعينيه بعيدًا عن سهام الإتهام الموجهة .. إنه لن يصدقه لو أخبره بالحقيقة ، لو كان يملك حقيقة ليقولها ، لذا فليمض في تمثيلية فقدان الذاكرة هذه ..

عاد الصوت البارد القاسي ، الذي يشعره بالذنب لسبب لا يفهمه ، يقول :

ماذا تعني (بلا أذكر) هذه ؟!! ..

لقد كنت هناك ..

هناك ؟! .. أين ؟!

في غرفة القتيلة .. (اليزابيث كافنديش) ..

أي قتيلة ؟! .. انا لم اقتل أحد !

أعرف أنك لم تقتلها .. لقد انتحرت .. لكننا وجدناك عند باب غرفتها ، فما الذي أتى بك إلى هناك ؟!

لا أذكر ..

بدا الضابط و كأنما سينقض عليه لينتزع حنجرته ، إلا أنه جذب نفسًا عميقًا أخرجه في صوت هادي ، يقول :

حسن إذن .. سننتظر أن تمر علينا يا سيد (يوسف) ما إن تخرج من هنا ، و سأترك أحد الجنود أمام باب غرفتك لأتأكد أنك لن تنسى ..

و دون أن ينتظر رده غادر الغرفة بخطوات مسرعة ..

أما (يوسف) فتجاهل هذا كله ، و أخذ يفكر في المشكلة الأهم .. لقد أضاع ثلاث ليال ، و هذا يعني أنه في الليلة السابعة ، و أن الليلة التاسعة أوشكت دون أن يفهم أي شيء بعد ..

أمله الوحيد الآن يكمن في معرفة من هم أصحاب القبور الستة .. يجب أن يعرف من هم ..

فقط لو استطاع أن يخرج من هنا .. أو بمعنى أدق ، لو هرب من هنا !

بصعوبة استعاد السيطرة على عضلاته ، ليهب من على الفراش ، متجهًا إلى الخزانة في ركن الغرفة .. لابد أنهم يحتفظون بملاءات إضافيه هنا ..

هل ستبحث عنه الشرطة ؟! .. بالتأكيد ، لكنهم لن يعثروا عليه بسهولة ، و هو لا يبغي إلا أن يتركوه حتى الليلة التاسعة ..

بعدها ..

بعدها – على الأغلب – لن يصنع عثورهم عليه أي فارق !!

••••••

« صمويل لانجرهام » ... كامبريدج

« آن ديرمو » ... كامبريدج

« توم فريمان » ... كامبريدج

« ستيفن كونتز » ... كامبريدج

« جوزيف ساندر » ... كامبريدج

« بيتر مورجان » ... كامبريدج

و وسط القبور الستة ، وقف (يوسف) محاولاً فهم ما يحدث ..

صحيح أن هروبه كان رهقًا .. صحيح أن آثار المهدىء لم تتلاش بعد ..لكنه يريد أن يفهم ..

لماذا جاءت هذه القبور بعد مجيئه ؟!

لماذا يتلقى تلك الرسائل على جدران غرفته ؟!

لماذا كادت (اليزابيث كافنديش) أن تقتله ، و لماذا انتحرت بعدها ؟!!

كل ما يريده هو أن يفهم ..

« أستاذ (يوسف) ... إنه أنت .. »

ارتفع صوت الحاج (سيد) بهذه العبارة ، فأدار إليه عينين صامتتين ..

أين كنت طيلة هذه الفترة ؟! ..

لقد قلقت عليك ..
أراد أن يجيبه ، لكنه لم يستطيع ليواصل العجوز :
لقد اختفيت فجأة .. و سألت عنك ، لكن ..
انتزع (يوسف) الكلمات من حلقه ليقاطعه :
أين حارس المقابر ؟!
أي حارس ؟!!
الرجل العجوز الذي يعيش هنا ..
التمعت الحيرة في عيني الحاج (سيد) ، و هو يقول :
لا عجوز هنا سواي .. عن أي رجل تتحدث ؟!
تسللت العصبية إلى نبرات (يوسف) :
من يحرس هذه المقابر ؟!
أنا ..
و لا أحد سواك ؟!
لا أحد ..
اللعنة !!
ها هو لغز جديد يجد طريقه إلى حياته .. الرجل العجوز الذي كان يجلس معه طيلة الليل ، لا وجود له ..!
مرحى ..
هذا هو ما كان ينقصه ..!
أستاذ (يوسف) .. إنك تبدو مرهقًا للغاية ، و .. و ما هذا الذي ترتديه ؟!
نقل (يوسف) عينيه بين رداء المستشفى ، و وجه الحاج (سيد) ، ثم قال :
سأذهب إلى غرفتي ..
و تركه بخطوات متثاقلة ، و قد قرر أن يذهب هذا كله إلى الجحيم ، فهو الآن لا يريد سوى أن ينام ..
و على باب غرفته وقف .. فتح الباب ثم أضاء المصباح ..
و بعينين خاويتين أخذ يرمق الجدران ، التي أغرقتها السطور الانجليزية ذات الخط المائل المرسوم ..
لقد فاته الكثير إذن .. لكن لا بأس .. سيترك هذا للغد ، لأنه الآن ..
سيناااام ..

••••••

الليلة الثامنة

السبعة ...!

استيقظ (يوسف) في اليوم التالي و قد زال أثر المخدر من أوصاله ، فنظر إلى جدران الغرفة ، نظرة سريعة ثم غمغم :

لأستعد أولاً ..

ارتدى ملابسه ليغادر الغرفة ، ثم عاد بعد ساعة و هو يحمل إفطاره ، و على المشعل الصغير في ركن الغرفة ، ترك المياه تغلي .. الجدران لن تطير على أية حال !

و ما هي إلا دقائق حتى جلس على كرسي أمام الجدار ، ماسكًا بكوب شاي تتصاعد الأبخرة من على سطحه ، مشعلاً سيجارة ، ليبدأ في القراءة ..

بدأ يقرأ قصة السبعة ..

••••••

الزمان .. عام 1730

المكان .. (كامبريدج) .. ذلك المنزل العتيق ، ذو المدخل الضيق ، و السلالم الملتوية كأفعى ، و في الأعلى غرفة ضيقة بها طاولة خشبية مستديرة حولها سبع مقاعد ..

و على المقاعد تراص السبعة .. (بيتر مورجان) و (صمويل لانجرهام) و (آن ديرمو) و (توم فريمان) و (ستيفن كونتيز) و (روبرت داوني) و (جوزيف ساندر) ..

في ذلك الوقت في كامبريدج ، كان شعار الشباب الأوحد ، هو تكوين الجمعيات .. جمعية محبي طوابع البريد ..

جمعية كارهيها .. جمعية جامعي العملات .. جمعية اللامؤمنين بالعملات ..

جمعية جامعي الملابس النسائية و حرقها في احتفال مهيب !

أي جمعية .. المهم أن ينضم كل شاب إلى جمعية ، و أن تكون لهذه الجمعية قدسيتها التي لا تقل بالنسبة له عن قدسية الكنيسة ذاتها ..

لكن هؤلاء السبعة كانوا مختلفين .. و كانت جمعيتهم مختلفة أيضًا ..

كانت جمعية ذات قانونين لا ثالث لهما ..أولهما ألا يزيد أو يقل عدد أعضاء الجمعية عن سبعة أيًا كان السبب .. أما الشرط الثاني فهو عدم التغيب عن اجتماعات الجمعية في الثاني من نوفمبر من كل عام مهما كان السبب .. حتى لو كان الموت ذاته هو السبب ..!

قد يبدو هذا غريبًا ، لكن الأغرب حدث عام 1743 و قبل ميعاد الإجتماع بيومين فحسب ..

ففي ذلك اليوم مات (آلان ديرمو) في مبارزة .. لكنه – عملاً بقواعد الجمعية – حضر الإجتماع في ميعاده ، حيث قضوا الوقت في الرقص و الغناء و لعن كل المقدسات في كل دين ، و في نهاية الإجتماع أعلن (آلان ديرمو) نفسه عضوًا ميتًا !

و عن هذا تقول سجلاتهم التي تركوها ، ليعثر عليها فيما بعد المؤرخ (كيلي كوش) أن ستة أزواج من العيون الذاهلة حدقت في (آلان ديرمو) .. شبحه على الأدق .. و إذ استطاع أحدهم النطق ، كان ما قاله هو :

– و لكن .. كيف ؟!

– لماذا كيف ؟!

– لأن هذا غير منطقي ... لأنك ميت !!

– أخبروني عن أكثر الأشياء منطقية ، و سأجد لكم شيئًا غير منطقي فيها .. !!!

و مرت السنوات .. و توالت الوفيات .. و ازداد عدد الموتى حتى بلغ ستة !

و لابد أن الهلع قد استبد بالسابع الذي كتب يقول :

– لست أفهم ما الذي يحدث .. لم أعرف كيف بدأنا هذه الفكرة المجنونة ، و لا أعرف كيف ستنتهي .. إنني الوحيد الذي بقى حيًا ، و لقد عزمت على تدمير كل شيء قبل فوات الأوان ..

إلى هنا ينتهي دور السجلات ..

أما ما حدث بعد ذلك ، فلم تذكره السجلات ..

ففي الليلة التي كتب فيها السابع (روبرت داوني) أسطره هذه ، عاد إلى منزله و قلبه يخفق بعنف .. يجب أن ينتهي هذا كله .. يجب .. لكنه يدرك أنه لن ينتهي بسهولة ..

يدرك أن الستة معه طيلة الوقت .. لا ليس في الإجتماعات فحسب .. بل في كل وقت و كل مكان !!

يدرك أنه العضو الوحيد الحي ، و أن لهذا ثمنه .!!

يدرك أنه خالف قواعد الجمعية .. أهم قوانين الجمعية .. و لقد عرفوا ..

و الآن هو يدرك أنها ليلته الأخيرة ، لذا عليه أن يسرع ، و أن ينهي كل شيء كما بدأ ..

جلس على مكتبه ، و أخرج أوراقه ، ثم اخذ يخط رسالته الطويلة ..

و إذ انتهى كان يمسك برزمة الأوراق و يلهث .. ترى هل ستصدقه ؟!! . هل

سيصدقه أحد ؟!! .. نادى على الخادمة النحيلة الباردة ، فجاءته لتقول ببرود :
- نعم يا سيدي ..
- (هيلين) .. خذي هذه الأوراق و ضعيها في مظروف ، و أرسليها إلى يد الملكة (كارولين) شخصيًا ..
- ماذا ؟!!
- نفذ يا (هيلين) .. لا وقت للجدال .. و ثمة شيء آخر عليك القيام به ، لذا اصغ لي جيدًا ..
و ألقى على مسامعها بكل ما لديه .. كانت وصيته الأخيرة ..!
ففي الصبح عثروا على جثته شاخص العينين ، و كان الشيء الوحيد المؤكد في موته ، هو أنه لم يكن طبيعيًا بالمرة .. لم يكن كذلك أبدًا ..
الآن يقف (يوسف) في منتصف الغرفة يرتجف ..
الآن يعرف من هم الستة .. أصحاب القبور ..
لقد جاءوا من أجله .. استخدموا تلك السيدة (اليزابيث) لتنقل قبورهم إليه .و هو لا يحتاج إلى تأكيد ليدرك أن الغد سيكون الثاني من نوفمبر .. سيكون الليلة التاسعة ..
و لكن .. ما علاقته هو بهذا كله ؟! .. لا يزال لا يفهم !!
لكن عليه أن يتصرف و بسرعة .. عليه اتخاذ ردة فعل ما .. عليه أن ..
لكن الطرقات الهادرة انتزعته مما هو فيه ، ليهتف بانفعال :
من ؟!
أتاه صوت الحاج (سيد) مفعمًا بالهلع :
أستاذ (يوسف) .. افتح رجاءً ..
غمغم (يوسف) بضجر :
ما الذي يريده هذه المرة ؟!
و فتح الباب ، ليجده يرتجف أمامه من فرط الإنفعال ، فسأله :
- ماذا حدث ؟!
- أعتقد أن يجب أن ترى بنفسك ..
- أرى ماذا ؟!
لم يجب العجوز هذه المرة ، بل أشار تجاه القبور التي بدت و كأنما تمتد بلا نهاية ..
رسالة واضحة تقول (اذهب إلى هناك .. إلى دائرة القبور) ..
رسالة استقبلها (يوسف) بصمت ، قبل أن يتجه بخطوات بطيئة إلى هناك ..
الليل يرسل نسماته الباردة ، و الأوانه القاتمة ترسم السماء من جديد ..

الآن يقف أمام دائرة القبور السبعة .. سبعة ؟! .. مهلاً ، لقد كانوا ستة !!
بخطوات ذاهلة يخطو (يوسف) إلى قلب الدائرة ، و تدور عيناه في استسلام قدري على الشواهد ..
(بيتر مورجان) و (صمويل لانجرهام) و (آن ديرمو) و (توم فريمان) و (ستيفن كونتيز) و (جوزيف ساندر) .. ثم (يوسف يحي) !!
قبر سابع انضم إلى الدائرة المخيفة ، يحمل اسمه هذه المرة ..
و الآن يدرك (يوسف) من هو السابع !!

••••••

الليلة التاسعة
السابع ..!

دارت عينا ذلك الرجل فيما جوله في بطء .. ثم شدّ قامته باعتداد ، كما يليق بعقيد شرطة في مثل عمره ، قبل أن يتقدم إلى دائرة الأحداث ..
صفير سيارات الشرطة و أضوائها الزرقاء تنعكس على شواهد القبور ، تصبغ الموقف كله بطابع سينمائي محبب .. إن الأمر أشبه بفيلم ، و هو أشبه ببطله !
و حين يمتزج صوت الصافرات بحركة الرجال بأجهزة المعمل الجنائي ، في اوركسترا نادرة تعزف لحن الجريمة .. يتقدم هو بشموخ لحل طلاسم الجريمة كالمعتاد ..
نادى بصلف متعمد على أحد الجنود ، فجاءه هذا مسرعًا ، ليسأله :
ما الموقف حتى الآن ؟!
لم نعثر على الجثث بعد .. لكننا عثرنا على هذه ..
و ناوله رزمة من الأوراق تلقفها هو باستنكار ، فهتف :
- ما هذا ؟!
أتاه جندي آخر يهتف بلهفة :
سيادة العقيد .. ثمة ما يجب أن تراه ..
ماذا ؟!
الغرفة .. الغرفة التي كان يقطنها ذلك الشاب .. يجب أن ترى بنفسك
اندفع العقيد بخطوات مسرعة إلى الغرفة ، و لم يكد يدخلها حتى هتف :

ما هذا ؟!
و دارت عيناه في الجدران التي غطتها الكتابة الانجليزية المرسومة ، ليردف :
- أي عبث هذا ؟!
ثم أخذ يقلب في الأوراق في يده ، مغمغمًا :
علّها تكون ذات فائدة ..
و جلس على الفراش ليبدأ في قراءتها ..
و مع السطور بدأ يعرف ما الذي حدث ..
في الليلة التاسعة ..

●●●●●●

في ذلك اليوم ، كان أمام (يوسف) الكثير ليفعله ..
إنه اليوم .. إنها الليلة التاسعة ..!
لماذا لا يهرب ؟! .. نعم يهرب.. يترك كل هذا الجنون و يرحل ..
الفرصة أمامه و ستمر الليلة التاسعة كأي ليلة أخرى ، لكنه لن يكون هنا ..
لكنه الفضول .. الفضول الذي قتل ألف قط قبله !!
قد يرحل ، لكنه سيقضي عمره كله عاجزًا عن الفهم .. يمضي عمره كله يفكر ،
ما الذي كان سيحدث لو ظلّ ؟!
لذا سيبقى .. لذا سيفعل ما يفعله ..
من الواضح أنه السابع بصورة ما .. و من الواضح أنه يجب أن يخضع لقوانينهم
و يحضر الإجتماع ، و أن يعلن نفسه عضوًا ميتًا .. لكن !!
لكنه يملك لهم مخططات أخرى !!
خرج في ذلك اليوم قاصدًا مكانًا ما ، و عندما عاد كانت تلك اللفافة التي يخفي
فيها المسدس ، ثقيلة في يده ، تشعره بمزيج من الإطمئنان و الرهبة .. إنه لم
يستخدم مسدسًا من قبل ، لكن مجرد وجوده ، كفيل ليشعر بالأمان ..
فليأمل أنه لن يضطر لإستخدامه ، و إن كانت كل الظروف من حوله ، تؤكد أنه
لن يكون ذو فائدة أصلاً ..
و الآن ليكمل مجموعته ..
ذهب إلى غرفة الحاج (سيد) العجوز مؤجر الغرفة ، و طرق على بابه ليأتيه
الصوت المنهك الخبيث :
من ؟!
أنا (يوسف) ..

صوت حركة .. اصطدام بشيء ما .. خطوات ، ثم يفتح الباب الخشبي ، ليطل العجوز من خلفه :
أستاذ (يوسف) .. تفضل ..
ظل (يوسف) واقفًا مكانه ، و هو يسأل :
هل أحضرت ما طلبته منك ؟
نعم .. نعم .. لكن هل مازل مصرًا ؟!
بالطبع ..
لو كنت مكانك ، لإستدعيت أحدهم .. صدقني ..
لولا سني لما تركتك بمفردك ..
لا بأس سأذهب بمفردي و ليكن ما يكون ..
منحه العجوز نظرة طويلة مشفقة ، ثم غاب في غرفته ليعود حاملاً معولاً ، ناوله إياه قائلاً :
هذا سيفي بالغرض ..
عظيم .. تذكر ما أخبرتك به جيدًا ..
سأفعل .. أعدك أنني سأفعل ..
و دون إضافة عاد (يوسف) إلى غرفته ، حاملاً المعول ..
الآن سينام ، و عند منتصف الليل تمامًا سيستيقظ .. و .. و ..
و سينزل إليهم !!!

••••••

عند دقات منتصف الليل ، خرج (يوسف) من غرفته الكابوسية حاملاً المعول و المسدس ..
ملأ صدره بأنسام الليل الباردة ، ثم اتجه إلى دائرة القبور ..
ترى .. هل يرتجف جسده من البرد أم من الخوف ؟!!!
بلغ القبور السبعة التي بدأت الأعشاب تزحف على شواهدها ، لتصنع أمامه لوحة قوطية مخيفة .ذات اللوحة التي رآها في أول ليلة ..
ولج بين الشواهد بصعوبة ، ثم وقف في منتصف الدائرة محاولاً السيطرة على أعصابه ..
ثمة أصوات ما تنبعث من القبور !!.. أصوات همس !!
هل بدأ يهلوس ؟! .. لم يعد يدري !
الآن ليبدأ ، فلم يعد يفصل بينه و بين الفهم سوى دقائق قليلة مهما طالت ..

رفع المعول بأقصى ارتفاع ، ثم هوى به جوار قبره ! .. لكم يبدو الأمر ساخرًا ! لكم يبدو الأمر رهيبًا !!

و بعد نصف ساعة كان قد انهار جوار القبر يلهث بعنف ، و قد أدرك عدم جدوى ما يفعله .. إنه لن يستطيع المواصلة هكذا ..

حاول زحزحة الواجهة الرخامية مستندًا بالمعول ، فبدا أن هذا الحل أكثر منطقية .. هاهي الواجهة تهتز و تزأر .. و ببطء شديد بدأت تتحرك .. تتحرك ... مزيد من الجهد ... تنزاح .. أكثر قليلاً .. ها هي ظلمات قبره تتكشف له ..

الآن يرى الحفرة الضخمة التي كانت تختفي أسفل الواجهة الرخامية ، لينهار جسده على حافتها ، و لينظر إليها و هو يغمغم :

كان يجب أن أحضر حبلاً ..

لكن لا مجال للتراجع الآن .. لذا ألقى بالمعول في ظلام الحفرة ، و بحركة يائسة ، ألقى بجسده خلف المعول ..

كان السقوط مؤلمًا ، لكن الإرتفاع لم يكن كافيًا لتتهشم عظامه ، لذا وقف بصعوبة داخل الغرفة ، و تحسس طريقه حتى أمسك بالمعول مجددًا ، فواصل الحفر ، و ظلام القبر من حوله يخنقه ..

رجل يحفر قبره ، علّه يحل الغموض الذي دمر حياته في الليلة التاسعة ..

و حين اصطدم المعول بواجهة التابوت الخشبي أخيرًا ، ألقى بالمعول جانبًا ، ثم استنفر عضلاته المجهدة ، ليزيح الغطاء ، و في اعماقه يتلوى سؤال عن كنه الذي سيجده أسفل هذا الغطاء ..

و إذ أزاحه جانبًا ، و قف يرمق ذلك النفق الطويل في باطن الأرض ، الذي تبدى له على هذا الضوء الخافت ..

الضوء الخافت القادم من أعماق الأرض !!

وقف لحظة يصغي لأصوات الهمس ، ثم غمغم :

لقد جننت .. أرجوك ياإلهي ..أرجو أن أكون جننت ..

و بعد لحظات من التردد ، ألقى بنفسه في النفق ، و هذه المرة تدحرج جسده طويلاً ، قبل أن يصطدم بالأرض بعنف ، شعر معه و كأنما تهشمت كل عظامه ، لكنه تحامل على نفسه ليقف ، و هو يتساءل :

- و صلت .. لكن .. أين ؟!

و على الضوء الذي ازدادت حدته رأى الممر الممتد امامه ، فاجتازه بخطوات حذرة ، و يده تقبض على مسدسه ، مسددًا إياه إلى أي من سيعترض طريقه .. و في نهاية الممر ، فغر فمه ذاهلاً ، يحدق في المشهد أمامه ..

و أمامه كانت تلك القاعة ، التي احتوت على منضدة خشبية ، تراصت حولها سبع مقاعد ، و على سطحها رقد دفتر عتيق تراصت حوله الشموع .. دفتر من القرن الثامن عشر ..
تقدم مأخوذًا من هذا كله ، و جلس أمام المائدة .. هل تذكرون ؟!
حين جلس و أخرج أوراقه و قرر أن يكتب ماحدث و يحدث .. لقد كان هذا حين سمع الخطوات ..
التفت مذعورًا و المسدس يرتجف في يده ، ليصغي بانتباه إلى صوت الخطوات القادمة .. خطوات أكثر من شخص يتجهون إليه ..
ياإلهي !! .. إن ما يراه الآن مستحيل !! .. مستحيل !!
فأمامه كان السبعة يدخلون إلى القاعة ، واحدًا تلو الآخر .. مهلاً .. السبعة !!
حدق ذاهلاً في السابع الذي دخل بخطوات وئيدة ، ناظرًا في عينيه مباشرة ..
في العجوز حارس المقابر الذي قابله في الليلة الأولى ، و جلس معه ليتسامرا !!
خرجت الكلمة من فم (يوسف) كالفحيح :
أنت ؟!
أتاه الصوت الأجش ، الذي لم يخل من الود بعد :
نعم يا بني .. أنا السابع ..
تهاوت يد (يوسف) التي تحمل المسدس جواره ، و هو يهمس ذاهلاً :
و لكن .. كيف ؟؟!
ظل العجوز صامتًا ، في حين جلس الستة حول المائدة ، رامقين (يوسف) في إصرار ، ثم تحدث العجوز ليقول :
القصة أعقد بكثير من أن أحكيها .. و لكن لم لا ؟! .. اصغ جيدًا و لا تقاطعني إن كنت تبغي الفهم ، و ما أحسبك هنا إلا لأنك تريد أن تفهم .. بالتأكيد أنت تعرف الآن قصة السبعة ..
نطق أحد الستة الجالسين بانجليزية عتيقة :
بالتأكيد .. لقد كتبتها بنفسي على حائط غرفتك .. بالمناسبة ..
أنا (آلان ديرمو) ..
واصل العجوز كأن أحدًا لم يقاطعه :
السابع (روبرت داوني) كان أحد جدودي .. لا تندهش فأنت لا تعرف من هم جدودك بعد .. أنت تعرف أنه خالف التعليمات إذ تزوج و أنجب ، و بهذا أخل بكوننا سبعة .. و قوانين الجميعة صارمة لا تقبل النقاش ، لذا دفع الثمن في الليلة التي أفشى فيها بسر الجمعية ، إذ أرسل إلى الملكة (كارولين) ..
في هذه الليلة أرسل ابنته مع الخادمة إلى مكان مجهول ، فتوالى نسله و سافر

و هاجر و انتهى الأمر بي أنا .. أنا حفيد السابع ..
سأله (يوسف) بتردد خائف :
هل أنت .. ميت ؟!!
شقت الإبتسامة طريقها في ملامح العجوز ، و هو يجيب :
لا .. أنا حي .. لا بد أن يكون السابع حيًا ليضمن استمرار الستة الأخرين ..
أظنك الآن تتساءل عن كيفية استمرارهم هم ..
كان (صمويل لانجرهام) هو من تحدث بالانجليزية العتيقة ليقول :
تقصد أشباحنا .. لكن ألا تظن أنه لا داعي لأن يعرف ؟
أجاب العجوز ببساطة :
لا فارق ..
ثم عاد يوجه كلامه إلى (يوسف) :
المؤرخ الأحمق (كيلي كوش) ظن أنه فهم كل شيء عندما عثر على تلك السجلات في المنزل القديم في كامبريدج ، لكنها لم تكن السجلات الحقيقية .. فالسجلات الحقيقية ترقد أمامك الآن على الطاولة .. أنا الذي استطعت العثور عليها و حفظها بعد كل هذه السنوات ، و أنا الوحيد الذي عرف كيف كانوا يستمرون ..
انفجر (يوسف) بغتة :
ما دخلي أنا بهذا كله ؟!
طقطق العجوز بلسانه ، و أجاب بلهجة عتاب أبوية :
قلت لك لا تقاطعني .. لقد كانوا يمارسون السحر الأسود .. كل اجتماعاتهم كانت لممارسة طقوس هذا الفن الغامض ، حتى بلغوا فيه درجات لم يبلغها أحد ، و اكتشفوا أسرار لم يكن لأحد أن يعرفها .. من هذه الأسرار ، كانت طريقة الإستمرارية ، و لهذا كانوا يحتاجون إلى ضحية .. ضحية آدمية ..
و ابتسم ابتسامة واسعة جعلته يسعل ، قبل أن يردف :
- و أنت ستكون ضحيتنا الآدمية .. لا تنكر أن كل ما حدث استدرجك إلى هنا بسهولة ..
شعر (يوسف) كأن طرقات مخيفة تهوي على رأسه ، و هو يدير عينيه ذاهلاً غير مصدقًا في وجوه السبع ، ليجاوبوه بسبع ابتسامات مقيتة ..
كل هذا كان عبث !!
كل هذا ليستدرجوه إلى هنا ؟!!
خرجت الكلمات من فمه زائغة :
لـ .. لكن لماذا أنا بالذات ؟!

و انتبه إلى سؤاله فأردف :
- هل جئتم من (كامبريدج) خصيصًا من أجلي ؟!
أجاب العجوز ، ملوحًا بكفه في الهواء :
آه .. نسيت هذه النقطة .. (يوسف) هل تتبعت جدودك من قبل ؟!
لا ..
ألا تعرف أن لك أصول أجنبية ، و أن أحد جدودك هو السيد (مكارث ستيفنسون) ؟
من هو (مكارث ستيفنسون) هذا ؟!!
إنه السيد الذي قتل (آلان ديرمو) في تلك المبارزة عام 1743 .. و أنت الحفيد الوحيد له الذي لم يتزوج بعد ..
أنت آخر النسل ..
!!

●●●●●●

الآن يتدلى فك (يوسف) ببلاهة ، بينما يقول العجوز :
لا وقت لنضيعه .. آسف يا بني ، لكننا سنضطر لقتلك ..
تراجع (يوسف) ثم لم يلبث أن انتبه إلى المسدس الذي يحمله ، فسدده إلى العجوز ، و هتف :
هل نسيت أنني من يحمل المسدس هنا ؟!
اندلعت الضحكات من سبع حلوق ، ثم قال (آلان ديرمو) :
إنك لن تخرج من هنا على أية حال .. نحن انتظرنا مئات السنين ، و لن يضيرنا أن نضيف إليها الوقت اللازم لتخور قواك ..
و أضاف العجوز باسمًا :
- أما أنا فأستطيع الإنتظار ..
هتف (يوسف) :
ستخور قواك أنت أيضًا ..
مطّ العجوز شفتيه و قال :
حينئذ سيتصرف هؤلاء السادة .. إن بقاءهم رهن بقائي ..
أشكرك .. هذا ما كنت أوّد التأكد منه ..
و التمعت عينا (يوسف) بظفر ، و هو يردف :
- ها أنت قد قلتها .. إن بقاءهم رهن بقاءك .. و أنت حي مثلي ، و المسدس سيعمل معك بكفاءة ..

توترت التجاعيد في وجه العجوز ، و قال :
هل ستقتلني ؟!
هل لدي خيار آخر ؟!!
نظر العجوز نظرة استغاثة إلى الأشباح الستة ، لكن (يوسف) قفز بعيدًا عن متناول أيديهم ، صائحًا :
فليبق الكل في مكانه ..
و في ذهنه أخذت الأفكار تتواثب بأسرع مما قدرته على الإستيعاب .. يجب أن يتصرف الآن .. لن يستطيع تسلق الحفرة ، و لن يتركوه يفعل لو حاول .. و هو لن يظل هكذا طويلاً ..
لقد كان الحاج (سيد) على حق ، حين أخبره أن يحضر أحدهم معه ..!
الآن هو وحيد وسط مهرجان الأشباح هذا !!
ما الحل ؟!
قال العجوز كأنما قرأ أفكاره :
لا مفر أمامك .. استسلم ..
صرخ (يوسف) بعصبية :
قف مكانك ..
لكن العجوز واصل تقدمه :
استسلم يا بني .. استسلم ..
قلت لك الزم مكانك ..
استسلم .. استسل
و همّ العجوز أن ينقض ، لكن رصاصة انطلقت من مسدس (يوسف)
و اخترقت صدره ، ألزمته مكانه و أخرسته إلى الأبد ..
و سقط العجوز على الفور و الداء تتفجر من صدره .. و بذهول لاهث أخذ (يوسف) يحدق في الجثة أمامه ..
لقد قتله !!
و في صمت حدقت الأشباح الست في الجثة ، ثم نطق (آلان ديرمو) ليخرج صوته هادىء النبرات :
- عظيم ..
التفت إليه (يوسف) ذاهلاً ، فواصل (ديرمو) :
لقد سار الأمر كما خططنا له .. شكرًا ..
!!!
و ابتسم (ديرمو) ليقول مفسرًا :

- ألم تفهم بعد ؟! .. لقد فعلت كل ما كنا نريده .. أنت السابع لا هو .. لقد أوهمناه أنه السابع لنتخلص منه بعد أن اكتشف السجلات الحقيقية ، و الآن لا يبقى أمامك سوى الإنتحار بعد أن دمرت حياتك .. عليك أن تعلن نفسك عضوًا ميتًا كما هي قوانين الجمعية ..

همس (يوسف) ذاهلاً و هو يشعر بأن الأرض تميد به :

مستحيل !!!

الآن ينتهي دورنا .. أنت آخر نسل السابع و أيًا كان ما ستقرره فالنهاية حتمية .. سننتظرك هناك .. في الجانب الآخر ..

و سابحين في الهواء هذه المرة ، غادرت الأشباح الستة المكان ، تاركين (يوسف) و الجثة التي تنزف منها الدماء بلا توقف ..

و همس (يوسف) مرة أخرى :

- مستحيل !!

إنه الآن قاتل .. قاتل و هارب من الشرطة ..

حياته دمرت نهائيًا و كل هذا لأنه حفيد السابع .. و الآن أصبح بقاءه هنا كخروجه لا يحملان له سوى الهلاك ..

إلا إذا ..

و نظر إلى المسدس في يده بشرود ، مدركًا أنه لا خيار آخر أمامه ..

لا خيار على الإطلاق !!

●●●●●●

انتهت الأوراق في يد العقيد ، فغمغم في ذهول مستغرب :

ما هذا العبث ؟! .. لست أفهم شيئًا .!!

و دخل أحد الجنود الغرفة ، ليقول برسمية :

- سيدي .. لقد عثرنا على جثتين في أحد القبور المفتوحة .. أحدهما لعجوز تلقى رصاصة في صدره ، و الثانية لشاب يبدو أنه انتحر مطلقًا النار على رأسه ، و يبدو أنه من قتل العجوز ..

أدار له العقيد عينين شاردتين مصدومتين ، ثم قال :

انتشلوا الجثتين .. لقد انتهت القضية قبل أن تبدأ .. القاتل انتحر ..

ماذا عن الأوراق يا سيدي ؟!

يبدو أن القاتل أصيب بالجنون ليكتب هذا كله .. إننا لم نجد قبو أسفل الأرض

و لا شيء .. مجرد قبر مفتوح فيه جثتين .. إنه هارب من المستشفى على كل حال و لا يوجد تفسير آخر سوى جنونه ..
و بهدوء هب من مكانه ، ليردف بلهجة باترة :
– لقد أغلق ملف القضية ..

••••••

الآن نذهب إلى (فرنسا) .. إلى تلك الغرفة في الفندق التي استيقظ فيها (جان مارسو) على كابوس عجيب ..
كابوس عن سبع قبور في مصر ، يجب أن ينقل التوابيت منها إلى فرنسا ..
كابوس يطارده بضرواة ، كأنها مهمة عليه القيام بها ..!!
إنه لم يذهب إلى مصر من قبل ، لكن يبدو أنه سيذهب قريبًا .. و بعد أن يتم مهمته سيكون عليه أن ينتحر !!
شعور غامض يكتنفه يقول هذا .. نعم . سيتم مهمته هذه ثم سينتحر !
سيكون مضطرًا ..
هل تذكرون (اليزابيث) ؟!